ميغيل ديليبس

الطريق

رواية

ترجمة: وضاح محمود

مكتبة

ميغيل ديليبِس

الطريق

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكتاب: **الطريق**، رواية
تأليف: **ميغيل ديليبِس**
ترجمة: **وضّاح محمود**
لوحة الغلاف: **پول تيوفيل**

عدد الصفحات: 208 صفحة

الترقيم الدولي: 9 - 261 - 472 - 614 - 978

الطبعة الأولى: 2024

هذه ترجمة مرخصة لكتاب
EL CAMINO
Miguel Delibes
© *Miguel Delibes, 1950, And Heirs Of Miguel Delibes*

الناشر
دار التنوير

لبنان: بيروت- الرملة البيضاء- بناية بنك لبنان والخليج- الطابق الثاني
هاتف: 0096181944367
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.net
www.daraltanweer.com

ميغيل ديليبِس

الطريق

رواية

ترجمة

وضاح محمود

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الأوّل

كان يُمكن للأمور أن تسير على أيّ نحو آخر، لكنّها سارت على هذا النحو، وكان دانيال، البوم، يتأسّف لمسارها تأسّفًا عميقًا بعمق سنواته الإحدى عشرة، وإن تقبّلها بوصفها واقعًا محتومًا لا محيدَ عنه. فرغم كلّ شيء، كان أبوه يشعر بالاعتزاز بتطلّعه لأن يضمن له مستقبلًا أرفع شأنًا من صانع للجبن؛ أمّا في ما يخصّه هو...

كان والد دانيال البوم يعتقد بأنّ هذا هو التقدّم، مع أنّ الابن لم يكن متأكّدًا من صحّة خيار أبيه. وبالفعل، قد يكون تحضيره للشهادة الثانويّة في المدينة، على المدى الطويل، ضربًا من ضروب التقدّم؛ فهذا رامون ابن الصيدلانيّ مثلًا يدرس الحقوق في المدينة كي يصبح محاميًا، وإذ يعود زائرًا في العطلة، يأتي منفوش الريش كالطاووس الملكيّ وينظر إلى الجميع بتعالٍ؛ حتّى إنّه يخوّل نفسه الحقّ، عند الخروج من قدّاس الأحد والمناسبات الدينيّة، في أن يصحّح الكلمات التي يتلفّظ بها على المنبر الخوريّ دونْ خوسّيه، قدَّس الله سرّه. وإذا كان ذلك يعني التقدّم، فإنّ الذهاب إلى المدينة للبدء بتحضير الشهادة الثانويّة هو بلا ريب الخطوة الأولى على هذا الطريق.

إلّا أنّ شكوكًا كثيرة بهذا الصدد كانت تدور في رأس دانيال البوم، فهو يظنّ بأنّه يعلم حدود قدرة الإنسان على التعلّم والمعرفة، إذ كان يُحسن القراءة بسهولة ويتدبّر أمره في الكتابة، ويعرف قواعد الحساب الأربع وتطبيقاتها. فيرى، بالنظر إلى ذلك، أنّ عقل الإنسان العاديّ لا

يستوعب المزيد. وعلى ما يُقال فإنّ الدراسة الثانويّة في المدينة تحتاج سبع سنوات، ثمّ تليها الدراسات العليا في الجامعة، وهي بدورها تحتاج عدّة سنوات أخرى على الأقلّ. فهل هناك شيء في هذه الدنيا تقتضي معرفته أربع عشرة سنة من الجهد والتعب، أي عدد سنوات عمر دانيال الآن وفوقها ثلاث؟

ما من شكّ في أنّ الوقت يتبدّد سدًى في المدينة -يعتقد البوم- ففي نهاية المطاف، وبعد أربع عشرة سنة من الدرس يأتيك مَنْ لا يُفلح في التمييز بين الزرياب والحسّون، أو بين روث البقر وروث الحمير. إنّ الحياة شديدة الغرابة والعبثيّة والتقلّب، وليس فيها غير الكدّ وبذل الجهد في أشياء عديمة النفع أو غير عمليّة.

تقلّب دانيال في فراشه، فأصدرت نوابض السرير المعدنيّ صريرًا مزعجًا. وعلى ما يَذكر، فإنّ هذه المرّة هي الأولى التي لا يغفو فيها بمجرّد أن يأوي إلى الفراش، ذلك أنّ فِكْرَهُ هذه الليلة منشغلٌ بهموم كثيرة عليه أن ينظر فيها، وهي لا تحتمل التأجيل إلى الغد. ففي الصباح، وعند التاسعة تمامًا، سوف يستقلّ القطار الصاعد إلى المدينة ويودّع القرية إلى حين عودته في أعياد الميلاد. وسوف يظلّ حبيسًا في المدرسة ثلاثة أشهر. تهيّأ لدانيال البوم أنَّ أنفاسه تضيق، فاستنشق الهواء بعمق بضع مرّات. لقد أحسّ بدنوّ الرحيل إلى المدينة، فاعتقد بأنّه لن يقوى على حبس دموعه، وإنْ قال له صديقه روكي البَعْر، إنّ الرجل الحقّ لا يجوز له أن يبكي، حتّى عند وفاة أبيه. والبَعْرُ هذا كان صبيًّا مختلفًا عن باقي الصبيان، فهو يكبر دانيال البوم بسنتين ولم يصل بعد في الدراسة إلى المرحلة الثانويّة. ولن يصل أبدًا، لأنّ أباه، باكو الحدّاد، لم يكن يطمح لأن يراه على طريق التقدّم، بل كان مكتفيًا بأن يراه ذات يوم حدّادًا مثله، يمتلك المهارة الكافية لتطويع الحديد وفق

مشيئته. أجل، هذه مهنة جميلة حقًّا، ولكي يصير المرء حدّادًا، لا يحتاج أن يدرس أربع عشرة سنة، ولا ثلاث عشرة ولا اثنتي عشرة، ولا عشرة ولا تسعة، بل ولا سنة واحدة. وفوق ذلك يُمكنه بهذه المهنة أن يصبح رجلًا قويّ البنية، ضخمًا، مثل والد البَعْر.

لم يكن دانيال البوم، يملّ قطّ من مشاهدة باكو الحدّاد، يطوّع الحديد في الكور، بل كان يفتنه منظر ساعدَيْه المفتولَيْن كجذوع الشجر، المكسوَّيْن بالشعر الكثيف أصهب اللون، والمكتنزَين بالعضلات والعروق. ولم يكن لديه شكٌّ في أنّ باكو الحدّاد قادر على رفع كومودينة غرفة نومه بذراع واحدة من ذراعيه العظيمتَيْن، من دون أن يشعر بالإجهاد أو التعب. أمّا عن صدره فالحديث يطول، فهو يعمل مرتديًا دائمًا قميصًا خفيفًا، يعلو تحته صدره الجبّار ثمّ يهوي مع أنفاسه، كأنّه صدر فيل جريح. هذا الحدّاد كان -في نظره- الرجل بحقّ، وليس رامون ابن الصيدلانيّ، المتأنّق، المتكبّر، الشاحب مثل فتاة نحيلة مغرورة. وإذا كان ما عليه رامون من حال يعني التقدّم، فإنّ دانيال حتمًا لا يرغب به، وهو قانع بأن يكون لديه بقرتان ومعمل صغير لصنع الجبن وبستان متواضع خلف منزله، ولا يرغب بالمزيد. في أيّام العمل يصنع الجبن مثل أبيه، وفي يوم الأحد يتسلّى بصيد الطيور ببندقيّته أو يذهب إلى النهر لصيد السلمون المرقّط، أو يلعب لعبة رمي الكرات الحديديّة مع أصدقائه.

أثارت فكرةُ الرحيلِ الغمَّ في نفس دانيال البوم، إذ تسلّل ضوء الطابق السفليّ عبر شقّ في أرضيّة غرفته الخشبيّة، وحطّت حزمة الأشعة نورَها على السقف بثبات وسطوع. فطوال ثلاثة أشهر سوف يُحْرَمُ من رؤية ذلك الضوء الفوسفوريّ، ومن سماع حركات أمّه الخفيفة وهي تؤدّي مهمّاتها المنزليّة، أو من سماع الهمهمات الحادّة، الفظّة، التي يتلفّظ بها

والده العبوس. سوف يمرّ الوقت من دون أن يتنشّق ذلك الهواء الكثيف الذي يدخل الآن من النافذة المفتوحة، حاملًا إليه روائح التبن الطريّ وروث البقر الجافّ. يا إلهي، ما أطول هذه الأشهر الثلاثة القادمة!

كان بوسعه أن يتمرّد على فكرة الرحيل ويرفضها، لكنّ الأوان فات الآن. فأمّه كانت منذ ساعات قليلة تذرف الدموع وهي إلى جانبه تستعرض ملابسه.

- أي بنيّ دانيال، انظر! هذه شراشفك وهي موسومة بالأحرف الأولى من اسمك. وهذه قمصانك، وهذه سراويلك الداخليّة، وهذه جواربك. ما مِنْ غرض من أغراضك إلّا ووسمتُه بالأحرف الأولى من اسمك. ففي المدرسة سوف تكونون كُثُرًا، ومن دون اسمك قد تضيع ملابسك بين ملابس زملائك.

أحسّ دانيال البوم بتيبّس غير مألوف في حلقه، كما لو أنّ فيه جسمًا غريبًا. أمّا أمّه فقد مرّرَتْ ظاهر كفّها على أرنبة أنفها المشرئبّ واستنشقتْ ما سال منه. «لا بدّ أنّ هذه اللحظة حاسمة حتّى تقوم أمّي بفعلٍ كانت تنهاني عنه في مرّات سابقة»، قال البوم في نفسه. ثمّ أحسّ برغبة عميقة وملحّة بالبكاء.

تابعت الأمّ كلامها فقالتْ:

- اعْتَنِ بنفسك وبأغراضك يا بنيّ. فأنت تعرف حقّ المعرفة كم كلّفتْ هذه الأغراض أباكَ، وتعرف أنّنا فقراء. إلّا أنّ أباك يريد لك مستقبلًا مزهرًا في هذه الدنيا، ولا يرغب في أن يراك تمتهن عمله وتقاسي مثله. وأنتَ يا دانيال -نظرت إليه لحظة وكأنّها تحلم- بوسعك أن تغدو ذا مكانة رفيعة، بل ورفيعة جدًّا يا بنيّ؛ وأنا وأبوك فعلنا كلّ ما في وسعنا كي تحقّق غايتك.

عادت واستنشقتْ ما سال من أنفها مرّة أخرى ثمّ صمَتَتْ.

ردّد البوم في نفسه ما قالته أمّه: «أنتَ يا دانيال بوسعك أن تغدو ذا مكانة رفيعة جدًّا»، ثمّ هزّ رأسه بانفعال. لم يستوعب كيف بوسعه أن يغدو ذا مكانة رفيعة جدًّا في الحياة، وحاول أن يفهم ذلك بإصرار. فَذو المكانة الرفيعة في نظره، هو باكو الحدّاد، بصدره العريض ومَتنه الصلد وشعره الأشعث الأصهب، وبمظهره الوحشيّ العبوس كَإِلَهٍ من آلهة العهود البدائيّة؛ وكذلك أبوه، ففي صيف فات منذ ثلاث سنوات اصطاد ببندقيّته حَدَأَةً بلغ جناحاها المترين اتّساعًا... إلّا أنّ أمّه ما عَنَتْ هذا الصنف من المكانة وهي تكلّمه، ولربّما رغبت له في مكانة أخرى من طراز مكانة دونْ مويسيس المعلّم، أو من طراز مكانة دونْ رامون الصيدلانيّ الذي نُصِّبَ عُمْدَةً منذ عدّة شهور. ومن المؤكّد أنّ والدَي دانيال البوم يتطلّعان إلى أن يغدو ذا مكانة من هذا القبيل. لكنّ هذه المكانات مجتمعة لا تستهويه، وهو يحبّذ في كلّ الأحوال ألّا يصبح ذا شأن وألّا يتقدّم أبدًا.

تقلّب دانيال في الفراش واستلقى على بطنه محاولًا تهدئة شعوره بالغمّ الذي يكوي أحشاءه منذ حين، فبدأ يحسّ بالارتياح وأوشك أن يتغلّب على قلقه. وعلى أيّ حال، سواء استلقى على ظهره أم على بطنه، لا مفرّ أمامه من أن يستقلّ القطار السريع المتّجه إلى المدينة في الساعة التاسعة صباحًا؛ ولا بدّ له بذلك من أن يقول وداعًا لكلّ شيء في هذه الربوع. آهِ لو كان بوسعه أن... لكنَّ الأوان فات الآن. فذلك الحلم يدغدغ مخيّلة أبيه منذ أعوام، وهو لا يمكنه أن يخاطر في تحطيمه بنزوة مباغتة وفي لحظة واحدة. فما فَشلَ الأبُ في أن يحقّقه لذاته، يرغبُ الآن في أن يراه متحقّقًا في ابنه. إنّها مسألة نزوات، وللكبار أحيانًا نزوات تفوق نزوات الأطفال عنادًا وعبثيّة. والغريب في الأمر أنّ فكرة تغيير نمط الحياة كانت تروق لدانيال البوم منذ عدّة شهور، أمّا الآن فهي تؤرّقه.

كان قد علم بنوايا أبويه في ما يخصّ مستقبله منذ ما يقارب الستّ سنوات. فمع أنّ دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، قال مرارًا إنّ التنصّت على أحاديث الآخرين يُعتبر إثمًا، فقد كان دانيال البوم، إذ يأوي إلى فراشه ليلًا، يستمع دائمًا إلى والديه وهما يتحادثان في الطابق السفليّ. فمن شقّ الأرضيّة الخشبيّة يلمح الموقد والطاولة المصنوعة من خشب الصنوبر والمقاعد وطاولة صنع الجبن وأدوات العمل الأخرى كلّها. ومن هناك، وهو جاثم على الأرضيّة، يتنصّت عليهما، وكان ذلك عادة دأب عليها. ومع همس أحاديثهما تتصاعد إليه من الطابق السفليّ رائحة الحموضة المنبعثة من اللبن الرائب وأطباق القشّ المتّسخة التي يُجَفَّفُ عليها الجبن. كان يستطيب تلك الرائحة الواخزة، المفعمة بعبق الحليب المختمر، والتي تكاد أن تكون آدميّة.

كان قد مضى ما يقارب الستّ سنوات على ذلك المشهد الذي رأى فيه أباه في إحدى الليالي متّكئًا على طاولة صنع الجبن وأمّه تلملم بقايا العشاء. لكنّه كان مشهدًا مرتبطًا بمصيره الشخصيّ ارتباطًا وثيقًا حتّى إنّه أخذ يتذكّره الآن بتفاصيله الكاملة.

– كلّا، سوف يكون لابننا شأن آخر. كوني على ثقة من ذلك –قال الأب– لن يمضي عمره مربوطًا إلى هذه الطاولة مثل العبد، أو قولي مثل العبد ومثلي أيضًا.

وما إن قال ذلك حتّى تلفّظ بكلمة نابية وخبط الطاولة بقبضة يده المتشنّجة، فبدا كأنّه غاضب من أحد ما، مع أنّ دانيال البوم لم يستطع تحديد هويّة مسبّب الغضب. ففي ذلك الحين لم يكن دانيال يعلم أنّ البشر يسخطون أحيانًا على الحياة وما فيها من مقادير يرونها مجحفة ومثيرة للحنق. إلّا أنّ دانيال البوم كان يحبّ أن يرى أباه غاضبًا، لأنّ عينيه حينذاك تقدحان شررًا وتقاسيم وجهه تقسو، فيبدو عليه بعض الشبه بباكو الحدّاد.

– لكنّنا لا نستطيع مفارقته –قالت الأمّ– فهو ابننا الوحيد. آه لو كان لدينا على الأقل بنتٌ واحدة فقط! لكنّ رحمي يَبِسَ، كما تعلم، ولم يعد بوسعنا أن نحقّق رغبتنا وننجب بنتًا. فدونْ ريكاردو قال في المرّة الأخيرة إنّني أصبحت عاقرًا بعد الإجهاض.

أطلق الأب شتيمة أخرى مُدَمْدِمًا. ومن دون أن يعتدل في جلسته أضاف قائلًا:

– دعكِ ممّا تقولين، فهو شأن لا طائل منه. ولا تلحّي في ما لا طائل منه أبدًا.

تأوّهت الأمّ وهي تجمع في علبة صدئة فتات الخبز المتناثر على الطاولة، ثمّ قالت بنبرة خافتة:

– ربّما لا يكون الولد صالحًا للدرس، وكلّ ما نقوله الآن قد يكون سابقًا لأوانه. ثمّ إنّ إقامة أيّ ولد في المدينة مكلفة جدًّا. وهذا عبء لا يقدر على حمله إلّا من هو في مقام رامون الصيدلانيّ، أو السيّد القاضي. أمّا نحن فلا قِبَلَ لنا بذلك.

بدأ الأب يُدير أحد قوالب الجبن بين يديه بعصبيّة، فأدرك دانيال البوم أنّ أباه يتمالك نفسه كيلا يزيد من آلام زوجته. وبعد برهة أضاف:

– خلّي هذا الأمر عليّ. فصلاحيّة الولد للدرس أم لا، تتوقّف على توفّر المال اللازم له. وأظنّ أنّك تفهمين ما أعنيه.

ثمّ نهض الأب وبعثر بِمِحراك الموقدِ الجمراتِ التي لا تزال تومض فيه. أمّا الأمّ فقد جلست مُرخية يديها الخشنتين في حضنها، بعدما أحسّت فجأة بالإنهاك والخواء ومرارة الخيبة والعجز. فعاد الأب وخاطبها من جديد قائلًا:

– إنّ الأمر محسوم، فلا ترغميني على التحدّث فيه مرّة أخرى. وحينما يُتمُّ الولد عامه الحادي عشر، سوف يذهب إلى المدينة كي يبدأ دراسته.

تنهّدت الأمّ مستسلمة ولم تنبس ببنت شفة، فأوى دانيال البوم إلى فراشه، وبات ليلته متسائلًا عمّا عنَتْه أمّه بقولها إنّ رحمها يَبِسَ وإنّها أصبحت عاقرًا بعد الإجهاض.

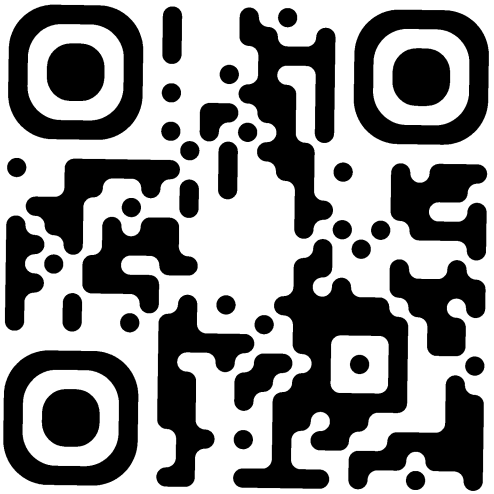

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

الفصل الثاني

أمّا الآن فإن دانيال البوم صار يعرف ما هو الرحم اليابس وما هو الإجهاض. وفكّر في روكي البعر، إذ لولا معرفته به، لربّما ظلّ حتّى الآن جاهلًا معنى ذلك. كان روكي البعر عليمًا بكلّ «تلك الأشياء»، ولطالما حذّرتْه أمّه من رفقته لأنّه نشأ بلا أمّ، فتعلّم الكثير من البذاءات. وحتّى بنات عائلة الفُليفلات قلنَ له مرارًا إنّه غدا مثل البعر أزعرَ وأرعنَ، لرفقته به.

كان دانيال البوم يهبّ دائمًا للدفاع عن روكي البعر، لكنّ أهل القرية لا يفهمونه أو يُعرِضون عنه. فأنْ يكون البعر عليمًا «بتلك الأشياء» لا يعني أنّه أزعرُ وأرَعنُ. وأنْ يكون قويًّا مثل الثور ومثل أبيه الحدَّاد لا يعني أنّه شرّير. وأنْ يحتفظ أبوه الحدّاد دائمًا بقِربة النبيذ إلى جانب الكور، فيقرّبها إلى فمه من حين إلى آخر، لا يعني أنّه سكّير مدمن؛ كما أنّه لا يصحّ الجزم -إذا ما توخّينا الإنصاف- بأنّ روكي البعر أزعر مثل أبيه، لمجرّد أنّ المثل يقول: «الولد سرّ أبيه». ولم يكن كلّ ما يُنعَتا به غير سلسلة من الافتراءات والأقاويل المغرضة، ودانيال البوم يعلم ذلك علم اليقين لأنّه يعرف البعر وأباه أكثر ممّا يعرفهما أيّ شخص آخر.

أمّا عن وفاة زوجة باكو الحدَّاد عند ولادتها للبعر، فلا ذنب لأحد فيه، كما لا ذنب لأحد في ألّا تُحسِن أخته سارة تربيته، لأنّها أقسى من أن تكون امرأة وأكثر فظاظة أيضًا. لقد تنكّبت سارة أعباء شؤون المنزل منذ وفاة أمّها، وكانت صبيّة ذات شعر أصهب مشعّث، بدينة وقويّة

البنية مثل أبيها وأخيها. أحيانًا، كان دانيال البوم يتصوّر أنّ الأجل ما عاجَل أمّ روكي البعر إلّا لأنّ شعرها لم يكن أصهبَ، فالشعر الأصهب في نظره قد يكون بالفعل سببًا في إطالة العمر، أو على الأقلّ ضربًا من ضروب التعاويذ الواقية. وبغضّ النظر عن أسباب الوفاة، فإنّ أمّ البعر تُوفّيت عند ولادتها له، ومُذَّاك تعاملتْ معه أختُه سارة التي تكبره بثلاثة عشر عامًا كما لو أنّه قاتل لا أمل في إصلاحه. وغنيٌّ عن القولِ إنّ سارة كانت عصبيّة وذات طبع نزق وحادّ. أمّا أوّل مرّة رآها فيها دانيال البوم، فيوم كانت تنزل الدرج راكضة وراء أخيها وشعرها منفوش ومظهرها مخيف، وهي تصيح بجنون:

– أنتَ حيوانٌ، وأكثر من حيوان! بل إنّك حيوان من قبل أن تُولد.

وبعد ذلك، سمعها تردّد هذه اللازمة مئات، بل آلاف المرّات، غير أنّ روكي البعر لم يكن يأبه لها البتّة. ولا ريب في أنّ ما زاد من حدّة طباع سارة وفاقمها هو فشلها الذريع في تربيتها لأخيها. ذلك أنّ البعر منذ نعومة أظفاره كان يهزأ من تخويفه بالبعبع وبأبي عِدْل وبالعسكريّ. ولا بدّ أنّ قوّته البدنيّة كانت وراء هذا الازدراء الكبير الذي يكنّه لكلّ من لا يكون رجلًا حقيقيًّا، بعظامه وعضلاته ودمه الجاري في عروقه. وإذا ما هدّدته سارة قائلة: «إن البعبع آتٍ يا روكي، فكن عاقلًا»، فإنّه يبتسم لها بشيطنة وكأنّه يتحدّاها ويقول: «هيّا، فليأتِ! وها أنا بانتظاره». آنذاك لم يكن عمر البعر يتجاوز الثلاث سنوات ولم يكن بعد قادرًا على الكلام، فكانت سارة تُجنّ غضبًا وهي ترى تهديداتها تذهب سدًى أمام لا مبالاة الصغير واستهزائه.

وشيئًا فشيئًا كان البعر يكبر، وصارت أخته تلجأ إلى أساليب أخرى، فتحبسه في مستودع التبن إن ارتكب حماقة، ثمّ تقرأ عليه وهي في الخارج «صلاة المحتضر»، وترتّلها على مهل، بصوت مخنوق، كئيب.

وما زال دانيال البوم يتذكّر إحدى زياراته الأولى لمنزل صديقه، إذ كان باب المنزل مشقوقًا، ولا يُرى أحد منه، ولا يُسمع أيّ صوت عبره، كما لو كان المنزل مهجورًا. وأمامه امتدّ الدرج الذي يؤدّي إلى الطابق العلوي يناديه، فتأمّله ولمس درابزينه بيده لكنّه لم يجرؤ على الصعود، ذلك أنّه كان قد سمع عن سارة من الناس، كما أنّ السكون الرهيب حوله بثّ في نفسه رهبة مبهمة. سلّى نفسه قليلًا إذ أمسك بسحليّة وهي تحاول أن تنسلّ من بين بلاط أرضيّة المدخل. وفجأة طرق مسمَعَيْهِ سيل من اللعنات الغاضبة، أتاه من علٍ، ثمّ تلاه دويّ إطباق أحد الأبواب، فقرّر أن ينادي صديقه وهو علىٰ شيء من التهيّب:

- يا بعر! يا بعر!

وفي الحال انهال عليه وابل من الكلام العدوانيّ، فانكفأ على نفسه وانكمش.

- مَن هذا الحيوان الذي ينادي هكذا؟ ليس بيننا هنا مَن اسمه البعر، فنحن جميعًا في هذا المنزل نُسمّى بأسماء القدّيسين. هيّا، انصرف من هنا!

ولم يدرك دانيال البوم قطّ لماذا ظلّ آنذاك مسمّرًا في مكانه، رغم كلّ شيء، كما لو أنّه صنمٌ. فالواقع أنّه أُصيب بالجمود وانعقد لسانه وكادت أنفاسه تنقطع، فسمع حينئذ سارة وهي تتكلّم من فوق، فأصغى إليها بانتباه، إذ أخذ كلامُها ينهمر، عبر بيت الدرج، كالمطر الجنائزيّ الكئيب:

- يومَ تُشلّ ساقاي وتُخطراني بدنوّ أجلي ورحيلي عن هذه الدنيا...

بعدها رنّ صدى صوت البعر، مخنوقًا، بعيدًا، كما لو أنّه طالع من قاع بئر:

- انظر إليّ بعين الرحمة يا يسوع الرحيم.

ثمّ عاد من جديد صوت سارة بتهدّجاته التي ازدادت عمقًا وهديرًا:

- يومَ أحدّق فيكَ بعينيّ الجليديّتَيْن الجاحظتَيْن رعبًا من الموت الوشيك وأنظر إليكَ نظرات الواهن المحتضر...

- انظر إليّ بعين الرحمة يا يسوع الرحيم. كرّر صوت البعر.

وأخذ الرعب ينسلُّ خفيفًا إلى جسد دانيال البوم فاستولى عليه وجمّده، إذ إنّ تلك التراتيل الكئيبة وصلت حتى نُقيّ عظامه وأصابته بالقشعريرة. مع ذلك لم يتزحزح من مكانه، لأنّ فضولًا مبهَمًا وغريبًا ألحّ عليه في الصمود.

- يومَ تنطفئُ حواسّي -تابعتْ سارة ترتيلها الرتيب- وتغيبُ الدنيا وما فيها عن ناظريّ وأئنُّ بين آلام الاحتضار وعُجالة الموت...

فطلع مرّة أخرى من مستودع التبن، صوت البعر الناعس، المكتوم، الهادئ:

- انظر إليّ بعين الرحمة يا يسوع الرحيم.

ولما أنهت سارة جلستها التأديبيّة، أضحت لهجة البعر لجوجة:

- هل انتهيتِ؟

- نعم، أجابت سارة.

- هيّا، افتحي الباب إذًا.

فعاجلته سارة بسؤال ينطوي على غيظ لم تفلح في كتمانه:

- هل اتّعظت؟

- لا.

- لن أفتح لك الباب إذًا.

- افتحيه أو أكسره، فقد انتهى العقاب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

امتثلت سارة لأمر البعر وفتحت الباب مكرَهة. فقال لها وهو يمرّ بجانبها:

- لم تخيفيني هذه المرّة مثل المرّات السابقة، يا سارة.

فقدت أخته صوابها فردّت عليه غاضبة:

- اخرس أيّها الخنزير! فذات يوم سوف أهشّم وجهك أو ربّما أفعل فيك ما هو أسوأ من ذلك.

ردّ البعر: - لا يا سارة، إيّاكِ أن تلمسيني! فمَنْ يرفع يده عليّ لم يُخْلَق بعد، وأنتِ تعرفين ذلك.

توقّع دانيال البوم أن يسمع دويّ صفعة على وجه البعر. لكن لا بدّ أن سارة تروّت في ردة فعلها فخاب ظنّه ولم يسمع الصفعة التي توقّعها، بل سمع وقع خطوات صديقه الثابتة وهو ينزل الدرج، فخرج مسرعًا من الباب المردود، تدفعه رغبة عفويّة صادقة بالتستّر على تنصّته عليهما. ووقف ينتظره في الشارع، ولمّا صار البعر إلى جانبه قال له:

- هل سمعتَ كلام سارة؟

لم يجرؤ دانيال البوم على الكذب فاعترف:

- سمعتُه.

- لا بدّ أنّك لاحظت مدى تفاهتها ولؤمها.

- الحقّ أنّها أخافتني، اعترف له البوم مضطربًا.

- لا، لا تُعِرْ كلامَها انتباهًا. فكلّ ما قالته عن العيون الجليديّة والسيقان المشلولة ترّهات. فأبي يقول إنّ المرء لا يحسّ بأيّ شيء إذا ما أسلم الروح.

هزّ البوم رأسه مشكّكًا بما سمع وسأله:

- وكيف لأبيك أن يعرف ذلك؟

ما سبق لروكي البعر أن خطر بباله هذا السؤال، فتردّد لحظة في الجواب، ثمّ أوضح في الحال:

- وما أدراني أنا؟! قد تكون أمّي هي التي أخبرتْه بذلك وهي تحتضر، فأنا لا أتذكّر التفاصيل جيّدًا.

ومنذ ذلك اليوم سَمَتْ مكانة البعر في عيني دانيال البوم عاليًا وصار محطّ إعجابه. فالبعر لا يدّعي المعرفة ولا الذكاء، إلّا أنّ مواجهته للكبار بحزم عند اللزوم هي من أبسط الأشياء لديه، وفي بعض المواقف يبدو رجلًا حقًّا بثباته ورباطة جأشه. وهو لا يرضخ للأوامر المفروضة عليه ولا لتلك العدالة المتذبذبة المتلوّنة، السائدة في منزله. فأخته تهابُه وكلمتُه ليست صفرًا على الشمال كما حاله هو. كلمته تعادل كلمة رجل فعلًا ويُحْسَبُ لها ألف حساب في المنزل كما في الشارع. إنّ البعر يتمتّع بشخصيّة قويّة حقًّا.

وبمقدار ما يمرّ الوقت، كان إعجاب دانيال بالبعر يزداد، إذ كان يتعارك كثيرًا مع صبيان القرى المنتشرة في الوادي، ويخرج دائمًا من العراك منتصرًا، من دون أن يُصيبه خدش. وذات يوم عند المساء، في أحد المهرجانات الشعبيّة، شاهد دانيال صديقَه البعر يوسِع الطبّال ضربًا بالعصا حتّى أعياه. ولمّا أُنْهِكَ هو من ضربه، ألبسَه الطبلَ في رأسه كما لو أنّه قبّعة. فضحك الحاضرون أيّما ضحك، ذلك أنّ الطبّال كان بعمر يناهز العشرين سنة، في حين أنّ عمر البعر لا يتجاوز الإحدى عشرة. وحينها أدرك البوم أنّ روكي ملاذ آمن يمكنُه الاحتماء به دائمًا، فصار ملازمًا له بلا انفكاك، مع أنّ قربه منه دفعه أحيانًا إلى أن يتمادى في جرأته، فنال من جرّاء ذلك بعض العصيّ عقابًا له من معلّم المدرسة دونْ مويسيس. لكنّ البعر، في المقابل، حماه من الخطر غير مرّة، وردّ عنه الأذى.

ومع كلّ ذلك لم يكن لدى أمّ دانيال ودونْ خوسيه الخوريّ ودونْ مويسيس المعلّم والفليفلة الكبرى وبنات عائلة الأرنبات، مبرّرات كافية كي ينعتوا روكي البعر بالأزعر والأرعن. فهو إن تشاجر مع أحد، فذلك لمسألة عادلة دائمًا أو لغاية عمليّة، مفيدة. وما أقحم نفسه قطّ في مشاجرة لسبب تافه أو لمجرّد الرغبة في الشجار.

وكذلك كان الحال مع أبيه، باكو الحدّاد. فهو يعمل بجدّ أكثر من أيّ إنسان آخر ويكسب ما يكفيه من المال. وغنيّ عن القول إنّ الفليفلة الكبرى والأرنبات يقسّمن الناس في الوادي على هواهنّ، فلا يرين فيهم إلّا صنفَيْن متطرّفَيْن منهم: من يكسبون القليل من المال وهؤلاء هم الكسالى الخاملون؛ ومن يكسبون الكثير من المال وهؤلاء لا يعملون إلّا كي ينفقوا مالهم في شرب النبيذ. لذا فإنّهنّ يطالبن بحدّ وسط بين الاثنين، وهو حدٌّ يندر بلوغه ويصعب الوصول إليه، بحسب زعمهنّ. لكنّ باكو، والحقّ يُقال، لم يكن يشرب إلّا لحاجة فعليّة فيه إلى الشراب. ودانيال البوم يعي ذلك تمامًا لأنّه يعرف باكو أكثر ممّا يعرفه أيّ شخص آخر. فهو إذا لم يتناول الشراب، فإنّ الكور ينطفئ. ولقد أكّد باكو الحدّاد ذلك غير مرّة، إذ كان يقول: «حتّى السيّارات، بلا وقود لا تعمل»، ثمّ يبلّ حلقه برشفة من قِربته، فتدبّ فيه الهمّة على الفور ويعاود العمل بنشاط أعلى من ذي قبل. وفي المحصّلة كان عمله ذاك يعود بالنفع على القرية كلّها، لكنّ أهلها لا يشكرونه ولا يحمدونه بل إنّهم ينعتونه بالسكّير الماجن. ولحسن الحظّ أنّ الأب كان مثل ابنه، حليمًا، واسع الصدر، لا يأبه بتلك المسبّات. إلّا أنّ دانيال البوم كان يعتقد بأنّ باكو الحدّاد، إن غضب يومًا، فلن يُبقي في القرية حجرًا على حجر، وسوف يدمّر كلّ ما فيها كالإعصار.

أمّا مغازلة الحدَّاد للصبايا اللواتي يعبرْنَ أمام محلّه ودعوته لهنّ للجلوس معه قليلًا وتناول جرعة من الشراب، لم تكن هي أيضًا أمرًا يستحقّ أن يُلام عليه، فهو في حقيقة الأمر رجل أرمل، ولا يزال في سنّ يؤهّله للزواج ثانية. كمّا أنّ لديه في ضخامة جسمه ما يسترعي انتباه النساء. فالأمر إذًا ليس مستغرَبًا، وها هو دونْ أنطونيو، الماركيز، قد تزوّج ثلاث مرّات، ولم يكفّ أحد عن مناداته دونْ أنطونيو بسبب ما

فعله، بل ما انفكّ الجميع يرفعون قبّعاتهم تحيّة له إذا ما صادفوه في الطريق، وما زالوا ينادونه بالماركيز. وبعد كلّ هذا، فلئن رفض باكو الحدّاد الزواج ثانية، فذلك كيلا يأتي لأولاده بامرأة غير أمّهم، لا كي يدّخر المزيد من المال من أجل الشراب، مثلما غمزت من قناته بخبثٍ الفليفلة الكبرى والأرنبات.

وفي أيّام الآحاد والأعياد، كان باكو الحدَّاد يشرب حتّى الثمالة في حانة تشانو. أو على الأقلّ هذا ما تقوله عنه الفليفلة الكبرى والأرنبات. لكنّ للحدّاد،إذ يفعل ذلك، أسبابه. ومنها رغبته الكبيرة في نسيان أيّام العمل الستّة الماضية، والأيّام الستّة المقبلة التي لن يعرف فيها طعم الراحة أبدًا، فالحياة تتطلّب الكثير من الجهد ولا ترحم البشر.

كان مزاج باكو يحتدّ بتأثير الكحول، فيثير أحيانًا مشاجرات حامية مع الحاضرين في حانة تشانو. لكنّه لم يكن قطّ يُشهر سكّينًا في وجه أحد من خصومه حتّى وإن أقدموا هم على إشهاره في وجهه. مع ذلك، فإنّ الأرنبات والفليفلة الكبرى كنّ ينعتنه بالعربيد المُقرف، علمًا أنّه لم يكن يتعارك مع أحد إلّا أعزلَ من كلّ سلاح، وبمنتهى النبالة التي يمكن تصوّرها. والحقّ إنّ الفليفلة الكبرى والأرنبات ومعلّم المدرسة والمشرفة على منزل دونْ أنطونيو وأمّ دانيال البوم ودونْ خوسيه الخوريّ لم يكونوا يغتاظون من باكو الحدّاد إلّا لعضلاته المفتولة وشخصيّته الفذّة وسطوته البدنيّة. ولو كان باكو وابنه هزيلَيْن، ناحلَيْن، لما اكترث أهل القرية لأن يكونا سكّيرَيْن أو عربيدَيْن، ولصار بوسعهم القضاء عليهما في أيّ لحظة، بصفعة واحدة. أما حيال تلك الضخامة الجسديّة الفريدة التي تميّزهما، فالأمر بات مختلفًا، ولم يعد أمام أهل القرية إلّا الاكتفاء باغتيابهما والنميمة عليهما. وما أبهى ما قاله مرّة أندريس الإسكافيّ: «إن شَحّت العضلات في الأذرع، فاضت في الألسن».

كان دونْ خوسيه، قدَّس الله سرّه، يكنّ في نفسه لباكو الحدَّاد مودَّة عميقة مع أنّه يجاهر بانتقاده له على تماديه في سلوكه. فمهما يحمل عليه ويقسو لا يمكنه أن ينسى أبدًا عيد السيّدة العذراء في تلك السنة التي مرض فيها توماس مرضًا شديدًا ولم يتمكّن من حمل محفّة التمثال، واضطرّ خوليان لمغادرة القرية في سفرة طارئة، وهو ممّن اعتادوا أيضًا حمل المحفّة في كلّ عيد. ولا ينسى الخوريُّ أيضًا كيف تعقّدت الأمور ولم يعثر على من يحلّ محلّهما، حتّى إنّه فكّر في إلغاء الموكب، وإذا بباكو الحدّاد يحضر فجأة إلى الكنيسة ويمثُل أمامه بكلّ تواضع. وقال:

– إن أذنتَ لي يا سيّدي الخوريّ بحمل السيّدة العذراء، فأنا قادر على حملها والطواف بها في شوارع القرية كلّها، شرط أن أحملها بمفردي ومن دون عون من أحد.

ابتسم دونْ خوسيه في وجه باكو بخبث.

– يا بنيّ، أشكر لك شهامتك ولا أشكّك أبدًا في قدراتك البدنيّة، لكنّ التمثال يزن أكثر من مائتي كيلو.

أطرق باكو الحدّاد برأسه وهو على شيء من الحياء من قوّته الهائلة. ثمّ قال بنبرةٍ ملحّة:

– بوسعي أن أحمل فوق التمثال مائة كيلو أخرى يا أَبَتِ. ولن تكون هذه المرّة الأولى...

وفعلًا، طافت السيّدة العذراء شوارع القرية محمولة على كتفَيّ باكو الحدّاد القويّيْن. ومرّت فيها بخطى وئيدة، فتوقّفت في أربع محطّات: في الساحة وأمام البلديّة وقبالة البريد، ثمّ على باب الكنيسة عند العودة، حيث ترنّمت الحناجر، كما جرت العادة، بإحدى الترانيم الشعبيّة. وفي ختام الموكب تحلّق الصغار حول باكو الحدّاد منبهرين بقوّته، فأخذ

يطلب إليهم، وهو يبتسم ابتسامة صبيانيّة، أن يلمسوا قميصه عند الصدر والظهر والإبطَيْن. وقال لهم معتزًا:

– تأكّدوا بأنفسكم، تأكّدوا، فأنا لم أتعرّق قطّ، ولم تسقط منّي ولو قطرة عرق واحدة.

ولامت الفليفلةُ الكبرى والأرنباتُ الخوري دونْ خوسيه على سماحه بأن يُحمل تمثال السيدة العذراء على الكتفَيْن الأكثر إثمًا في القرية. واعتبرن الفعل المشرّف الذي قام به باكو الحدّاد مباهاة أثيمة. إلّا أنّ دانيال البوم لم يخطئ في ظنّه: فما لا يُغْتَفَرُ لباكو الحدَّاد، لم يكن في الحقيقة إلّا بنيته العظيمة وقوّته التي لا تضاهيها قوّة أيّ رجل في الوادي... في الوادي كلّه.

الفصل الثالث

الوادي... كان ذلك الوادي يعني الكثير لدانيال البوم، بل إنّه في عينيه كلّ شيء إذا ما تبصّرنا في الأمر عن كثب. ففيه وُلِد، وفيه عاش سنيه الإحدى عشرة، وما اجتاز قطّ سلسلة الجبال العالية التي تحيط به، بل ما أحسّ مرّة بالحاجة إلى فعل ذلك.

أحيانًا، كان دانيال البوم يعتقد بأنّ أباه والخوريَّ والمعلّمَ محقّون في رأيهم بأنّ الوادي ليس إلّا حوضًا كبيرًا مستقلًّا بذاته ومنعزلًا تمامًا عن العالم الخارجيّ. إلّا أنّ الوادي لم يكن كذلك فعلًا، فهو مربوط إلى حبل سرّيّ، أو إلى حبلَيْن بتعبير أدقّ، يُحييانِه ويُفسِدَانِه في الوقت ذاته، وهما سكّة القطار وطريق السيّارات. وكلاهما يخترق الوادي من الجنوب إلى الشمال، قادمًا من سهول قشتالة المصفرّة القاحلة، ساعيًا لبلوغ السهول الساحليّة الموسومة بزرقة البحر، فيشكّلان معًا صلة الوصل بين عالمين واسعين، متناقضين.

وعبر الوادي، كانت مسارات السكّة والطريق والنهر -الذي يلاقيهما بعد اندفاعه في المهاوي والمنحدرات المهولة، قادمًا من قمة جبل راندو- تَتقاطع في ما بينها مرارًا وتكررًا، فينشأ من جرّاء ذلك مشهد عجيب من الجسور والأنفاق والمعابر والقناطر.

في الربيع كما في الصيف، اعتاد روكي البعر ودانيال البوم أن يجلسا عند الغروب على أيٍّ من التلال العالية، يتأمّلان الوادي بنبضه الخافت الذي لا ينقطع، وهما غارقان في خشوع يكاد أن يصير تعبّدًا. وكانت

سكّة القطار والطريق يتلوّيان في قاع الوادي تلوّيًا حادًّا متكرّرًا؛ فتارةً يتقاربان وطورًا يتباعدان، لكنّهما يظلّان دائمًا في المدى المنظور مثل ثلمَيْن أبيضَيْن يشقّان خضرة المروج الكثيفة وحقول الذرة الصفراء. ومن بعيد، كانت القطارات والسيّارات والقرى البيضاء تتضاءل في حجمها أمام أعينهما وتصير مثل مجسّمات عيد الميلاد، فتبدو بعيدة بعدًا لا يُصدّق، وفي الوقت عينه سهلة المنال وقريبة قربًا لا يمكن تصوّره. وفي بعض الأحيان يُلمح قطاران أو ثلاثة في آن معًا، وكلّ منها يتقدّم على السكّة وهو معلّق إلى السماء بعمود من دخانه الأسود، ماخرًا البراري المعشوشبة، مفسدًا انسجام خضرتها ونضارتها. وكانت رؤية القاطرات وهي تطلّ برؤوسها من أفواه الأنفاق مثيرة للبهجة؛ فهي تطلّ منها مثلما تطلّ الجداجد برؤوسها من الأوكار المنتشرة في الحقول حينما يبول فيها هو أو البعر، حتّى يُغرقها. إنّ القاطرة والجدجد متشابهان في المظهر عند خروجهما من الجحر، فكلاهما يخرج لاهثًا، مذعورًا، مختنقًا.

كان البوم يستمتع بالاستغراق في سكينة الوادي وصفائه الهانئ، وبتأمّل المروج الفسيحة المتلاصقة، المقسّمة إلى حقول صغيرة، والمزركشة بالقرى المتناثرة هنا وهناك. وكان، من حين إلى آخر، يجول ببصره على أحراش الكستناء التي تبقّع الوادي ببقع داكنة كثيفة، أو على أيكات شجر الكينا التي تزهو بلونها الفاتح، الخافت؛ وكذلك على الجبال المنتصبة بعيدًا في كلّ حدب وصوب، والتي تبدّل لبوسها بحسب الفصل والمناخ، فترتدي حلّة قشيبة خفيفة أيّام الصحو، لا تفتأ أن تصير باهتة سميكة، ذات لون رماديّ داكن، في الأيّام المكفهرّة.

كان البوم يُسَرّ بذلك المشهد أكثر من أيّ شيء آخر، ربّما لأنّه لم يشاهد غيره قطّ. كان يُسرّ برؤية خدر الحقول الناعسة واشتعال النضارة

في الوادي، ودفق الضجيج والحركة الذي تبعثه المدنيّة مع القطارات من حين إلى آخر، بدِقّة زمنيّة تكاد تكون مضبوطة تمامًا.

وفي مساءات كثيرة، كانا يفقدان الإحساس بالوقت، أمام سكون الطبيعة وصمتها، فيهبط الليل عليهما، وتعجّ قبّة السماء بالنجوم، فيرزح روكي البعر تحت وطأة هلع مهول. وفي مثل هذه الأحوال، ليلًا وبعيدًا عن الناس، كانت تخطر له أفكار غريبة، هي خواطر لا تشغل باله عادة.

ذات مرّة سأل:

- يا بوم! إن سقطت إحدى هذه النجمات، أَمِنَ الممكن ألّا تصل إلى القاع أبدًا؟

نظر دانيال البوم إلى صديقه إذ لم يفهم قصده، وأجاب:

- لا أفهم ما تعنيه.

قاوم البعر عجزه عن الكلام، فأومأ بيديه مرّات عدّة ثمّ قال أخيرًا:

- النجوم موجودة في الفضاء، أليس كذلك؟

- بلى.

- والأرض هي في الفضاء أيضًا كأيّ كوكب آخر. أليس ذلك صحيحًا؟

- بلى. هذا ما يقوله معلّم المدرسة على الأقلّ.

- حسنًا. وهذا ما أقوله أنا أيضًا. ولكنْ، إن سقطت إحدى النجمات ولم ترتطم بالأرض ولا بأيّ كوكب آخر، ألا تصل أبدًا إلى القاع؟ أم إنّ الفضاء الذي يلفّها لا ينتهي أبدًا؟

غرق دانيال البوم في التفكير لحظة وقد استولى عليه قلق عظيم لا حدود له. ثمّ خرج صوته من حنجرته مضطربًا وحادًّا كأنّه عويل.

- أرجوك يا بعر!

- ماذا؟
- لا تسألني هذه الأسئلة، فأنا أصاب منها بالدوار.
- بالدوار أم بالخوف؟
فقال مسلّمًا: - ربّما بالاثنين معًا.
قهقه البعر ضاحكًا، ثم قال:
- سوف أُطلعك على سرّ.
- ما هو؟
- أنا أيضًا تُخيفني النجوم وكلّ هذه الأشياء التي لا حدود لها أبدًا ولا نهاية. ولكن حذارِ أن تبوح بما أقوله لك لأحد، أفهمتَ؟ فأنا لا أريد أبدًا أن تعلم أختي سارة بذلك أبدًا.

كان البعر يختار دائمًا لحظات الهدوء والعزلة هذه كي يبوح بأسراره، إذ كانت الجبال الشاهقة بذراها المنيعة التي تعانق الأفق، تثير في نفسه إحساسًا بالضآلة، مثيرًا للحنق. وإذا ما عرفت سارة بنقطة ضعف البعر، قال دانيال البوم في نفسه، فسوف تسيطر عليه بسهولة. ولكن هيهات لها أن تعرف ذلك منه، فهي بنت سمجة وفظّة وروكي خير صديق له وأعزّ رفيق. فلتكتشف هي بنفسها، إن كانت قادرة، ذلك الذعر المبهم الذي تبعثه النجوم في قلب البعر!

وفي طريق العودة إلى القرية، بعد حلول الظلام، كان نبض الحياة في الوادي ينجلي ويتّضح، فتصفِّر القطارات في المحطّات المتناثرة، ويمزّق صفيرها الفضاء كأنّه طعن السكاكين، وتعبق الأرض بضَوع طيّب محمّل بالنداوة ورائحة روث البقر، كما يفوح العشب أيضًا برائحته على اختلاف شدّتها، تبعًا لحالة الجوّ وتواتر سقوط الأمطار.

كان دانيال البوم يستطيب هذه الروائح مثلما يستطيب أن يسمع في هدأة الليل الخوار الناعس لإحدى الأبقار، أو العويل الصادح الرتيب،

الصادر عن إحدى العربات التي تجرّها الثيران وهي تتقدّم متعثّرة على أحد الدروب.

في الصيف، مع تبدّل التوقيت، كانا يعودان إلى القرية قبل حلول الظلام. وفي طريق العودة اعتادا أن يمرّا فوق النفق، مُتخيّرَين ساعة مرور القطار العابر للإقليم. فكان -هذان الشقيّان- ينبطحان أرضًا فوق الأكمة ويمدّان رأسيهما نحو الهاوية ثمّ ينتظران بلهفة مرور القطار. كان الصدى العميق المرتدّ من الوادي يصل إلى مسامعهما بفاصل زمنيّ كافٍ كي يُنبِئهما باقترابه. وإذ يخرج القطار من النفق ملتفًّا بسحابة كثيفة من الدخان، يبدآن بالعطس والقهقهة ضاحكَيْن حتّى يُغشى عليهما، فيما هو ينزلق على السكّة تحت أبصارهما بطيئًا، صاخبًا، متقدّمًا باطّراد، ويكاد أن يكون في متناول أيديهما.

ومن هناك كانا ينزلان عبر أحد دروب رعاة الماعز الضيّقة إلى الطريق. وكان النهر يمرّ تحت الجسر هادرًا كالشلّال، بمائِه المنحدر من الجبال، والجاري بعزم بين حجارة كبيرة عصيّة على الحتّ. وبعد عشرين مترًا نحو الأسفل، يهدأ هديره العميق، إذ يركد الماء في بركة الإنكليزيّ حيث يسبحان في الصيف خلال المساءات الحارّة.

وعند ملتقى النهر بالطريق تقع حانة كينو الأبتر، على مسافة كيلومتر واحد من القرية. ودانيال البوم لا ينسى أيّامها المنصرمة الجميلة، أيّام البحبوحة والرخاء، حينما كان الأبتر يقدّم لكلّ منهما كأسًا كبيرة من عصير التفاح مقابل خمسة سنتات فقط، فضلًا عن مسامرته لهما. لكنّ الأحوال تغيّرت مؤخّرًا ولم يعدِ الأبتر يقدّم لهما الآن مقابل الخمسة سنتات إلّا الكلام.

كانت الحانة خالية من الروّاد في معظم الأوقات وكان كينو سخيًّا حتّى الإسراف، مع أنّه كان من الطيش أن يتحلّى المرء بالسخاء في تلك

الأيّام. وبغضّ النظر عن الأسباب، فإنّ الحانة لم تعد تقدّم لروّادها إلّا نبيذًا من صنف رديء، يتناوله عمّال معمل المسامير الواقع على مسافة خمسمائة متر من الحانة نزولًا مع النهر، فيطفئون به ظمأهم.

بعد الحانة إلى جهة اليسار، خلف المنعطف الكبير، يقع معمل الجبن الذي يمتلكه والد البوم. وقبالته تمامًا تقع محطّة القطار متوغّلةً قليلًا في الحقول، قريبةً من المنزل الزاهي بلونَيْه الأبيض والأحمر والذي يسكنه مأمور المحطّة كوكو. وبعد ذلك تبدأ القرية فعليًّا صاعدةً المنحدر.

كانت قرية الصديقَيْن صغيرة، متوارية عن الأنظار، بسيطة. والمنازل فيها مشيّدة بالحجر، محاطة بأروقة مُشْرَعَة للريح، مزيّنة بزخارف خشبيّة، مطليّة بالأزرق عمومًا. وكان ذلك اللون يتألّق في الربيع والصيف، إلى جانب اللونَيْن الأخضر والأحمر المميِّزين لنباتات الجيرانيوم التي تملأ الأروقة والشرفات.

وكان أوّل بناء فيها من الجهة اليسرى هو الصيدليّة، وقد أُلحِقت به حظائر دونْ رامون الصيدلانيّ والعمدة، وهي حظائر رائعة، مليئة بالأبقار المنتفخة صحّة أو مرضًا. وعلى باب الصيدليّة عُلّق جرس كانت دقّاته تصرف دونْ رامون عن مهمّاته الإداريّة، وتعيده بضع دقائق إلى مهنته الأصليّة.

وبمتابعة الطريق صعودًا، يصادف المرء قصر دونْ أنطونيو الماركيز، المسوّر بسورٍ عالٍ من الحجر الأملس القاسي. ثمّ يأتي محلّ الإسكافيّ، فتليه البلديّة وقد وُسِمت واجهتها بشعار قديم. ثمّ دكّان الأرنبات بواجهته الزجاجيّة المرمَّمة، الملوّنة؛ وبعده الفندق برواقه الزجاجيّ الذي يحيط به من جانبَيْن من جوانبه. وعلى يمين الفندق تنبسط الساحة المغطّاة أرضها بروث البقر والحصى، وفي وسطها

سبيل ماء للعموم، له ماسورتان. ثمّ تنتهي الساحة من الجهة الأخرى بمبنى المصرف، وتليه ثلاثة منازل سكنيّة، أمام كلّ واحد منها حديقته الصغيرة.

أمّا على اليمين، قبالة الصيدليّة فتقع مزرعة خِيراردو الأميركيّ، وأشجارها تنتج أفضل ثمار المنطقة؛ ثمّ حظيرة بانتشو الملحد التي حُوِّلت إلى دار للسينما ذات مرّة لبعض الوقت، تليها حانة تشانو ومحلّ باكو الحدّاد وبعدهما مكتب البريد وتديره الأرنبات. ثمّ متجر أنطونيو الكِرش ومنزل دونْ خوسيه الخوريّ، وفيه مكتبه أيضًا في الطابق الأرضيّ.

وبعد ثلاثمائة متر نزولًا مع المنحدر تقع الكنيسة وهي مبنيّة من الحجر أيضًا، من دون أن تتميّز بطراز معماريّ محدّد، ولها برج ينتصب عاليًا برشاقة. وقبالة الكنيسة ينهض بناء المدرسة الجديدة وقد طُليت بالكلس، ودُهنت شبابيكها باللون الأخضر؛ وهنا أيضًا منزل دونْ مويِسيس، المعلّم.

وهكذا، بالنظر إلى القرية نظرة سريعة، نرى أنّها لا تختلف في شيء عن غيرها من القرى الكثيرة الأخرى. أمّا في نظر دانيال البوم فكلّ ما فيها متميّز جدًّا عمّا في سواها. ومشكلاتها ليست اعتياديّة كغيرها، ونظام الحياة فيها ينمّ عن موهبة لدى أهلها، وكلّ الأفعال التي يقومون بها تقريبًا ناتجة عن ألمعيّتهم الأكيدة في التفكير. أمّا أن يرفض الآخرون الإقرار بذلك، فهذا شأنٌ آخر.

كان دانيال البوم يتوقّف دائمًا في أزقة القرية المتعرّجة فيتأمّلها ويتأمّل ساحتها المليئة بروث البقر والحصى، وكذلك أبنيتها المتواضعة التي ما صُمّمت إلّا لغاية عمليّة. لكنّ ذلك ما كان قطّ يثير الحزن في نفسه، ذلك أنّ الشوارع والساحة والأبنية لا تصنع في نظره

قريةً أبدًا، بل ولا تمنحها شكلها. فمَنْ يصنع أيّ قرية فعلًا هم رجالها وتاريخها. كان دانيال البوم يعلم أنّ رجالًا عظامًا مرّوا في تلك الشوارع المغطّاة بالروث الطريّ وعاشوا في تلك المنازل التي تحفّ بها؛ ويعلم أيضًا أنّهم اليوم صاروا أشباحًا من الماضي، لكنّهم أضفوا على القرية والوادي معنًى وتناسقًا وعادات وإيقاعًا ونمط حياة مميّز خاصّ بهما.

ألا يتّصف أهل القرية بنزعة فردانيّة متطرّفة ورفض للعمل الجماعيّ المشترك، كما يقول دونْ رامون العمدة؟ بلى؛ وليس لدى البوم حجج كي يفنّد هذا الرأي، فهو لا يفهم معنى الفردانيّة ولا العمل الجماعيّ المشترك. لكنْ، حتّى وإن صحّ ذلك فإنّ عواقبه السيّئة لا تتعدّى حدود القرية، ولا أحد يدفع ثمن تلك الخطايا في نهاية المطاف إلّا أهلها أنفسهم.

ألم يفضّلوا ترك الساحة مهملة بلا تعبيد مقابل ألّا تُزاد الضرائب عليهم؟ بلى؛ لكنّهم تجنّبوا بذلك الشجار والمشاحنات. كان يردّد دونْ رامون كلّما سَنَحَتْ له الفرصة: «إنّ الاهتمام بالمصلحة العامّة كارثيّ في هذه القرية، وكلٌّ منّا لا يأبه أبدًا إلّا لشؤونه الخاصّة، وينسى أنّ هناك أشياء تهمّ الجميع ويجب مراعاتها». غير أنّ أحدًا لم ينبرِ له كي يقنعه بأنّ هذه الأنانيّة التي تميّز أهل القرية ما هي إلّا خصيصة متوارثة لديهم بكلّ ما فيها من خير وشرّ أو حقّ وباطل.

مع ذلك، ليس بوسع أحد، لا لهذا السبب ولا لغيره، أن يجادل في تحلّي أهل القرية بالكفاءة والجدّيّة والرصانة. وصحيحٌ أنّ كلًّا منهم منصرف عن غيره إلى شؤونه الخاصّة، لكنّه لا يمكن نعتهم بالكسالى لمجرّد رفضهم الانخراط في شؤون الآخرين؛ فهم بلا ريب يتمتّعون بكفاءة مُرْضِيَة ورصانة معتبرة.

أَليست الفُليفلة الكبرى وكوكو مأمور المحطّة نمّامين؟ بلى؛ ولكنْ

ما من جسد يخلو جلده من شامة. أمّا عن النزعة الفرديّة لدى أهل القرية؛ أفلا يُسرّ الفتية والفتيات بلقاءاتهم في أماسي السبت والأحد؟ مع أنّ دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، اعتاد في هذا الصدد أن يعبّر عن مشاعره بأسى قائلًا: «من المحزن أن يعيش كلٌّ منّا لذاته وألّا نجتمع إلّا كي نُغضب الربّ».

لكنّ الخوريّ دونْ خوسيه أيضًا لم يكن يشأ أن يتفهّم تلك الرغبة ويعي أنّها خصيصة متوارثة لديهم بكلّ ما فيها من خير وشرّ، أو حقّ وباطل أيضًا.

الفصل الرابع

لقد جرت الأشياء في وقتها، فصار دانيال البوم يتذكّرها الآن بتلذّذ. كان أبوه، صانع الجبن، قد فكّر في اسم له ولمّا يُرزق به بعد، فاختار له الاسم وصار يلهج به ويردّده بحنوّ كما لو أنّ لديه ولدًا حقًّا. ثمّ وُلد دانيال في ما بعد.

كان دانيال البوم يستحضر خطواته الأولى في هذه الدنيا فيتذكّر الرائحة النفّاذة المنبعثة من أبيه، وكأنّه قطعة جبن ضخمة، طريّة، بيضاء، ثقيلة. وكان يستمتع بتلك الرائحة التي تضمّخ أباه وتفيض عليه هو أيضًا، حينما يجلسان أمام الموقد في ليالي الشتاء ويقصّ عليه قصّة اسمه وهو يداعبه.

كان صانع الجبن قد تمنّى أن يُرزق بمولود ذكر قبل أيّ شيء آخر حتّى يتمكّن من أن يسمّيه دانيال. ولمّا رُزِقَ بدانيال صار يحدّثه عن اسمه حينما كان بعمر لا يتجاوز الثلاث سنوات، وهو يداعب بيديه جسمه المكتنز، الصغير، أثناء عمله اليوميّ الطويل أمام طاولة صنع الجبن.

كان بوسع صانع الجبن أن يعمّده بألف اسم واسم غير اسمه، لكنّه فضّل اسم دانيال على غيره.

كان يقول له وهو يضمّه إلى صدره بكلّ الحبّ: - أتعلم أنّ دانيال نبيٌّ حُبِسَ مع عشرة أسود في قفص ولم يتجرّأ أيّ منها على إيذائه؟

إنّ قدرة رجل ما على ترويض قطيع من الأسود بمجرّد النظر إليه

بالعينَيْن هي قدرة تفوق قدرات الرجال كلّهم، وحدث خارق هائل، فَتنَ صانع الجبن منذ طفولته.

- وماذا تفعل الأسود يا أبي؟

- تنهش الأجساد بأسنانها وتمزّقها بمخالبها.

- أَهي أسوا من الذئاب؟

- إنّها أشدّ شراسة.

- ماذاااا؟

كان صانع الجبن يسهّل على البوم فهم الأشياء مثل الأمّ التي تمضغ الطعام قبل تقديمه لصغيرها. كان يقول:

- إنّها أشدّ إيذاءً من الذئاب. هل فهمت؟

ولم يكن البوم يرتوي من إجابات أبيه، فيسأله مستفسرًا:

- أَصحيحٌ أنّ الأسود أضخم من الكلاب؟

- نعم، أضخم.

- ولماذا لم تكن تؤذي النبي دانيال قطّ؟

فكان صانع الجبن يستمتع بتفصيل القصّة:

- كان يقهرها بمجرّد النظر إليها بعينَيْه. ففيهما قوّة من الربّ.

- ماذاااا؟

فيضمّ الولد إلى صدره ويتابع:

- كان دانيال من القدّيسين المقرّبين إلى الله.

- وماذا يعني هذا؟

فتتدخّل الأمّ احترازًا:

- دع الولد من هذا، فأنت تعلّمه أشياء لا يستوعبها مَن في عمره.

وكانت تنتزعه من أبيه وتذهب به إلى النوم والرائحة القويّة النفّاذة، للجبن واللبن الرائب، تفوح منها كما من كلّ شيء في هذا المنزل. كانوا

هم أنفسهم تجسيدًا صافيًا وخالصًا لهذه الرائحة، حتّى إنّ أباه كان يحملها في السواد تحت أظافر يديه. وأحيانًا، لم يكن البوم يستوعب كيف لأظافر أبيه أن تكون سوداء وهو لا يعمل إلّا في الحليب، أو كيف تخرج أقراص الجبن بيضاء من بين تَيْنِكَ اليدين بأظافرهما الداكنة السواد.

منذ أن أدرك الوالد أنّ الصبيّ أصبح قادرًا على التعلّم بمفرده، ابتعد عنه ولم يعد يلاطفه أو يلاعبه. وحينذاك بدأ دانيال يذهب إلى المدرسة ليتقرّب بعدها من البعر بحثًا عن ملاذ آمن له. ورغم أنّ روكي البعر قال إنه لا يستسيغ رائحة الجبن واللبن الرائب، لأنّها تشبه رائحة الأقدام، فإن تلك الرائحة التي كانت تعبق في المنزل، كما في أبيه وأمه، ظلّت تروق له.

ابتعد أبوه عنه كما يبتعد عن أمر أنجزه ولم يعد يحتاج إلى عناية أو اهتمام. وصار يحسّ بالخيبة لرؤية ولده متدبّرًا شؤونه بنفسه من غير حاجة لرعايته. وفوق ذلك، فإنّ صانع الجبن أصبح صموتًا وحادّ المزاج، بعد أن كان حتّى ذلك الحين مثل الكمّثرى المحلّاة بالسكّر، على حدّ تعبير زوجته. وما زاد من حدّة طبعه، هو سعيه المحموم لادّخار المال وجمعه. فجمْعُ المال يخلق في نفس المرء حدّة وتوتّرًا إذا ما تمّ على حساب احتياجات يبخل في تلبيتها. وهذا ما حدث له، إذ صار يستاء كثيرًا من أيّ إنفاق أو مصروف يترتّب عليه، مهما يكن قليلًا أو ضئيلًا، وصار يرغب في ادّخار المال، بل صار رغم كلّ شيء يحسّ بلزوم فعل ذلك كي يغدو دانيال البوم ذا أهمّيّة في المدينة، ويسير على طريق التقدّم، ولا يصبح مجرّد صانع للجبن، وفقيرٍ مثله.

وما زاد الطين بِلّة أن لا أحد كان يستفيد من هذا الوضع. ودانيال لن يستوعب أبدًا ما يجري أمام عينيه، فأمّه تعاني وأبوه يعاني وهو نفسه يعاني، في حين أنّ نزع المعاناة عن الأب تعني نزعها عن الجميع. لكنّ

ذلك يعني أيضًا قطع الطريق على دانيال والتسليم بتخلّيه عن طريق التقدّم. وهذا ما لن يفعله صانع الجبن؛ فدانيال يجب أن يتقدّم وإن ضحّى بالعائلة كلّها، وعلى رأسها التضحية بنفسه شخصيًّا.

كلّا، لن يفهم دانيال البوم أبدًا هذه الأشياء ولا هذا العناد الذي يبرّره البشر بالتطلّع المنطقيّ للتحرّر. وأيّ تحرّر؟ ومِن ماذا؟ وهل سيكون في الثانويّة أو في الجامعة حرًّا أكثر منه حينما يلعب مع البعر في مروج الوادي ويتراشقان بروث البقر المجفّف؟ حسنًا، ربّما يكون ذلك صحيحًا، لكنّه لن يستوعبه أبدًا.

من جهة أخرى، فإنّ أباه لم يكن مدرِكًا لما هو مُقْدِمٌ عليه حينما سمّاه دانيال. بل إنّ الآباء كلَّهم تقريبًا كانوا جاهلين بما هم مُقْدِمون عليه عند تعميد أبنائهم. فكذلك كان حال والد المعلّم ووالد كينو الأبتر، ووالد أنطونيو الكِرش، صاحب المتجر، إذ لم يكن أيّ منهم مدركًا لما هو مُقْدِمٌ عليه حينما سكب دون خوسيه، قدّس الله سرّه، طاسة الماء المبارك على رأس المولود الجديد. ولو أنّهم كانوا مدركين لفعلهم، فلماذا قاموا به، مع علمهم بلا جدواه؟

وهكذا، لم يدم اسم دانيال عليه أكثر ممّا دامت مرحلة طفولته الأولى. ففي المدرسة بَطَلَ اسمه مثلما بَطَلَ اسم المعلّم دون مويسيس، بُعَيْدَ وصوله إلى القرية.

كان دونْ مويسيس، المعلّم، رجلًا طويل الجسم، هزيلًا وعصبيًّا، كأنّه هيكل عظميّ مكسوّ بالجلد. وقد اعتاد أن يلوي حنَكه كما لو أنّه يحاول عضّ شحمة أذنه. وكان الانشراح والسرور يزيدان من التواء قسمات وجهه، حتّى إنّ فمه يلامس في التوائه أحد سالفيه اللذين يطيلهما كثيرًا. كان شيئًا غريبًا ذلك الرجل، ومنذ اليوم الأوّل الذي رآه فيه دانيال البوم، أخافه وأثار لديه الفضول في أن يتعرّف إليه. كان يناديه

بالبيدق مثلما سمع بقيّة الصبيان ينادونه، من دون أن يعرف السبب. ويوم قيل لدانيال البوم إنّ القاضي سمّى دونْ مويسيس بهذا الاسم إشارةً إلى أنّه «يتقدّم نحو الأمام ويأكل جانبيًّا»، قال: «حسنًا»، لكنّه ظلّ لا يفهم معنى الاسم وظلّ يناديه بالبيدق من دون تفكير.

أمّا دانيال البوم فقد كان فعلًا محبًّا للاطّلاع ويرى كلّ ما حوله جديدًا وجديرًا بالاهتمام. وبالطبع فقد لفتت المدرسة نظره أكثر من أيّ شيء آخر. لكنّ ما لفت نظره أكثر من المدرسة بحدّ ذاتها كان البيدق، المعلّم، بفمه الرجراج الذي لا يعرف السكينة، وبسالفيه السوداوين، الكثّين، الشبيهَين بسوالف قطّاع الطرق.

وكان خيرمان، ابن الإسكافيّ، أوّل من لاحظ طريقة دانيال في النظر إلى الأشياء. فهي طريقة تتّسم بالتحديق في أيّ شيء بتمعّن وتدقيق وتعطّش.

فقال مرّة: – لاحظوا كيف ينظر إلى كلّ شيء وكأنّه فزع منه.

فالتفت الجميع إليه بنظراتهم الحادّة.

– وعيناه خضراوان ومدوّرتان مثل عينيّ القطّ، أضاف أحد الصبيان، وكان من أقرباء دونْ أنطونيو الماركيز.

ثمّ علّق آخر بدقّة أكثر، فكان من أصاب منه المقتل:

– إنّ نظراته مثل نظرات البوم.

وهكذا لازمه اسم البوم رغمًا عن أبيه ورغمًا عن النبيّ دانيال ورغمًا عن الأسود العشرة التي حُبِسَتْ معه في القفص، وكذلك رغمًا عن قدرة عينيّ النبيّ على تنويمها. ولم تفلح نظرات دانيال البوم، خلافا لتمنّيات أبيه، صانع الجبن، حتّى في ردع شِلّة من الصبيان الصغار. فظلّ اسم دانيال محصورًا بالاستعمال المنزليّ، أمّا في الخارج فلم يعد أحد يناديه بغير البوم.

ثمّ كافح أبوه زمنًا كي يُبقي على اسمه الأصليّ، حتّى إنّه تشاجر ذات يوم مع العجوز التي تقدّم المرطّبات في القطار، لكنّه كان شجارًا بلا طائل. فمحاولة منع ذلك كانت عبثيّة، مثل محاولة احتواء تيّار النهر الجارف في الربيع. وهكذا سُمّي ابنه بالبوم مثلما سُمّي من قبله دونْ مويسيس بالبيدق؛ وروكي بالبعر؛ وأنطونيو بالكِرش؛ ودونيا لولا، صاحبة الدكّان، بالفليفلة الكبرى؛ وعاملات البريد ببنات الكاكا أو بالأرنبات. فتلك القرية تستخفّ بسرّ العمادة المقدّس وتستهتر به استهتارًا عجيبًا.

الفصل الخامس

صحيحٌ أنّ الفليفلة الكبرى كانت اسمًا على مسمّى، بوجهها الأحمر المستدير وبطبعها الحادّ اللاذع كالكحول المقطّر، لكنّها فوق ذلك كانت نمّامة أيضًا. ولا شيء يلائم النمّامين مثل التدخّل في شؤون الآخرين، فكانت تسعى من غير حقّ لمعرفة كلّ شيء عن أهل القرية ومحاولة التحكّم بهم. أمّا هم فكانوا يريدون البقاء أحرارًا مستقلّين بحياتهم؛ فما همَّها هي في نهاية المطاف إن آمن بانتشو بالله أم لا؟ أو إن أدمن باكو الحدّاد على الشراب أم لا؟ أو إن صنع باكو الجبن بيدين نظيفتين أو بأظافر متّسخة؟ وإن كان ذلك يثير اشمئزازها حقًّا، فما عليها سوى الامتناع عن تناول الجبن وحسب!

لم يكن دانيال البوم يرى في ما تفعله الفليفلة أيّ دليل على طيبتها؛ فالطيّبون في نظره هم الآخرون الذين يحتملون سفاهتها، وفوق ذلك يمنحونها المناصب، فيُعَيِّنونَها رئيسة لعدّة جمعيّات خيريّة. «إنّ الفليفلة الكبرى أفعى غريبة الأطوار»، ولم يجانِب أنطونيو الكِرش الصواب في قوله هذا، وإن فكّر أثناء إطلاقه هذا الحكم بمنافستها له في التجارة، أكثر ممّا فكّر بسوء خِلْقَتِها أو خُلُقِها.

كانت الفليفلة الكبرى، فوق حمرة بشرتها، طويلة وهزيلة مثل عمود لعبة الكوكانيا الأجرد، وإن لم تكن مثله تحمل جائزة في أعلاه. وبالمختصر، لم تكن تتميّز بشيء غير أنفها الطويل ورغبتها الجامحة في التدخّل في حياة الآخرين، إضافة إلى وساوسها الكثيرة المتكرّرة، التي لا تنتهي، وبها تنغّص على دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه.

كانت تقول له، في أيّ يوم وقبل دقيقة واحدة من بدء القدّاس:

– أتعلم يا دونْ خوسيه أنّني لم أنم ليلة أمس وأنا أتساءل عمَنْ تمكّن من رؤية الفادي يتعرّق دمًا، لمّا ظلّ وحيدًا على جبل الزيتون بعد أن غفا حواريّوه؟

فيغمض دونْ خوسيه عينيه الصغيرتَيْن الثاقبتين بنظراتهما كرأس الإبرة ويجيبها:

– هدّئي من روعك يا ابنتي، فهذه الأمور ندركها بإيماننا بالوحي.

فتتباكى الفليفلة الكبرى مغمومة، محزونة القسمات، وتقول:

– أتظنّ يا دونْ خوسيه أنّه بوسعي المشاركة في تناول القربان المقدّس وأنا مطمئنّة بعد أن خطرت لي هذ الخواطر؟

فلا يعود أمام الخوريّ إلّا أن يستنجد بأيّوب وصبره كي يقوى على إجابتها:

– نعم. بوسعكِ فعل ذلك، إن لم ترتكبي خطايا أخرى.

وعلى هذا المنوال، يومًا بعد يوم، تكمل:

– دونْ خوسيه، ليلة أمس لم تُغمض لي عين وأنا أفكّر في قضيّة بانتشو. فكيف لهذا الرجل أن يتلقّى سرّ الزيجة الكنسيّ، إن كان لا يؤمن بالله أساسًا؟

ثمّ تعود إليه بعد عدّة ساعات، فتسأل:

– دونْ خوسيه، لا أعرف إن كان بوسع حضرتك أن تغفر لي. فأمس الأحد قرأت كتابًا أثيمًا يستعرض الديانات في إنكلترا. والبروتستانت هناك أغلبيّة ساحقة. هل تظنّ حضرتك أنّني كنت سأصير بروتستانتيّة لو وُلدت في إنكلترا؟

يبتلع الخوريّ ريقه ويجيب:

– ليس ذلك بالمستبعد يا ابنتي.

– أعترف إذًا بذنبي يا أبَتِ وأقرّ أمامك بأنّني كنت سأصير بروتستانتيّة لو وُلدت في إنكلترا.

كان عمر دونيا لولا، الفليفلة الكبرى، تسعة وثلاثين عامًا حينما وُلد البوم. وبعد ثلاثة أعوام على ذلك ابتلاها الربّ بمصيبة أصابت منها المقتل وآلمتها ألمًا شديدًا. إلّا أنّها تغلّبت فعلًا على ألمها بالصلابة والشدّة اللتين اعتادت أن تواجه بهما أهل القرية.

كانت تَسمِية دونيا لولا بالفليفلة الكبرى، تعني أنّ هناك فليفلات أخريات، أصغر منها. وبالفعل كان الأمر كذلك، فقد كنّ ثلاث أخوات، وإن لم يبق منهنّ الآن إلّا اثنتان: الفليفلتان الكبرى والصغرى. والفليفلات كنّ بنات دركيّ تسلّم رئاسة مخفر القرية لأعوام طويلة. ولمّا مات حزنًا لأنّه لم يُرزق بمولود ذكر –بحسب ما تدّعي الألسن الطويلة التي لا تفتقر إليها القرية أبدًا– ترك لبناته ما ادّخر من مال، ففتحن به دكّانهنّ. وغنيّ عن القول إنّه مات في زمن كان فيه بوسع أيّ موظّف صغير في جهاز الدرك أن يعيش عيشة مقبولة براتبه الشهريّ، بل وأن يدّخر قليلًا منه. ومنذ أن مات الدركيّ –وكانت زوجته قد ماتت منذ عدّة سنوات– تولّت لولا، الفليفلة الكبرى، مسؤوليّة المنزل وفرضت شخصيّتها على أختيها بحكم سنّها وطول قامتها.

لم يعرف دانيال البوم إلّا اثنتين من الفليفلات، لكنّه سمع من أهل القرية أنّ الثالثة كانت شديدة النحول وبادية العظام مثل أختيها، وأنّه كان من الصعب تمييز أيّ منهنّ عن الأخرى إلّا بعد معاينة وتمحيص طويلَيْن.

وليس في ذلك ما ينافي أن تكون الأختان الصغريان قد عَذّبتا أختهما الكبرى في الحياة عذابًا مريرًا. فالوسطى كانت مهمِلة وكسولة، وطبعها وسلوكها ذائعا الصيت لدى أهل القرية؛ ففي أيّ ساعة من اليوم

يسمعون تعنيفها لأختَيها يتصاعد صراخًا حادًّا من الحجرة الخلفيّة للدكّان ومن المنزل، وبذا يتابعون الوضع السيّئ، بل المتدهور، للعلاقة بين الأخوات. مع ذلك فقد كان يُقال إنّهنّ لم يغبْنَ يومًا في حياتهنّ عن قدّاس الساعة الثامنة الذي يقيمه دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، أمام مذبح القدّيس روكي؛ ولا بدّ أنّ ما كان يُقال صحيحًا، فليس بين أهل القرية من ينفيه. كنّ يذهبن ثلاثتهنّ إلى الكنيسة بقامات منتصبة شامخة، سواء أكان الجوّ باردًا أم ماطرًا أم مُرعدًا؛ وفوق ذلك يمشين بخطى نظاميّة موزونة، ذلك أنّهنّ ورثن عن أبيهنّ، فضلًا عن المدّخرات، حسًّا متيقّظًا ومرهفًا بالانضباط، إضافة إلى مآثر أخرى من حياة العسكر. وفي مشيتهنّ الموزونة -واحد، اثنان، واحد، اثنان- يتقدّمنَ في طريقهنّ بصدورهنّ العجاف وأردافهنّ الضامرة وقاماتهنّ المتكبّرة، وقد غطّين رؤوسهنّ بمناديل معقودة تحت ذقونهنّ، وتأبّطنَ كتاب الصلوات.

وذات شتاء ماتت إيلينا، الفليفلة الوسطى، وأسلمت الروح في صباح مكفهرّ ماطر، من أصباح كانون الثاني. ولمّا حضر الناس إلى المنزل لتقديم العزاء للأختين اللتين ظلّتا على قيد الحياة، أخذت الفليفلة الكبرى تردّد وهي ترسم شارة الصليب على صدرها:

- إنّ الله حكيم وعادل في أحكامه، فقد أخذ أقلّنا نفعًا في العائلة، والحمد له والشكر على ذلك.

حتّى إذا صار المشيّعون في المقبرة الصغيرة المجاورة للكنيسة وأخذوا يهيلون التراب على جثمان إيلينا الهزيل، بدأت بعض الندّابات يُولولِن؛ فهبّت الفليفلة الكبرى في وجوههنّ، معتدّةً بغُلْظة وفظاظة:

- لا تبكينَها، فما أماتها إلّا كسلها.

ومُذَّاك صار الثلاثيّ ثنائيًّا، وصار الناس يفتقدون المرحومة

بجسدها الضئيل، الناحل، فيستذكرونها في قدّاس الساعة الثامنة الذي يقيمه دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، أمام مذبح القدّيس روكي.

إلّا أنّ ما حدث للفليفلة الصغرى كان أشدّ وأدهى. فلئن كان ما حدث لأختها الوسطى من صنع الله، فإنّ ما حدث لها كان زلّة شهوانيّة من صنع يديها، ونتيجة لاستهتارها وتراخيها.

آنذاك افتُتِحَ في القرية فرع صغير للمصرف الذي يحتلّ الآن أحد جوانب الساحة. ومع المدير وَفَدَ إلى القرية موظّف صغير، وسيم الطلعة، حسن الهندام، كان ما إن تراه نساء الحيّ عن قرب في كوّة المراجعين حتّى يأتينَهُ على الفور بما ادّخرن من مال. كان طُعْمًا حسن الإعداد، استخدمه المصرف كي يصطاد به الزبائن؛ وهذا أسلوب لم يكن لأيّ مصرفيّ مرموق أن يلجأ إليه، لكنّه في القرية حقّق نتائج باهرة. وكان نجاح هذا الأسلوب كبيرًا حتّى إنّ رامون ابن الصيدلانيّ أبدى أسفه لأنّه لم يكن بوسعه بعدُ أن يعِدّ رسالة الدكتوراه، فقد كان آنذاك مبتدئًا بدراسة القانون؛ ولو كان ذلك ممكنًا لَأعدّها من دون عناء وعَنْوَنَها بعنوان يتميّز بالأصالة والابتكار: «حُسْنُ انتقاء الموظّفين وأثره على اقتصاديّات الشعب». وطبعًا ما كان يقصد بـ«الاقتصاديّات» إلّا «المدّخرات»، ولا يقصد بـ«الشعب» غير «قريته الصغيرة» تحديدًا، لكنّه ارتأى أنّ «اقتصاديّات الشعب» عبارة ذات وقع مدوٍّ وتمنح رسالته المزعومة مكانة رفيعة وأهميّة كبرى. وغنيّ عن القول إنّه كان يقول ذلك كلّه مازحًا.

ومع وصول ديماس، موظّف المصرف الصغير، إلى القرية، بدأ الآباء والأزواج فيها يأخذون جانب الحيطة والحذر منه. حتّى إنّ دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، تحادث معه مرّات عديدة، ونبّهَهُ إلى العواقب التي قد يجلبها بوسامته على القرية، سلبًا أم إيجابًا. ونتيجةً لمواظبة

الخوريّ على لقاء دونْ ديماس خفّ ارتياب الآباء والأزواج منه، حتّى إنّ الفليفلة الصغرى اعتبرت أنّ خروجها للتنزّه بصحبته من حين إلى آخر ليس طيشًا ولا إثمًا، وإن استنكرت أختها الكبرى فعلَها استنكارًا أقلّه أنْ تلومها على «خلاعتها وتهتّكها الفاضحَيْن» بالصراخ.

ولا ريب في أنّ الآفاق كلّها انفتحت فجأة أمام الفليفلة الصغرى، بعدما كانت حتّى ذلك الحين لا ترى في ذاك الوادي غير سجن موحش لا يدخله النور؛ فوقفت لأوّل مرّة في حياتها على جمال الجبال الوعرة، وسحر المروج الفسيحة الخضراء الشاعريّة، واكتشفت المتعة التي يجلبها سماع صفير القطار الحادّ وهو يشقّ ليلًا عتمة الوادي. هي أشياء صغيرة، لكنّها أشياء تكتسب في نهاية الأمر أهمّيّة كبيرة إذا ما اتّقد الفؤاد.

وذات مساء عادت الفليفلة الصغرى من نزهتها المعتادة فرحة، وقالت:

– أختاه لا أدري من أين يأتيك هذا الحقد على ديماس، فهو أفضل رجل عرفته. واليوم كلّمته عن مدّخراتنا من المال، فاقترح عليّ في الحال أربع أفكار لاستثمارها استثمارًا مجزيًا. لكنّي قلت له إنّها مُودَعة الآن في أحد مصارف المدينة، وإنّنا سنتشاور، أنا وأنتِ، في اقتراحه قبل أن أعطيه جوابًا.

فصاحت الفليفلة الكبرى منقبضة:

– وقلتِ له إنّ المبلغ لا يزيد على الألف دورو؟

ابتسمتِ الفليفلة الصغرى حيال استخفاف أختها بفطنتها وقالت:

– لا، طبعًا. لم أذكر له أيّ شيء عن المبلغ.

هزّت لولا كتفيها الناحلين إشارة إلى عجزها. ثمّ صرخت تاركة كلماتها تنزلق تحت أنفها الطويل، المستقيم، الشبيه بالزُّحلوقة:

– أتعلمين ما أفكّر به؟ إنّ هذا الرجل ليس سوى محتالٍ يهزأ بكِ. ألا ترين أنّك صرتِ حديث الناس وأصبحتِ مثار سخريتهم بسبب حماقتك، وأنّكِ قد تكونين الوحيدة التي لا علم لها بذلك، يا أختي؟ ثم غيّرتْ فجأة نبرة صوتها وأخذت تلطّفها: إنّ عمركِ الآن ستّة وثلاثون عامًا يا إيرينه؛ وتكادين أن تكوني في عمر أمّ هذا الفتى. فكّري بالأمر جيّدًا.

لكنّ إيرينه ثارت في وجه أختها وانتفضت مثل البحر الهائج:

– اعلمي يا لولا أنّ شكوككِ تؤلمني وتلميحاتكِ الخبيثة تزعجني. وأنا لا أرى عيبًا في أن يتفاهم رجل وامرأة، ولا أرى مشكلة في أن يكبر أحدهما الآخر بضع سنوات. لكنّ القصّة وما فيها أنّ نساء القرية كلّهنّ يَغَرْنَ منّي، وأنتِ أُولاهنّ.

على خصام افترقت الأختان مشرئبّتَي الأنف سخطًا. وفي مساء اليوم التالي أعلن كوكو، مأمور المحطّة في القرية، أنّ دونيا إيرينه، الفليفلة الصغرى، ودونْ ديماس، موظّف المصرف، استقلّا معًا القطار الذاهب إلى المدينة، وغادرا القرية. ففار الدم في عروق الفليفلة الكبرى لمّا علمت بذلك، وجُنَّ جنونُها حتّى إنّه أُغمي عليها وفقدت وعيها. ولم تستردّه إلّا بعد أكثر من خمس دقائق، فأخرجت من أحد الصناديق القديمة بذلتها السوداء التي ما زالت تحتفظ بها منذ موت أبيها، وارتدتها على عجل، ثمّ سارت تحثّ الخطى باتّجاه منزل الخوريّ.

وفور دخولها قالت: – يا إلهي، أيّ مصيبة حلّت بنا يا دونْ خوسيه!

– هدّئي من روعك يا ابنتي.

فجلست على كرسيّ من الخيزران بجوار مكتب الخوريّ، ثمّ استجوبته بنظراتها لتعرف إن كان قد سمع بما جرى.

فأجابها الخوري: – نعم، إنّني على علم بالأمر؛ فقد أخبرني كوكو بكلّ شيء.

أخذت الفليفلة الكبرى نفسًا عميقًا فأصدرت أضلع صدرها صوتًا كأنّها تصطكّ، ثمّ مسحت في الحال عن خدّها دمعة مدوّرة، كثيفة، كحبّات المطر الكبيرة.

– اسمعني بانتباه يا دونْ خوسيه، في أعماقي شكٌّ مروّع، شكٌّ ينهش أحشائي. أختي إيرينه أصبحت مومسًا بما فعلت، أليس كذلك؟

احمرّت قليلًا وجنتا الخوري حياءً:

– اسكتي يا ابنتي ولا تتفوّهي بحماقات كهذه.

أغلق الخوريّ كتاب الصلوات اليوميّة الذي كان يقرأ به ثمّ تنحنح، إلّا أنّ الصوت خرج من حنجرته مختنقًا بخُنّة صمّاء.

– اسمعيني، ليست مومسًا المرأة التي تهب نفسها لأحد الرجال حبًّا به. فالمومس هي التي تجعل من جسدها ومن المحاسن التي وهبها الله لها تجارة محرّمة، وهي التي تهب نفسها لأيّ رجل يدفع لها أجرًا لقاء ذلك. هلّا رأيتِ الفرق؟

انتصبت الفليفلة بصدرها معاندة، وهي جالسة على الكرسيّ:

– لكنّ ما فعلته إيرينه إثم عظيم، مهما يكن العذر يا أبَتِ؛ بل إنّه إثم مشين. أليس كذلك؟

أجاب الخوري: – بلى، إنّه كذلك يا ابنتي، لكنّه ليس من الآثام التي لا كفّارة لها. أعتقد أنّني أعرف دونْ ديماس جيّدًا، ولا أرى فيه شابًّا سيّء الخلق، وأظنّ أنّه سوف يتزوّج أختك قريبًا.

غطّت الفليفلة الكبرى عينيها بأصابعها النحيلة جاهدة ألّا تجهش بالبكاء، وقالت:

– أبَتِ، أبَتِ، ولكن ما زال هناك أمر آخر. لقد أفقدها ديماس غيرتها وحرارة دمها، فدمها هو الآثم إذًا. ودمها من دمي؛ ما يعني أنّه كان من

الممكن أن أرتكب أنا أيضًا إثمًا مثلها. أبَتِ، أبَتِ، إنّي أقرّ بذنبي أمامك وأعترف به، ومن صميم قلبي المفطور حزنًا أعبّر لك عن ندامتي.

نهض دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، عن كرسيّه ومسّ رأسها بأصابعه:

– اذهبي يا ابنتي، اذهبي. اذهبي إلى منزلك وليطمئنّ قلبك، فلا بأس عليكِ أنتِ أبدًا. وما جرى لأختك إيرينه لا بدّ وأن نجد له حلًّا.

غادرت لولا، الفليفلة الكبرى، منزل الخوريّ وهي تشعر بشيء من الارتياح. وفي الطريق، أخذت نفسها تحدّثها وتلحّ عليها مرارًا وتكرارًا بوجوب التعبير عن ألمها وخزيها علانية، لأنّ فقدان العفّة أعظم وأدهى بلاءً من الموت. استحوذت عليها هذه الفكرة، فلمّا وصلت إلى المنزل، قصّت من إحدى علب الأحذية قطعة من الكرتون المقوّى، ثمّ تناولت فرشاة وخطّت بها على الكرتونة بأحرف مرتبكة: «مغلقٌ خجلًا من العار». بعد ذلك نزلت إلى الشارع وعلّقت اللافتة على باب الدكّان.

وبحسب ما رُوي لدانيال البوم، فإنّ الدكّان ظلّ مغلقًا عشرة أيّام متتالية بلياليها.

الفصل السادس

إلّا أنّ دانيال البوم صار الآن يعرف ما هو الرحم اليابس وما هو الإجهاض. فهذه الأشياء لا يتبيّنها أحدٌ ولا يدركها إلّا بعد بلوغه سنًّا معيّنة، أمّا قبلها فتبدو له ضربًا من ضروب السحر. وحَمْلُ المرأة لجنينها لا يدركه أيّ مخلوق ما لم يتّضح تكوّر بطنها ويشي بحَبَلِها. وهذا التكوّر يكاد لا يلحظه أحد أبدًا قبل المناولة الأولى، فالعينان قبل هذه السن لا تسعفان بمعاينة الأشياء الواضحة التي تُضجرنا فيما بعد ببساطتها.

ولكنْ أيضًا خيرمان الأقرع، ابن الإسكافيّ، صار يعرف ما هو الرحم اليابس وما هو الإجهاض. وخيرمان هذا كان دائمًا صديقًا مقرّبًا لدانيال البوم، يقف إلى جانبه في الظروف جميعها، بل وفي أحلكها، وإن لم يصل في قربه منه إلى الحميميّة التي وصل إليها البعر. وفي ذلك لم يكن له ذنب أبدًا، لا هو ولا دانيال البوم ولا أيّ شيء أو ظرف آخر متعلّق بإرادة البشر.

كان خيرمان الأقرع ولدًا ناحلًا، هزيلًا، شاحب الوجه. ولو كان شعره أقلّ سوادًا، ربّما لم يلحظ أحد بوضوح بؤر القَرَع المنتشرة في رأسه. ذلك أنّه أُصيب بهذا المرض منذ نعومة أظفاره، ولا شكّ في أنّه لُقّب بالأقرع بسببه، مع أنّ ما أصابه لم يكن بالطبع قرعًا كاملًا.

وكان لأبيه الإسكافيّ، فضلًا عن دكّانه الصغير -الواقع على يسار الطريق صعودًا، بعد قصر دونْ أنطونيو الماركيز- عشرة أولاد: ستّة منهم وُلدوا فرادى كما يُولد أغلب البشر، وأربعة آخرون وُلدوا في

ولادتين اثنتين، توأمين فتوأمين. وعدا عن ذلك فإنّ زوجته كانت توأما لشقيقتها، مثلها مثل أمّها تمامًا. وكان له أيضًا أخت توأم في قطلونية، أنجبت في إحدى ولاداتها ثلاثة توائم دفعة واحدة، فذاع صيتها في الصحافة وقدّم لها المحافظ هبة ماليّة لمساعدتها. وما كان الشكّ يساور الإسكافيّ في أنّ ذلك كلّه ليس إلّا دليلًا على مرض ما، وما كان بمقدور أحد أن يثنيه عن قناعته الراسخة بأنّ هذه الظاهرة سببها إحدى العُصَيّات المُمْرِضَة، «شأنها في ذلك شأن أيّ مرض آخر».

كان يمكن لأندريس الإسكافيّ أن يبدو أبًا لعائلة كبيرة، إذا ما نُظر إليه وجهًا لوجه، أمّا إذا ما نُظر إليه من أحد جانبيه، فمن المستحيل أن يبدو كذلك. وكان أهل القرية يقولون عنه محقّين: «أندريس، الرجل الذي لا يُرى جانبيًّا»، فوَصْفُهم له يكاد أن يكون صحيحًا تمامًا لفرط نحوله وشدّة هزاله. إضافة إلى ذلك فقد كانت قامته تتميّز بانحناءة واضحة نحو الأمام؛ فيقول بعضهم إنّها بسبب طبيعة عمله، ويقول بعضهم الآخر إنّها بسبب رغبته الجامحة في النظر إلى سيقان الفتيات اللواتي يقعن في مرمى بصره، وملاحقته لهنّ إلى أن يغبْنَ عن ناظريه. ولدى رؤيته على هذه الحال، سواء أَنْظِرَ إليه مواجهة أم جانبيًّا، لا يصعب على المرء كثيرًا أن يدرك كيف أصبح أبًا لعشرة أولاد. وعلى ما يبدو فإنّ كثرة ذُرِّيّته لم تكن تكفيه، فكان دكانّه يمتلئ دائمًا بالأقفاص التي تعجّ بطيور الخُضَيْريّ والكناريّ والحسّون؛ وفي الربيع تكثر فيه الجداجد صادحة بغنائها الحادّ الذي يُصمّ الآذان. كان هذا الرجل مسكونًا بسرّ الإخصاب، حتّى إنّه جعل من تلك الطيور حقلًا لتجاربه المتنوّعة، فأخذ يزاوج بين إناث الكناريّ وذكور الخضيريّ وبين ذكور الكناريّ وإناث الحسّون ويقارن النتائج؛ وكان يؤكّد أنّ الطيور الهجينة تتميّز بغناء أكثر عذوبة وتناغمًا من الطيور صافية الأعراق.

لكنّ أندريس الإسكافيّ كان، قبل أيّ شيء آخر، فيلسوفًا. فإذا ما قيل له: «يا أندريس، أليس لك ما يكفيك في صحبة أولادك العشرة حتّى تبحث عن صحبة الطيور؟»، أجاب: «إنّ الطيور تُصِمّ أذنيّ عن سماع الأولاد».

إلّا أنّ معظم أولاد الإسكافيّ كانوا قد بلغوا سنًّا تمكّنهم من الاعتماد على أنفسهم، بعد أن انقضت سنوات الشدّة والضيق وصارت من الماضي. وجدير بالذكر هنا أنه لمّا استُدعِي التوأمان الأكبران من أبنائه إلى الخدمة العسكريّة، دخل في جدالٍ حامٍ مع موظّف التجنيد، مصرًّا على أنّهما من دفعتَيْن مختلفتَيْن.

فاعترض الموظف: - ولكنْ يا أخي الكريم، كيف يكونان من دفعتين مختلفتين وهما توأمان؟

طار أندريس الإسكافيّ بعينيه وراء ساقين مكتنزتين لصبيّة أتت كي تبرّر غياب أخيها عن الخدمة، ثمّ عاد برقبته إلى مكانها كأنّه حلزون يعود إلى قوقعته، وقال:

- إنّ الأمر بسيط جدًّا. فأندريس الصغير وُلِدَ في الساعة الثانية عشرة إلّا عشر دقائق من ليلة رأس السنة. ولمّا وُلِدَ ماريانو بعده بقليل كنّا قد صرنا في السنة الجديدة.

مع ذلك فإنّ أندريس، «الرجل الذي لا يُرى جانبيًّا»، اضطرّ أخيرًا لأن يقبل باستدعاء الاثنين معًا إلى الخدمة العسكريّة لأنّهما مسجّلان في السجلّات الرسميّة من مواليد الحادي والثلاثين من ديسمبر.

أمّا ابنه توماس فقد كان مستقرًّا في المدينة بوضع جيّد، ويعمل في إحدى شركات النقل. ثمّ هناك ولد آخر يُلقّب بالأحوَل، وكان يساعده في عمله بالدكّان. أمّا بقيّة الأولاد فكانوا من البنات ما عدا خيرمان الأقرع بالطبع، فقد كان أصغر الجميع.

وخيرمان الأقرع هذا هو من قال عن دانيال البوم، يوم دخوله المدرسة، إنّه ينظر إلى الأشياء كما لو أنّه فزع دائمًا. وإن دقّقنا في الأمر قليلًا لرأينا أنّه هو أيضًا من لقّبَهُ بِلَقَبِهِ. لكنّ دانيال البوم لم يحمل عليه ولم يضمر له الحقد أبدًا؛ بل وجد فيه منذ اليوم الأوّل خير صديق.

أمّا البؤر المنتشرة في رأس الأقرع فلم تكن عائقًا أمام تفاهمهما، بل إنّها مهّدت لصداقتهما، لأنّ فضولًا شديدًا تملّك دانيال البوم منذ اللحظة الأولى نحو تلك الجزر البيضاء المتناثرة في بحر مدلهمٍّ من الشعر الأسود الذي يغطّي رأسه.

مع ذلك، ورغم أنّ قَرَعَ خيرمان لم يكن مدعاة للقلق في منزل أبيه الإسكافيّ ولا في دائرة أصدقائه المقرّبين، ورغم أنّه لم يكن يعني الفليفلة الكبرى في شيء، لا من قريب ولا من بعيد، فقد قرّرت التدّخل فيه مدفوعة بعقدة الحرمان من الأمومة، وهي عقدة تدفعها للتدخّل في شؤون القرية كلّها. وبالفعل كانت مولعة بحشر أنفها في كلّ ما لا علاقة لها به، وترى أنّ اهتمامها الزائد بشؤون الغير يمليه عليها تلهّفها الحارّ لفعل الخير، وإحساسها العالي بالأخوّة في الإيمان المسيحيّ، لكنّها في الحقيقة كانت تلجأ إلى هذه الحيلة كي تتمكّن من تصيّد أخبار الآخرين، هنا وهناك، تحت ستار واهٍ من الحرص على أسرارهم والتكتّم عليها.

وذات مساء، وكان أندريس، «الرجل الذي لا يُرى جانبيًّا»، منكبًّا بحماسة على عمله في دكّانه البائس الصغير، هبطت عليه دونيا لولا، الفليفلة الكبرى، بغتة.

ما إن أصبحت قبالته، حتى بادرته بالقول:

- أيّها الإسكافيّ... كيف تترك ابنك هكذا والقرع في رأسه؟

ظلّ الإسكافيّ على سكينته ولم يرفع عينيه عمّا بين يديه من عمل، وأجابها:

– دعيه وشأنه يا سيّدتي، فحتّى بعد مائة عام لن يلحظ أحد قَرَعَهُ.

وتعالى صخب الجداجد والطيور بحدّة مروّعة، فاضطرّت الفليفلة والإسكافيّ للتخاطب صراخًا.

– قالت بلهجة آمرة: خذ هذا المرهم! وامسح رأسه به كلّ مساء.

رفع الإسكافيّ بصره نحوها، فتناول الأنبوب منها، حدّق فيه وتفحّصه من جميع جوانبه، ثمّ أعاده إليها.

– احتفظي به لنفسك، فهو لا ينفع، أمّا قرَع الولد فإنّه عدوى من أحد الطيور.

ثمّ عاد وانكبّ على عمله من جديد.

وما ذكره من سببٍ لمرض ابنه قد يكون صحيحًا أو لا؛ ذلك أنّ خيرمان الأقرع كان في ذلك الحين شديد الولع بالطيور فعلًا. ولا شكّ في أنّ جذور هذا الولع تعود إلى طفولته المبكّرة التي أمضاها بين طيور الخضيريّ والكناريّ والحسّون وزقزقاتها الصاخبة. وما كان أحد في الوادي كلّه يعرف عن الطيور مثله، وفوق ذلك كان قادرًا على البقاء من أجلها أسبوعًا كاملًا بلا طعام ولا شراب. ولا ريب في أنّ هذه الميّزة لعبت دورًا كبيرًا في أن يقبل روكي البعر صداقته، على اعتلاله وهزاله.

وكثيرًا ما كان خيرمان الأقرع يقول لرفقائه عند الانصراف من المدرسة مساءً:

– تعالوا، فأنا أعرف عشًّا لطيور الزرياب فيه اثنا عشر فرخًا منها. إنه على سور الصيدليّة.

أو يقول:

– تعالوا معي إلى مرج الأميركيّ. إنّها تمطر الآن مطرًا ناعمًا، وفي هذا الجوّ تخرج طيور السُّمَّان من أعشاشها كي تنقر الروث وتتغذّى عليه.

كان خيرمان الأقرع خير من يميّز بين الطيور من طيرانها، في

حمأته وفي هدأته، وكذلك من زقزقاتها. وكان يعرف نزواتها، ويدرك بالتفصيل طباعها وتأثير تقلّبات الطقس عليها، حتّى يظنّ المرء أنّه لو رغب في تعلّم الطيران، لَتعلّمه.

وكما يمكن للمرء أن يتصوّر، كان ذلك في نظر البوم والبعر موهبة لا تُقدّر بثمن. وإن خرجا بحثًا عن الطيور لا يمكن لهما أن يستغنيا عن صحبة الأقرع، مثلما لا يمكن لأيّ صيّاد معتزّ بنفسه أن يستغني عن كلبه.

إلّا أنّ ضعف ابن الإسكافيّ وهزاله جلبا عليه متاعب حقيقيّة وخطيرة فعلًا. فذات مرّة وهو يبحث عن عشّ للسمّان بين الأحراش المتكاثفة فوق النفق، اختلّ توازنه وسقط على سكّة القطار سقوطًا مدويًّا، فانكسرت إحدى رجليه. وبعد شهر على الحادثة، أخبره دونْ ريكاردو أنّه تماثل للشفاء، لكنّه ظلّ يعرج بساقه اليمنى طوال حياته. وغنيّ عن القول إنّ ذلك لم يشغل باله كثيرًا وظلّ يبحث عن الأعشاش بحماسته المفرطة نفسها التي كان عليها قبل محنته.

وفي مرّة أخرى أيضًا، سقط عن إحدى أشجار الكرز البرّيّ حيث كان يتربّص بطيور السُّمَّان، فهوى على شجيرة من شجيرات توت العُلَّيق المتشابكة الأغصان، وانشرمت بأشواكها الحادّة شحمة أذنه اليمنى من فوق إلى تحت. ولمّا رفض أن يخيط له الطبيب جرحه، ظلّت الشحمة مشرومة إلى نصفين مثل قفا سترة البذلة الرجّاليّة.

إلا أنّ هذه المصائب كلّها لم تكن إلّا متاعب المهنة التي يهوى، وما خطر في باله قطّ أن يشتكي من عرجه أو من أذنه المشرومة أو من قرعه الذي انتقل إليه بالعدوى من أحد الطيور، على ما يزعم أبوه. فيا مرحبًا بالشرور، إذا ما أتت من الطيور! وكان في سلوكه ذاك ضربٌ من الخضوع للأقدار والصبر عليها بلا حدود أبدًا.

– ألا يؤلمك هذا أبدًا؟ سأله البعر ذات يوم مشيرًا إلى أذنه.

ابتسم خيرمان الأقرع ابتسامته الشاحبة الحزينة المعهودة، وأجاب:

- أحيانًا تؤلمني قدمي حينما يوشك المطر على الهطول. أمّا أذني فهي لا تؤلمني أبدًا.

لكنّ أهمّيّة الأقرع في نظر روكي البعر كانت أكبر من كونه مجرّد خبير بالطيور، بل تكمن في ضعف بنيته الجسديّة تحديدًا؛ وبهذا المعنى كان طعمًا لا مثيل له لافتعال المشاجرات. كان روكي البعر يحتاج إلى المشاجرات مثل حاجته إلى الخبز اليوميّ، فيجد أثناء المهرجانات الشعبيّة التي تُقام في الصيف في القرى المتجاورة فرصًا ملائمة كثيرة لاستعراض عضلاته. لكنّه، والحقّ يُقال، لم يدخل قطّ في مشاجرة إلّا وبين يديه المبرّرات كلّها. وكانت لدى زعيم أيّ شِلّة صبيان في قرى الوادي رغبة كامنة في البطش والسيطرة على نظرائه في بقيّة القرى والضِّياع والبلدات المجاورة. وفي ذلك كان خيرمان الأقرع بضعفه وهزاله الشديدين يشكّل لروكي البعر ذريعة مميّزة لإشعال الشجار بينه وبين خصومه، ويقدّم له حجّة لا مثيل لها في إظهار تفوّقه.

وحتّى لحظة اندلاع أيّ اشتباك كان المشهد نفسه يتكرّر دائمًا ولا يتبدّل أبدًا، إذ يعمد روكي البعر أوّلًا إلى استقصاء معسكر الخصوم من بعيد، ثمّ يهمس في أذن الأقرع قائلًا:

- اقتربْ منهم وحدّق بهم طويلًا كأنّك تريد سلبهم حبّات البندق التي يأكلونها.

فيتقدّم الأقرع نحو الخصوم خائفًا، وهو يعرف على أيّ حال أنْ لا مفرّ أمامه من تلقّي الصفعة الأولى في العراك، وأنْ لا سبيل له إلى تجنّب ألمها البسيط كيلا يفرّط بصداقته المتينة مع البعر. بعد ذلك، يتوقّف على مسافة مترين من صبيان الشِلّة ويحدّق في أفرادها بإمعان، فلا يطول ردّ هؤلاء عليه وسرعان ما يطلقون في وجهه التهديدات:

– كفّ عن التحديق بنا هكذا! أم إنّك لم تُجرِّبْ طعم الصفع بعد؟

لكنّ الأقرع يستمر بالتحديق فيهم، رابط الجأش، لا يرفّ له جفن ولا يتزحزح من مكانه رغم ارتعاش ساقيه الطفيف، فهو يعلم أنّ روكي البعر ودانيال البوم رابضان خلف منصّة الفرقة الموسيقيّة. وهكذا يعود زعيم الشِلّة إلى تهديداته:

– ألم تسمع كلامي أيّها التافه؟ انصرف من هنا وإلّا شطرتك إلى نصفين.

فيتظاهر خيرمان الأقرع بأنّه لم يسمع، ويظلّ شاخصًا إلى كيس البندق بعينيه كأنّهما مصباحان، ويبقى ثابتًا في مكانه من دون أن يتزحزح أو أن ينبس ببنت شفة. لكنّه في أعماق نفسه يفكّر بمكان سقوطه بعد الصفعة التي ينتظرها، ويتساءل إن كانت طراوة العشب تحت قدميه تكفي لتخفيف أثر الصدمة. وهكذا إلى أن يَنْفُدَ صبر زعيم الخصوم، المتبجّح:

– خذ أيّها المتطفّل! عساك تتعلّم الدرس.

وكان أمر خيرمان الأقرع غريبًا حقًّا، إذ يحسّ دائمًا في مثل هذه الحال بحضور البعر المُطَمْئِن خلفه، قبل أن يحسّ بألم الصفعة، ويستشعر حضوره المُطَمْئِن وصوته الدافئ القريب الذي يوحي بالأمان:

– ضربتَ صديقي، أليس كذلك؟، ثمّ يضيف وهو ينظر بعطف إلى خيرمان: هل قلت له ما أزعجه يا أقرع؟

أجبته: – لم أنبس بحرف واحد. ولم يضربني إلّا لأنّني كنت أنظر إليه وحسب.

وهكذا يندلع العراك، ويكون البعر فوق ذلك صاحب الحقّ لأنّ خصمه ضرب رفيقه لمجرّد أنّه كان ينظر إليه؛ أي من دون مبرّر كافٍ

ومقنعٍ، بحسب الأعراف البديهيّة السائدة بين الصبيان والمتعلّقة بمفهوم الكبرياء لديهم.

ولمّا كان تفوّق روكي البعر في ذلك العراكِ أمرًا لا جدال فيه، فقد كان المشهد ينتهي دائمًا به وبصاحبَيْه جالسَيْن في «معسكر» شِلّة الخصوم وهم يأكلون حبّات البندق التي غنموها منهم.

الفصل السابع

بين هؤلاء الثلاثة لم يكن هناك محلّ للخلاف أبدًا، فكلّ منهم يعرف سلفًا مكانه الصحيح في الشِلّة ويلتزم به. دانيال البوم يعرف أنّه غير قادر على أن يُملي شيئًا على البعر مع أنّه يتفوّق عليه في الذكاء؛ وخيرمان الأقرع يقرّ بأنّه أدنى من الاثنين الآخرين مرتبة، رغم أنّ خبرته في الطيور تفوق خبرتَيْهما بكثير من الدقّة والاتّساع. فالتفوّق هنا لا يحدّده الذكاء ولا الكفاءات ولا الإرادة، إنّما العضلات حصرًا. وهو أمر منطقيّ ومفهوم، وله ما يبرّره في مثل ظروف الوادي.

إلّا أنّ هذا لا يمنع دانيال البوم من أن يكون بينهم الوحيد القادر على اللحاق بقطارات الشحن وهي تنوء بحمولتها صاعدة السكّة، أو حتّى بالقطارات التي تنقل البضائع والركّاب معًا، إن لم تكن فارغة من الحمولة أو مزوّدة بقاطرات حديثة. فالبعر والأقرع لا يضاهيانه في الجري، لكنّ خفّة ساقَيه لا تبرّر منحه أيّ تفوّق في الشِلّة، ولا تتجاوز كونها ميّزة جديرة بالتقدير وحسب.

كان الأصدقاء الثلاثة يتردّدون، في مساءات أيّام الآحاد وأثناء العطلات الصيفيّة، على المروج والجبال المحيطة بالوادي وعلى ميدان لعبة الكرات الحديديّة وعلى النهر أيضًا. وكانت تسلياتهم متنوّعة، تتبدّل من حين إلى آخر، وفيها شيء من البدائيّة والقسوة، ففي هذه السنّ لا يصعب أبدًا إيجاد تسلية في أيّ مكان. وبنُقّافاتهم المطّاطيّة كانوا في بعض الأحيان يرتكبون مجازر فظيعة بحقّ طيور

السُّمَّان والشحارير والزرازير. كان خيرمان الأقرع يعرف أنّ هذه الطيور التي تنتمي إلى نفس العائلة تلتجئ في ساعات الحرّ إلى شجيرات توت العلّيق وأسْوجة الحقول، وأنّ اصطيادها وهي على الأشجار العالية أو قرب السكّة، ومباغتتها وهي نصف نائمة، يقتضي الاستيقاظ باكرًا؛ فلذا كان يُفضّل ورفيقاه السعي وراءها في عزّ الحرّ وهي في قيلولتها، متكاسلة بين شجيرات توت العلّيق الكثيفة؛ فالرمية هنا تكون أقرب، والهدف أوضح، والصيد بالتالي يكون مؤكّدًا أكثر.

ولم يكن دانيال البوم يفضّل طَبَقًا من أطباق الطعام على طبق الزرازير بالأرزّ. وإذا ما اصطاد أحد الزرازير، أحبّ أن ينتف ريشه بيديه، وهكذا أدرك ذات يوم أنّ الطفيليّات تعشّش في جلد معظمها، تحت الريش. ولمّا أخبر الأقرع باكتشافه العجيب هذا، أُصيب بخيبة كبرى من جوابه:

– ألم تكن تعرفُ ذلك من قبل؟ إنّ الطفيليّات تعشّش في جلد معظم الطيور، تحت الريش. وما القرع الذي في رأسي إلّا عدوى من أحد طيور الوقواق، على ما يزعم أبي.

وهكذا قرّر دانيال البوم ألّا يحاول بعدُ أن يستقصي أكثر عن الطيور، وإن أحبّ معرفة أيّ شيء عنها، فمن الأسهل عليه والأسرع أن يسأل الأقرع.

وفي أيّام أخرى كانوا يذهبون إلى ميدان لعبة الكرات الحديديّة فيتبارون في ما بينهم هناك. وفي هذه اللعبة كان روكي البعر يتفوّق على صديقيه تفوّقًا ساحقًا. وما كان يجديهما نفعًا أن يمنحهما بعض الأفضليّة في بداية اللعبة، ذلك أنّه في نهايتها يكون قد تقدّم عليهما بكثير، وبلا مجهود يذكر، بينما هما يكادان لا يتزحزحان من المكان الذي تفضّل به عليهما. وفي هذه اللعبة كان البعر يبدي قوّة الرجال

وعزمهم وبراعتهم. وفي المسابقات التي تُقام في عيد السيّدة العذراء لم يكن ترتيبه يتأخّر عن المركز الرابع، علمًا أنّ منافسيه هم رجال القرية جميعًا تقريبًا. وكان بلوغه المبكّر هذا يثير الغيظ في نفس أخته سارة.

كانت تقول له: - دابّة، دابّة، سوف تصبح دابّة مثل أبيك وأكثر.

فينظر إليها باكو الحدّاد بعينين ملؤهما الأمل.

- اللّهم آمين، يقول كما لو أنّه يتضرّع إلى الله.

أمّا المكان الذي كان الأصدقاء الثلاثة يجدون فيه تسليتهم المثيرة المثلى فلربّما كان في النهر، في الجهة المقابلة لحانة كينو الأبتر. فهناك يمتدّ مرج واسع، تتوسّطه شجرة بلّوط كبيرة، ويحدّه سور منيع من الصخر الأبديّ، يعزلهم عن بقيّة الوادي. وقبالة السور تقع بركة الإنكليزيّ، ومنها يخرج الماء بعد بضعة أمتار نزولًا، فينساب إلى عمق قليل بين حجارة وحصى صغيرة. في هذه المنطقة كانوا يصطادون سرطانات الماء بأيديهم، فيرفعون الحجارة عنها بحذر ويمسكون بها بثبات من الجهة العريضة من درعها، وهي تتلوّى وتفتح كمّاشاتها وتُطبقها بتثاقل، محاولةً بعناد محاولتها اليائسة والأخيرة، في الهرب.

وفي أحيان أخرى كانوا يصطادون من بركة الإنكليزيّ مئات الأسماك الصغيرة التي تسبح في الماء أسرابًا أسرابًا، تجعل لونه داكنًا دائمًا. وكان يكفيهم أن يلقوا في البركة شبكةً فيها أيّ طعم وهميّ ذي لون فاقع حتّى يمسكوا الأسماك بالعشرات. لكنّ المشكلة في الأمر أنّ الصبيان الثلاثة بدأوا يستخفّون بهذه التسلية لكثرة الأسماك وسهولة صيدها، فانتهى بهم الأمر إلى هجرانها نهائيًّا. والشيء نفسه حدث لهم في جمع الآس والزعرور والتوت والبندق البرّيّ. وما زاد من ازدرائهم لهذه التسليات، بشكل ملحوظ، هو أنّ دونْ مويسيس المعلّم، كان يُحابي التلاميذ الذين ينفقون ساعات فراغهم ببلاهة في جمع التوت

والزعرور البرّيّ أو صيد الأسماك الصغيرة، كي يُكرِموا أمهاتهم بما يجنون منها. وفوق ذلك كان هؤلاء الصبيان هم من ينالون، في نهاية العام الدراسيّ، شهادات التقدير وعلامات الامتياز ومراتب الشرف. فكان ازدراء روكي البعر ودانيال البوم وخيرمان الأقرع لهم لا يقلّ عن ازدرائهم لجمع التوت والبندق البريّ وصيد الأسماك الصغيرة.

في المساءات الصيفيّة الحارّة كان الأصدقاء الثلاثة يسبحون في بركة الإنكليزيّ، ولم تكن لديهم متعة تضاهي متعة إحساسهم بالماء وهو يلامس جلودهم فيبرّدها، إذ يسبحون بهدوء مثل سباحة الكلب، فيشقّون الماء ويزيحونه بحيث لا يُلحظ أيّ أثر لاصطفاق الماء على أجسادهم ما داموا فيه، ثمّ يقطعون مائة متر نزولًا، ثم مائة متر أخرى صعودًا.

وذات مساء من تلك المساءات أدرك دانيال البوم وخيرمان الأقرع أخيرًا معنى الرحم اليابس ومعنى الإجهاض، إذ كانوا جميعًا مستلقين على العشب في مرج البلّوطة، يجفّفون أجسامهم الغضّة تحت الشمس. حينها كان عمر دانيال البوم سبعة أعوام، وعمر خيرمان الأقرع ثمانية، وكان لا يستر جسم روكي البعر إلّا سروال مرقّع ارتداه بالمقلوب. أمّا البوم والأقرع فكانا يسبحان عاريَيْن لأنّهما ما كانا يدركان بعدُ معنى الحياء، إلى أن أيقظه فيهما روكي البعر ذلك المساء.

ومن دون أن يعرف دانيال البوم السبب، ربط حديث هذا المساء بحديث دار بينه وبين أمّه منذ أربع سنوات، لمّا أتاها حاملًا صورة بقرة هولنديّة سمينة.

قالت أمه: – ما أجملها يا دانيال، أليس كذلك؟ إنّها بقرة حلوب.

نظر الطفل إليها مندهشًا، ذلك أنّه لم يرَ الحليب من قبل إلّا في القدور والجرار.

قال مستدركًا: - لا يا أمّي. ليست حلوبًا. انظري إليها، فهي لا تحمل جرارًا.

ضحكت الأمّ بصمت من براءته، فأخذته وأجلسته في حضنها قائلة:

- البقرة الحلوب لا تحمل جرارًا يا بنيّ.

فنظر إلى وجهها كي يتأكّد إن كانت تخادعه أم لا، فرآها تضحك وأحسّ بأنّ كلامها ينطوي على أمر خفيّ غامض. لم يكن بعدُ يعلم بوجود «تلك الأشياء»، إذ لم يكن له من العمر غير ثلاث سنوات، لكنّه في تلك اللحظة أحسّ بوجودها.

باغتته رغبة عارمة في استجلاء الأمر استجلاءً تامًّا، فسأل أمه:

- وأين تحمل البقرة الحليب إذًا يا أمّي؟

- في... في بطنها، من دون شكّ.

فدوت حيرة الطفل في ما يشبه الانفجار بقوله:

- ماذاااا؟

- إنّ البقرة الحلوب تحمل الحليب في بطنها يا دانيال، أضافت وهي تشير بإصبعها ذي الظفر المفلطح، إلى ضرع البقرة المكتنز بالحليب، في الصورة.

تردّد دانيال البوم لحظة ثمّ أشار إلى الحلمة وهو ينظر إلى الضرع المنتفخ، وقال:

- مِن هذه الحُبيبة يخرج الحليب؟

- نعم يا بنيّ، من هذه الحُبيبة يخرج الحليب.

في تلك الليلة لم يستطع دانيال البوم أن يتكلّم أو أن يفكّر في أيّ شيء آخر. ورأى في ما قالته أمّه كشفًا لسرّ كانت تعرفه، وخبّأته عنه طويلًا. فلقد ضحكت ضحكًا لم تضحك مثله من قبل لمّا كان يسألها عن أشياء أخرى. ثمّ بدأ ينسى الأمر تدريجيًّا. فبعد عدّة شهور اشترى

أبوه بقرة، ولاحقًا رأى بقرات الصيدلانيّ العشرين ورأى كيف تُحلب. فصار يضحك في ما بعد من نفسه كثيرًا ما إن يخطر في باله أنّه تصوّر ذات مرّة أنّ البقرة لا تدرّ الحليب إلّا إذا كانت مزوّدة بالجرار.

في ذلك المساء، تذكّر دانيال البوم صورة البقرة الهولنديّة وهو مستلقٍ على العشب في مرج البلّوطة، بجانب النهر، بينما كان روكي البعر يسترسل في كلامه. كانوا قد خرجوا لتوّهم من الماء، وأخذت النسائم العليلة تجفّف أجسامهم، مداعبة إيّاها ببرودتها. إلّا أنّ الجوّ حولهم كان دبقًا والحرّ شديدًا لا يُطاق. وفجأة، وهم مستلقون على ظهورهم فوق العشب، رأوا طيرًا كبيرًا يمرّ فوقهم في السماء.

صاح البوم: - انظروا! إنّه اللقلق الذي تنتظره معلّمة مدرسة الكويرا، فهو ذاهب باتّجاهها.

فقاطعه الأقرع:

- ليس هذا لقلقًا، بل إنّه كُركيّ.

استقام البعر بظهره وظلّ جالسًا على العشب وهو يمطّ شفتيه تبرّمًا وسخطًا. فتأمّله البوم بحسَد وهو يرى صدره العظيم يعلو ويهبط مع أنفاسه.

قال البعر: - أيّ لقلقٍ هذا الذي تنتظره المعلّمة؟ أما زلتما تفكران هكذا؟

استقام البوم والأقرع بظهريهما أيضًا وظلّا جالسين على العشب، وأخذا ينظران إلى البعر بلهفة، وهما ينتظران أن يحدّثهما عن «تلك الأشياء». فمهّد له الأقرع الطريق حين سأله:

- كيف يأتي الأولاد إذًا؟

ظلّ البعر على عبوسه، لمعرفته بتفوّقه عليهما في تلك اللحظة.

- بالولادة، قال بشكل حازم وقاطع.

- بالولادة؟، تساءل البوم والأقرع معًا مستغربَين.

فأجابهما البعر مؤكّدًا:

- نعم، بالولادة. أما رأيتما في حياتكما أرنبة تلد؟

- بلى.

- هكذا يلد البشر.

فارتسمت على وجه البوم ملامح ذهول مضحكة، وقال من دون تفكير:

- تعني أنّنا جميعا أرانب؟

غضب البعر من حماقة صديقيه.

- لا، ليس كذلك. بدل الأرنبة امرأة، وهي أمّ كلّ واحد منّا.

لمع في عيني الأقرع قبس غريب من الفطنة وقال موضحًا:

- إذًا، ليس اللقلق من يأتي بالأولاد، أليس كذلك؟ فعلًا، هذه الفكرة كانت تبدو لي غير معقولة حتّى إنّني كنت أتساءل دائمًا لماذا يزور اللقلق أبي عشر مرّات وهو غير راغب في كثرة الأولاد، في حين أنّه لا يزور جارتنا الفَطْساء أبدًا، وهي الراغبة في أن يكون لديها ولو ولد واحد.

ران حولهم صمت لم يكن يشوبه إلّا هدير ماء النهر الصافي وحفيف أوراق الشجر، فقال البعر بصوت خفيض:

- والولادة مؤلمة ألمًا شديدًا. أتعلمون ذلك؟

فانتفض البوم في وجهه بشكوكه الدفينة قائلًا:

- وكيف تعرف أنت هذه الأشياء؟

- هذه أشياء يعرفها أيّ إنسان إلّا أنتما الاثنان لأنّكما تعيشان غافلين عمّا حولكما. لقد ماتت أمّي من شدّة الألم لمّا ولدتني. لم يصبها أيّ مرض، بل ماتت من الألم. ويبدو أنّ الألم أحيانًا لا يُقاوم ويؤدّي إلى

الموت هكذا، من دون مرض أو أيّ علّة أخرى. ثمّ أضاف وهو منبهر لانجذاب سامعَيه إليه: وبعض النساء ينشطرن نصفين أثناء الولادة. لقد سمعت ذلك من سارة.

فقال خيرمان الأقرع متسائلًا:

– وبعد ذلك يمرضن فعلًا. أليس كذلك؟

فزاد البعر من حدّة الإثارة في حديثه بأن خفض صوته أكثر لمّا قال:

– يمرضن ما إن يَرَيْنَ وليدهنّ. فالوليد يخرج من بطن أمّه مغطًّى بالشعر، بلا عينين ولا أذنين ولا منخرين، وليس له إلّا فم واسع كي يتمكّن من الرضاعة. وبعد ذلك تتشكّل عيناه وأذناه ومنخراه وكلّ شيء آخر فيه.

أصغى دانيال البوم إلى كلام البعر بلهفة وتأثّر شديدَيْن، فانفتح أمام عينيه أفق جديد لم يكن في نهاية المطاف إلّا كشفًا لمعنى الحياة والوجود الإنسانيّ. انتابه شعور مباغت بالخجل من بقائه عاريًا تمامًا في الهواء الطلق، وفي الوقت عينه أحسّ بحبّه لأمّه يتجدّد في نفسه ويفيض بعواطف جيّاشة. ومن دون أن يدري، أحسّ أيضًا في أعماقه، للمرّة الأولى، برابطة الدم التي تربطه بها. وشعر بأنّه صارت بينهما علاقة ورابطة تجعل من أمّه الآن ضرورة لا غنى له عنها، فغدت الأمومة بهذا الشكل أحلى وأجمل، إذ لم تعد مرهونة بالمصادفات ولا بالنزوات العبثيّة لطائر اسمه اللقلق. وكان أكثر ما أعجبه من كلّ ما صار يعرفه عن «تلك الأشياء»، هو إدراكه أنّه ثمرة ألم عظيم قاسته أمّه، ولم تكن لتتجنّبه رغبة منها في أن تلده هو بالذات.

ومنذ ذلك الحين صار يرى أمّه بطريقة مختلفة، فينظر إليها نظرة أكثر إنسانيّة وأكثر بساطة، لكنّها أصدق وأكثر عاطفة أيضًا. وكان غريبًا ذلك الإحساس الذي صار يطغى عليه في حضرتها، كما لو أنّ قلبيهما

ينبضان معًا بانسجام وانتظام، وكما لو أنّهما صنوان متلازمان لا انفكاك بينهما.

وفي ما بعد صار دانيال البوم، كلّما ذهب للسباحة في بركة الإنكليزيّ، يستر جسمه مثل البعر بسروال قديم مرقّع، يرتديه بالمقلوب أيضًا؛ ويفكّر حينذاك في مدى قبحه عند ولادته، وكيف كان مغطًّى بالشعر، بلا عينين ولا أذنين ولا منخرين ولا أيّ ملامح أخرى سوى فم واسع، شره للرضاعة. «مثل الخلد»، كان يقول في نفسه، ثمّ لا تلبث رعشته الأولى أن تتحوّل بعد قليل إلى ضحكة طويلة مجلجلة.

الفصل الثامن

على ما يقول روكي البعر، فإنّ الفليفلة الصغرى كانت إحدى نساء القرية اللواتي يبست أرحامهنّ. وهذا القول، رغم صعوبة إثباته، لا يحمل في طيّاته أيّ جديد، ذلك أنّ كلّ ما في الفليفلات الثلاث طاله اليباس تقريبًا.

عادت الفليفلة الصغرى إلى القرية في قطار الإقليم بعد ثلاثة أشهر وأربعة أيّام تمامًا على هروبها مع ديماس. وكانت عودتها، مثل هروبها، حدثًا في الوادي كلّه، مع أنّه مرّ أيضًا مثل الحوادث الأخرى كلّها، فطواه النسيان ثمّ حلّ محلّه حدث آخر لم يكن نصيبه أحسن من غيره من الحوادث الأخرى، فمرّ أيضًا وطواه النسيان. ولكنْ، بهذه الطريقة كانت تفاصيل حكاية الوادي اليوميّة، البسيطة، تُكتب شيئًا فشيئًا. وبالطبع فإنّ الفليفلة الصغرى عادت بمفردها. أمّا دونْ ديماس، موظّف المصرف، فلم يعد أحد يلمحه أبدًا، مع أنّ الخوري دونْ خوسيه، لم يكن يرى فيه رجلًا شرّيرًا. وعلى أيّ حال، سواء أكان دونْ ديماس طيّبًا أم شرّيرًا، فقد تبدّد في الهواء مثلما تتبدّد الأصداء بين الجبال من دون أن تترك أثرًا.

وكان كوكو، مأمور المحطّة، أوّل من حمل الخبر إلى القرية. فهو يمثّل، بعد «إذاعة» دونْ رامون الصيدلانيّ، خير وكالة للأنباء في المنطقة، وأخباره دائمًا طازجة، مثيرة، وإن خلت من الأهميّة أحيانًا. وفوق ذلك فقد كان بدينًا، قويًّا، مهذارًا، ذا مظهر مرح. وكان دانيال البوم معجبًا به وبطباعه وبكفاءاته وبالسهولة التي يتحكّم بها بالقطارات

عند وصولها إلى الوادي ومغادرتها له وسيرها فيه؛ فذلك كلّه يتطلّب مقدرة ومرونة عاليتَيْن وموهبة في التنظيم لا تُرتجَل ارتجالًا.

ولمّا ترجّلت إيرينه، الفليفلة الصغرى، من القطار كانت عيناها مغرورقتين بالدموع، وبدت أشدّ نحولًا وهزالًا ممّا كانت عليه منذ ثلاثة أشهر، حينما غادرت القرية. كانت تمشي وكأنّها تنوء بحمل خفيّ يُرغمها على أن تحني ظهرها، ولا شكّ في أنّ ندامتها على فعلتها كانت وراء ذلك. ومن الثياب ارتدت ما اعتادت ارتداءَه النساءُ الأرامل، المفجوعات، فتلفّعت بالسواد من رأسها حتى أخمص قدميها، وأسدلت على وجهها خمارًا أسودَ، سميكًا، أخفاه.

كانت السماء قد أمطرت طيلة النهار، فلم تنشغل الفليفلة الصغرى وهي تصعد الدرب المؤدّية إلى القرية، بتجنّب الحفر المليئة بالماء، بل إنّها بدت تواسي نفسها مواساة غريبة في تغطيس قدميها الصغيرتين، مرّة تلو الأخرى، في حُفَرِ الطريق الموحلة وفي طينه.

ولمّا رأت الفليفلة الكبرى أختها الصغرى تقف عند باب الدكّان متردّدة، أُصيبت بالذهول وغطّت عينيها بيديها عدّة مرّات كأنّها تريد أن تحجب عنهما رؤيا مفزعة.

تمتمت الأخت الصغرى: - أجل، هذي أنا يا لولا لا تستغربي. وها قد عدت ولو آثمة، فهل تغفرين لي؟

فأجابت الفليفلة الكبرى: - نعم، إلى أبد الآبدين يا أختي! تعالي وادخلي.

ثمّ توارت الأختان في الحجرة الخلفيّة من الدكّان، فأخذت كلٌّ منهما تتأمّل الأخرى بصمت. وكانت الأخت الصغرى منكفئة على نفسها، مطأطئة الرأس، مخذولة، أمّا الكبرى فبدت وكأنّها سمنت في تلك اللحظة، بعودة أختها نادمة.

فبادرتها بالقول: - هل أنت مدركة لما فعلتِ يا إيرينه؟

- اسكتي، أرجوكِ، قالت الأخت الصغرى متأوّهة، ثمّ هوت على الطاولة وهي تبكي بكاء مرًّا.

تركت الفليفلة الكبرى أختها تبكي احترامًا لمشاعرها، فالبكاء ضروريّ لإراحة الضمير. ولمّا اعتدلت إيرينه بجلستها، عادت الأختان وتبادلتا النظرات من جديد. وما احتاجتا للكثير من الكلمات كي تتفاهما، فالتفاهم بينهما جرى بما أسقطتا من الكلام.

- إيرينه، هل...؟

- نعم...

- يا إلهي!

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لقد خدعني.

- هل خدعكِ أم خدعتِ نفسكِ؟

- لا فرق. قولي ما تريدين يا أختي.

- وهل كان زوجك لمّا...؟

- لا... ولا هو زوجي الآن.

- يا إلهي! وهل تنتظرين...؟

- لا. قال لي... قال لي...

سكتت عن الكلام وبدأت تنتحب ثمّ ساد الصمت من جديد، فسألتها الفليفلة الكبرى أخيرًا:

- ماذا قال لكِ؟

- قال لي إنّه عقيم.

- يا له من وغد!

- وكما ترين، لم أحبَل منه.

وفجأة خرجت الفليفلة الكبرى عن حدود الأدب واللباقة، وبخروجها هذا خرجت عن طورها أيضًا.

– أنتِ مدركة لما فعلت، أليس كذلك؟ لقد لوّثتِ شرفنا جميعًا، شرفك وشرفي وشرف أبوينا وذكراهما الطيّبة...

– لا، لا، ليس كذلك يا لولا. وحقّ السماء.

– ماذا تعتقدين إذًا؟

– نحن النساء القبيحات لا شرف لنا. كفاكِ وهمًا يا أختي.

قالت ذلك بانكسار، مستسلمة ليقينها الراسخ بفكرتها، ثمّ أردفت:

– هو من قال لي ذلك.

– إنّ شرف المرأة أعزّ وأغلى ما تملك في حياتها. ألا تعلمين ذلك؟

– أعلم ذلك يا لولا.

– ماذا إذًا؟

– سوف أفعل ما تأمرين به يا أختي.

– هل أنتِ مستعدّة لذلك؟

طأطأتِ الفليفلة الصغرى رأسها، وقالت:

– نعم، أنا مستعدّة لذلك.

– تلبسين السواد بقيّة عمرك، ولا تخرجين من المنزل أبدًا إلّا بعد خمس سنوات. هذه هي شروطي. هل تقبلين بها؟

– نعم، أقبل بها.

– اصعدي إلى المنزل إذًا.

أقفلت الفليفلة الكبرى باب الدكّان بالمفتاح وصعدت وراء أختها. ولمّا وصلت الأخت الصغرى إلى غرفتها جلست على حافّة السرير، فأتت الأخت الكبرى بطشت فيه ماء فاتر وأخذت تغسل لها قدميها، وأثناء ذلك ظلّتا صامتتَين. وبعد الانتهاء من الغسل تنهّدت الفليفلة الصغرى وقالت:

– لقد كان سيّئ النيّة منذ البداية. هل تعلمين ذلك؟

لم تجبِ الأخت الكبرى بشيء، ذلك أنّ مظهر أختها الكئيب أرغمها على مراعاتها بحذر شديد. ثمّ أردفت الفليفلة الصغرى قائلة:

– كان طامعًا بمالي. كان، السافل، يظنّ أنّنا نمتلك مالًا كثيرًا، كثيرًا جدًّا.

– ولمَ لمْ تقولي له منذ البداية أنّنا لا نمتلك نحن الاثنتين أكثر من ألف دورو؟

– كان ذلك يعني ضياعي يا أختي. كان سيهجرني، وأنا كنت أسيرة غرامه.

– ما أضاعكِ إلّا سكوتك يا مجنونة.

– لقد أنفق كلّ مالنا، هل تعلمين؟

– ماذا؟

– عاش ديماس معي ما دامت النقود متوفّرة. ولمّا نَفِدَت النقود انتهى كلّ شيء بيننا وتركني وحيدة، ضائعة. إنّ ديماس رجل شرّير يا لولا. إنّه رجل فظّ وفاسد الخلق.

سرى الدم غضبًا في وجنتيّ الفليفلة الكبرى الضامرتَيْن، فاحمرّتا أكثر من المعتاد.

– إنّه لصّ، وهذه هي حقيقته. وهو تمامًا مثل ديماس، اللصّ التائب.

ثمّ لزمت الصمت لمّا هدأت سورة غضبها، وسرعان ما بدأت الوساوس تَخِزُ ضميرها. كيف تجرّأتْ على التفوّه بمثل هذه الكلمات بحقّ اللصّ التائب ديماس؟ ألم يقبل الربّ توبة التائبين مثله؟ أحسّت بندامة ما بعدها ندامة، فقالت في نفسها: «من كلّ قلبي أطلب الغفران منك يا ربّي». ثمّ قرّرت أن تذهب لزيارة دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، في اليوم التالي ما إن تستيقظ من نومها، للاعتراف بما فعلت، فلا أحد غيره يعرف كيف يصفح عنها ويواسيها؛ ذلك إنّها في تلك اللحظة كانت بحاجة ماسّة لبعض المواساة.

مرّرت من جديد يدها على عينيها محاولة إبعاد الكابوس. ثمّ تنشّقت بقوّة ما سال من أنفها الطويل وقالت:

- حسنًا يا أختي. انهضي وبدّلي ملابسك، فأنا عائدة إلى الدكّان. وحينما تنتهين من تبديلها، بوسعك أن تسقي أزهار الجيرانيوم كما اعتدتِ أن تفعلي قبل حلول المصيبة. وغدًا سوف نذهب لزيارة دونْ خوسيه، لأنّه عليك أن تطهّري نفسك الآثمة بأسرع ما يمكن.

قاطعتها الفليفلة الصغرى قائلة:

- لولا!

- ماذا؟

- أشعر بخجل شديد من رؤية دونْ خوسيه.

- وهل بقي لديك شيء منه أصلًا؟

- من ماذا؟

- من الخجل.

بدت على وجه إيرينه ملامح الإحباط، وهي تقول:

- أخجل من مواجهته يا أختي، أخجل.

- كان عليكِ أن تخجلي من هروبكِ مع رجل غريب. لكنك من أجل الله، لم تثيري مثل تلك الضجة. أليس كذلك؟

- إنّ دونْ خوسيه... إنّ دونْ خوسيه رجل جليل، ولن يفهم ضعفي. افهميني يا لولا.

- إنّ دونْ خوسيه يفهم ضعف البشر جميعًا على اختلافهم، ففيه قبس من الربّ. ثمّ إنّ اعترافك عنده أحد شروطي أيضًا لعودتك إلى المنزل. هل تفهمين ما أقول؟

ثمّ سُمع نقر قطعة معدنيّة على واجهة الدكّان الزجاجيّة، فقالت الفليفلة الكبرى وقد نَفَذَ صبرها:

– هيا يا أختي، عليكِ أن تقرّري، فهناك من يناديني من باب الدكان.

أخيرًا وافقت إيرينه، الفليفلة الصغرى:

– حسنًا يا لولا. سوف أذهب للاعتراف غدًا. لقد حسمتُ أمري.

نزلت الفليفلة الكبرى إلى الدكّان وأدارت مفتاح الباب نصف دورة فدخلت كاتالينا، الأرنبة. وكانت هذه، شأنها شأن أخواتها، مقلوبة الشفة العليا مثل الأرنب، وكان أنفها الصغير لا ينفكّ ينكمش ثمّ ينبسط في حركة مستمرّة، وكأنّها تشمّ شيئًا ما على الدوام. ولذا لُقّبَت هي وأخواتها بالأرنبات. وإلى جانب هذا اللقب كنّ يحملن لقبًا آخر هو عائلة الكاكا، فأسماؤهنّ كانت كاتالينا وكارمن وكاميلا وكاريداد وكاسيلدا، وكان أبوهنّ يُتَأتِئ في الكلام.

اقتربت كاتالينا من طاولة البيع:

– أريد ملحًا، ببيسيتا واحدة.

أخذت الفليفلة الكبرى تحضّر الطلب، فرفعت الأرنبة وجهها الشبيه فعلًا بوجه الأرنب نحو السقف وارتعش منخراها بضع ثوان بعصبيّة:

– لولا، هل عندك غرباء في المنزل؟

انكفأتِ الفليفلة الكبرى على نفسها وانكمشت؛ فالأرنبات هنّ عاملات مقسَّم هاتف القرية، والأخبار تصلهنّ تقريبًا بالسرعة نفسها التي تصل بها إلى كوكو، مأمور المحطّة.

أجابتها بحذر: – لا. لماذا؟

– وكأنّي أسمع ضجيجًا آتٍ من الأعلى؟

– لا بدّ وأنّه القط.

– لا، لا. إنّني أسمع وقع أقدام.

– لقوائم القط وقع أيضًا.

– اِفهميني، إنّه وقع أقدام شخص ما. ربّما كان أحد اللصوص، أليس ذلك ممكنًا؟

ابتسرتِ الفليفلة الكبرى الحديث:

- إليكِ الملح؛ خذيه.

نظرت الأرنبة إلى السقف من جديد، وتشمّمت الجوّ بمنخريها بإلحاح؛ ولمّا صارت عند الباب عادت وقالت:

- لولا، لا أزال أسمع وقع أقدام فوق.

- ما همّك أنتِ. اذهبي بأمان الله.

وندَر أن استقبل دكّان الفليفلة هذا العدد الكبير من الزبائن الذين قصدوه هذا المساء؛ كما ندر أيضًا أن كانت الغلّة بهذا البؤس رغم كثرتهم.

وبعد الزائرة الأولى أتت ريتّا البلهاء، زوجة الإسكافيّ.

قالت: - أعطني بريالين ملحًا.

- أما اشتريتِ ملحًا أمس؟

- ربّما. لكنّني أرغب بالمزيد.

وبعد لحظة من الصمت، قالت ريتّا البلهاء بصوت خفيض:

- أرى أنّ النور مضاء فوق. ولا بدّ أنّ عدّاد الكهرباء يدور بسرعة.

- وهل ستدفعين الفاتورة عنّي؟

- ولا في المنام!

- دعي العداد يدور إذًا.

ثمّ أتت باسي خادمة الصيدلانيّ؛ ونوكا امرأة تشانو؛ وماريّا الفطساء، وهي التي يبس رحمها أيضًا؛ وسارة البعر؛ والأرنبات الأربع الأخريات؛ وخوانا المشرفة على منزل دونْ أنطونيو الماركيز؛ وروفينا زوجة بانتشو الملحد، وهي التي كفرت بالربّ وبالقدّيسين منذ أن تزوّجت؛ إضافة إلى عشرين امرأة أخرى أيضًا. وباستثناء الأرنبات الأربع، جئن جميعهنّ لشراء الملح؛ وجميعهنّ سمعن وقع أقدام في الطابق العلوي أو أبدَين قلقهنّ من سرعة دوران العدّاد، لدى رؤيتهنّ النور مضاء في الشرفة.

عند الساعة العاشرة ليلًا، حينما بدأ الصمت يخيّم على القرية، علا صوت باكو الحدّاد القويّ متعبًا ومتلعثمًا قليلًا وهو يمشي مترنّحًا في الشارع، ولمّا وصل أمام شرفة منزل الفليفلات، توقّف. كان يحمل زجاجة في يده اليمنى، وباليسرى لا ينفكّ يحكّ قذاله. ولم يكن لأحد أن يستوعب أيّ شيء من العبارات المبهمة المفكّكة التي يتلفّظ بها لولا أنّ القرية كلّها كانت على علم بما جرى.

- عاشت الأخت الضالّة! عاشت المرأة صاحبة الفخذين الهزيلين والصدر الأعجف!... ثم تصنّع الدهشة هازئًا فحكّ قذاله مرّة أخرى وتجشّأ ثمّ عاد ينظر إلى الشرفة، وتابع: من سلب لبّكِ؟ ديماس، اللص التائب!

ثمّ أخذ يضحك وحيدًا مُلصِقًا ذقنه العريضة بصدره الجبّار. أطفأت الأختان الأنوار وشرعتا ترقبان هذا الرجل الفضيحة من شقوق النافذة. «ومن يكون غيره؟ هذا الماجن!»، تمتمت الفليفلة الكبرى لمّا لاحظت انعكاس النور الخافت لمصباح الشارع على شعره الأشعث، الأصهب. وكانت الفليفلة الصغرى قد أُصيبَت بما يشبه النوبة العصبيّة لمّا سمعت باسم ديماس من فم الحدّاد، فقالت: «اطردي هذا الرجل من هنا، أرجوكِ. اطرديه من هنا يا أختي. إنّ صوته يثير جنوني». تناولت الفليفلة الكبرى السطل الذي يتجمّع فيه ماء المغسلة وفتحت النافذة قليلًا ثمّ رشقت ما فيه على وجه باكو الحدّاد وهو يهمّ بالصياح من جديد:

- عاشت الـ...

إلّا أنّ رشقة الماء قطعت عليه صياحه، فنظر السكّير إلى السماء ببلاهة وبسط ذراعيه القويّتين حتّى صار مثل الصليب، ثمّ تقدّم في الطريق متمايلًا وهو يتمتم في سرّه قائلًا:

- هيّا يا باكو، إلى المنزل! فها هي السماء تمطر بغزارة من جديد.

الفصل التاسع

أدرك دانيال البوم أنّه لن يتمكّن من النوم بسهولة، فرأسه ما انفكّ يغلي باحتدام، هائمًا بشغف في حمّى الذكريات، من دون أن يهدأ لحظة واحدة. وما زاد الطين بلّة أنّه كان عليه أن يستيقظ باكرًا في صباح اليوم التالي كي يستقلّ القطار السريع الذي سيحمله إلى المدينة، ولا سبيل أمامه لتجنّب ذلك. لم يكن دانيال البوم هو الذي يستدعي الأشياء والوادي، بل كانت الأشياء والوادي تلحّ عليه، فتحاصره بأصدائها النابضة، وبشجونها المؤلمة، وبالتفاصيل اليوميّة، الصغيرة، الكثيرة.

من النافذة المفتوحة، قبالة سريره الحزين، كان يلمح قمّة جبل راندو معلّقة في كبد السماء المرصّعة بالنجوم. وكان الجبل في الليل يرتدي عادة حلّة سوداء، كالحة؛ وفي هذه الليلة كان يُهيمن على الوادي بسطوته مثلما هيمن على دانيال البوم طوال سنوات عمره الإحدى عشرة، ومثلما يهيمن روكي البعر على صديقيه دانيال البوم وخيرمان الأقرع. كانت حكاية الوادي الصغيرة تمرّ في مخيّلته فيراها في مرآة نفسه، وكان صفير القطارات البعيد، وخوار البقر الناعس، ونقيق الضفادع الكئيب المتصاعد من تحت الحجارة، وروائح الأرض الفوّاحة النديّة، تؤجّج فيه الحنين وتضفي على ذكرياته لمسة من الواقع المحسوس.

مع ذلك فإنّ تلك الليلة لم تكن تختلف عن غيرها من ليالي الوادي إذا ما استثنينا تلك الليلة التي قفز فيها الصبيان الثلاثة للمرّة الأولى من

فوق سور مزرعة خيراردو الأميركيّ كي يسرقوا التفّاح. ولم يكن التفاح في حقيقة الأمر ذا قيمة أبدًا في نظر الأميركيّ، فهو يمتلك في المكسيك مطعمَيْن راقيَيْن ومتجرًا كبيرًا لبيع أجهزة الراديو وثلاثة مراكب للنقل البحريّ بين مدن الساحل. وكذلك لم يكن تفّاح الأميركيّ ذا قيمة كبيرة في نظر الصبيان، فهم جميعًا يقطفون ما طاب لهم من تفّاح بساتينهم المحيطة بمنازلهم، وهو تفّاح، إذا ما نظرنا إليه عن كثب، يعادل في جودته تفّاح تلك المزرعة التي يمتلكها خيراردو الأميركيّ. فلماذا يسرقونه إذًا؟ إنّها مسألة بالغة التعقيد، وبتبسيطها ربّما يكون السبب هو أنّ أيًّا منهم لم يتجاوز التاسعة من العمر حينها، وغواية المحظور تثير في أنفسهم سحرًا لا يُوصَف وتحثّهم على الأفعال الصبيانيّة. كانوا يسرقون تفّاح الأميركيّ للسبب نفسه الذي يغريهم بالتحدّث عن «تلك الأشياء» والتداول بها سرًّا عندما يكونون في الجبال أو في مرج البلّوطة بعد السباحة، و«تلك الأشياء» لم تكن إلّا علّة خَلق الإنسان وسرّ وجوده.

لمّا غادر خيراردو القرية لم يكن يُدعى بالأميركيّ بعد، بل كان يُعرف بكونه أصغر أبناء السيّدة ميكائيلّا القصّابة؛ وبحسب ما تقول ميكائيلا فقد كان أكثرهم خجلًا. ولئن كانت الأمّ تقول إنّ «خيراردو كان أكثرهم خجلا»، فإنّ أهل القرية يؤكّدون بأنّه كان قبل رحيله نصف أبله، وإن هاجر إلى المكسيك فلن يصبح أكثر من أجيرٍ في إحدى المزارع أو حمّالٍ في أحد الموانئ. لكنّ خيراردو غادر القرية وبعد عشرين عامًا عاد إليها ثريًّا. وخلال تلك السنوات كلّها لم يكتب لأحد أيّ رسالة، وحينما عاد إلى الوادي كان الدود قد التهم جسد أمّه القصّابة وأتى على دفّتي مَتْنِها وكبدها وكِلْيَتَيْها.

بكى خيراردو طويلًا في المقبرة المجاورة للكنيسة، وقد صار حينها

يُدعى بالأميركيّ، لكنّه لم يبكِ مثلما كان يبكي في الصغر والمخاط يتدلّى من أنفه واللعاب يسيل من فمه، بل بكى بصمت، وكاد بكاؤه أن يكون بلا دموع، مثل أهل المدن المتحضّرين على حدّ تعبير المشرِفة على منزل دونْ أنطونيو، الماركيز. وهذا إنّما يدلّ على أنّ خيراردو الأميركيّ تغيّر تغيّرًا كبيرًا. أمّا أخواه فقد ظلّا لصيقَيْن بالوادي لا يبارحانه، رغم أنّهما كانا، في نظر الأمّ، أكثر ذكاءً منه. فالأكبر، سيزار، تسلّم محلّ القصابة بعد أمّه وما انفكّ يبيع أكباد البقر ومتونها وكِلاها لأهل القرية، كي يفعل بعد سنوات ما فعلتْه من قبل أمّه، السيّدة ميكائيلا، فيمنح كبده وكليتيه ودفّتي متنه لدود الأرض. إنّه سلوك غريب حقًّا ولا تفسير له. أمّا الآخر، دَميان، فكان يمتلك أرضًا زراعيّةً متواضعة على الضفّة الأخرى من النهر؛ لا قيمة لها، فمساحتها لا تتجاوز بضعة دونمات مليئة بالأعشاب والذرة المدلّاة الشعر، الذابلة. ومن ريع تلك الأرض كان يعيش، إضافة إلى المال القليل الذي يجنيه من الدجاجات العشر التي يربّيها في زريبة منزله.

وفي الزيارة الأولى التي قام بها خيراردو الأميركيّ إلى القرية، أحضر معه امرأةً تكاد لا تحسن التكلّم، وابنةً عمرها عشر سنوات، وسيّارةً يكاد ضجيج محرّكها أن يكون معدومًا. وكانوا جميعًا، حتّى السيّارة، في حلّة زاهية؛ ولمّا كشف خيراردو للآخرين أنّه ترك في المكسيك مطعمَيْن راقيَيْن ومركبَيْن للنقل البحريّ، صار سيزار ودَميان يتملّقانه وأبديا رغبتهما في السفر معه إلى هناك كي يتسلّم كلّ منهما إدارة أحد المطعمين وأحد المركبين. لكنّ خيراردو لم يستجِب لرغبتهما واكتفى بأن افتتح لهما متجرًا للأدوات الكهربائيّة في المدينة، فغادرا الوادي وتنكّرا له ولأهله من أسلافهم، وصارا لا يعودان إليه إلّا لمامًا، لا سيّما في عيد السيّدة العذراء حيث يغدقان العطاء على الناس وينظّمان مسابقات القفز

بالأكياس والحبال ويضعان على رأس عمود الكوكانيا جائزة عبارة عن قطعة نقديّة من فئة الخمسة دورو. وكانا لا يعتمران إلّا القبّعات المكويّة كيًّا حسنًا، ولا يلبسان إلّا القمصان ذات الياقات المُنشّاة.

احتار أصدقاء خيراردو القدامى في أمر زواجه فسألوه كيف تزوّج امرأة شقراء، تكاد لا تحسن التكلّم، وهو مَن هو بأهمّيّته ومكانته المرموقة التي لا يشكّ أحد فيها أبدًا. ابتسم الأميركيّ من دون تكلّف وردّ عليهم قائلًا إنّ الشقراوات مرغوبات جدًّا في أميركا، وأكّد أنّ زوجته تحسن التكلّم، لكنّها لا تعرف سوى الإنكليزيّة لأنّها من اليانكي. ومنذ ذلك الحين لم يعد أندريس، «الرجل الذي لا يُرى جانبيًّا»، ينادي كلبه إلّا باليانكي، لأنّ الكلب، على زعمه، يتكلّم مثلما تتكلّم زوجة خيراردو، الأميركيّ.

إلّا أنّ خيراردو الأميركيّ لم يتنكّر لقريته، فالناس دائمًا حينما يصبحون أثرياء بعد فقر، يبدون تعلّقهم بالمكان الذي عاشوا فيه من قبل وهم فقراء. ويبدو أنّ هذه الطريقة هي أفضل طريقة كي يبرهنوا على تبدّل أوضاعهم وثرائهم، كما يبدو أنّها أحسن وسيلة كي يحسّوا بالسعادة وهم ينظرون إلى الآخرين الذين كانوا في الأمس فقراء مثلهم، فيرون أنّهم ما زالوا على فقرهم رغم مرور الزمن.

اشترى خيراردو المنزل الواقع أمام الصيدليّة من أحد المصطافين، فرمّمه من بابه إلى محرابه، وملأ حدائقه بنباتات الزينة وبالأشجار المثمرة؛ وصار من حين إلى آخر يأتي إلى القرية لقضاء بعض الوقت. وفي زيارته الأخيرة كشف لأصدقائه القدامى أنّ أعماله التجاريّة في المكسيك تسير على ما يُرام، وأنّه يمتلك هناك ثلاثة مراكب للنقل البحريّ ومطعمَيْن راقيين ووكالة لأجهزة الراديو؛ أي بزيادة مركب عن المرّة الأولى التي زار فيها القرية. أمّا أسرته فما ازدادت عددًا، وما رُزق

بمولود بعد ميكا - كانت تُدعى هكذا اختصارًا، مع أنّها سُمّيَت على اسم جدّتها ميكائيلا؛ لكنّ الأثرياء في المدن، على ما تقول المشرفة على منزل دونْ أنطونيو، الماركيز، لا وقت لديهم لمناداة أحد باسمه الكامل. ونحول زوجته الشديد، وهي التي لم تكن تأتي إلى الوادي إلّا نادرًا أيضًا، لا يبشّر بالإنجاب من جديد. ولو كان الأمر بيد سيزار ودَميان لفضّلا ألّا تأتي ميكا إلى هذه الدنيا أيضًا، مع أنّهما كانا يدلّلانها حينما تأتي من المكسيك، فيقدّمان لها باقات الزهور وعلب الحلوى ويأخذانها إلى أفضل مسارح المدينة وأرقى مطاعمها. أو على الأقلّ، هذا ما كانت تقوله المشرِفة على منزل دونْ أنطونيو، الماركيز.

أحبّت ميكا قرية أبيها وتعلّقت بها، ولطالما ردّدت علانية أنّ المكسيك لا تلائمها. أمّا أندريس، الإسكافيّ، فكان يجادل ساخرًا أنّه لا يصعب على المرء أن يعرف بيقين إن كان بلد ما «يلائمه» أم «لا يلائمه»، حين يمتلك فيه مطعمَيْن راقيَيْن ووكالة لبيع أجهزة الراديو وثلاثة مراكب للنقل البحريّ. لم تكن ميكا تمتلك أيّ شيء من هذا في الوادي، مع ذلك فقد كانت سعيدة فيه. وكانت كلّما سَنَحَتْ لها الفرصة، تأتي إلى الوادي وتبقى فيه إلى أن يطلب إليها والدها العودة إلى المكسيك. ومؤخّرًا، بعدما أصبحت صبيّة، صارت تمضي في القرية أوقاتًا طويلة، تاركة والدَيْها في المكسيك. وكان عمّاها سيزار ودَميان، وقد لقّبهما أهل القرية بـ«ظلّي الأميركيّ»، يرعيانها ويزورانها من حين إلى آخر.

وُلد دانيال البوم تحديدًا في الفترة التي زاد فيها عدد المراكب من اثنين إلى ثلاثة، أي عندما كان خيراردو الأميركيّ يدّخر المال لشراء المركب الثالث. وفي ذلك الوقت كانت ميكا قد أتمّت التاسعة من عمرها ودخلت في العاشرة منه، وعرفت القرية لتوّها.

ولما خطرت لروكي البعر فكرة سرقة تفّاح خيراردو الأميركيّ، كان هذا قد امتلك مركبه الثالث، وابنته ميكا قد أتمّت عامها السابع عشر. وفي ذلك الحين كان دانيال البوم قد صار قادرًا على التمييز والمحاكمة، ليرى أنّ أحوال خيراردو الأميركيّ قد تحسّنت وازدهرت من دون حاجة لأن ينفق أربعة عشر عامًا في الدرس، ورغم أنّ أمّه، ميكائيلا، كانت تقول عنه إنّه كان «أشدّ أبنائها خجلًا» في الصغر، وإنّه كان يمضي سحابة يومه متجوّلًا في شوارع القرية والمخاط يتدلّى من منخرَيْه واللعاب يسيل من فمه. وسواء أكان الأمر حقيقة أم لا، فإنّ أهل القرية كانوا يتناقلونه فيما بينهم على أنّه حقيقة فعلًا، وليس هناك ما يدعو للشبهة بوجود اتّفاق مسبق بين الجميع كي يشيعوا خبرًا ملفّقًا عنه. ولمّا قفز الصبيان الثلاثة عن سور مزرعة الأميركيّ، كاد قلب دانيال البوم أن يخرج من صدره لشدّة خفقانه، فالحقيقة أنّه لم يكن راغبًا في التفّاح ولا في أيّ شيء آخر سوى تذوّق طعم المحظور وحسب. كان روكي البعر أوّل من هبط على الجانب الآخر من السور، وقد فعل ذلك بخفّة تكاد تشبه خفّة القطط ورشاقتها، كما لو أنّ مفاصل ركبتَيْه وخصره مشدودة إلى نوابض. ثمّ أشار إلى رفيقيه بيده من خلف إحدى الشجرات يستعجلهم. إلا أنّ دانيال البوم لم يستعجل فيه شيء سوى قلبه، إذ أخذ يخفق بجنون منفلتًا من كلّ عقال، وأحسّ بالخدر يسري في أطرافه واستولت عليه المخاوف، فتثبّطت عزيمته. قفز خيرمان الأقرع ثانيًا، ثمّ تلاه دانيال البوم أخيرًا.

كان ضمير البوم مرتاحًا بعض الشيء، ذلك أنّ وساوس الفليفلة الكبرى انتقلت إليه بالعدوى في الأسابيع الأخيرة المنصرمة، فذهب في صباح ذلك اليوم عند دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، وسأله:

- أَبَتِ، أَمِنَ الإثم سرقة تفّاح أحد الأغنياء؟

فكّر دونْ خوسيه في الأمر لحظة قبل أن ينظر إليه بعينيه الصغيرتين ويسمّر فيه نظراته الثاقبة كرأس الإبرة:

– ليس دائمًا يا بنيّ. فإذا كان الغنيّ غنيًّا فعلًا، والسارق محتاجًا حاجة ماسّة وأخذ تفّاحة وأكلها كيلا يموت من الجوع، فإنّ الربّ عطوف، رحيم، وهو قادر على الغفران.

اطمأنّ قلب دانيال البوم وهدأ باله، ذلك أنّ خيراردو الأميركيّ كان غنيًّا، بل غنيٌّ جدًّا؛ لكنّه فكّر في نفسه متسائلًا: أليس ممكنًا أن يُرزأ ببليّة مثل بيبي العنيد الذي ابتُلي بالكساح لنقص الفيتامينات في غذائه، فنصحه دونْ ريكاردو، الطبيب، أن يُكثر من أكل التفّاح والبرتقال إن هو أراد الشفاء؟ ومن يضمن له ألّا يُصاب بمصيبة كتلك التي أُصيب بها بيبي العنيد، إن لم يأكل من تفّاح الأميركيّ؟

أحسّ دانيال اليوم بارتياح أكبر وهو يفكّر في ذلك، واطمأنّ أكثر أيضًا لمعرفته أنّ خيراردو الأميركيّ وزوجته اليانكي في المكسيك، وأنّ ميكا و«ظلّيّ الأميركيّ» في المدينة، وأنّ باسكوالون، عامل الطاحونة وحارس المنزل أيضًا، ذهب إلى حانة تشانو كي يلعب الورق. وهكذا لم يكنْ هناك ما يخشاه فعلًا، فلماذا يخفق قلبه مضطربًا؟ ولماذا يحسّ بخواء حادّ في معدته؟ ولماذا ترتجف ساقاه وترتعد ركبتاه؟ إضافة إلى ذلك، لم يكن في الحديقة كلاب حراسة، فالأميركيّ لا يحبّذ هذه الوسيلة في حماية ممتلكاته. وبالطبع لم يكن هناك أجراس للإنذار، ولا أفخاخ ولا أشراك مطمورة في الأرض. فعلامَ الخوف إذًا؟

شرعوا يتقدّمون بحذر وهم يتنقّلون بين ظلال الأشجار، تحت سماء عالية، مرصّعة بنُجيمات بعيدة. وأخذوا يتخاطبون بوشوشات خفيفة والعشب يتقصّف بنعومة تحت أقدامهم، فصار هذا الجوّ الذي يسوده الحفيف الخافت والهسيس المبهم يزيد التوتّر في نفس دانيال البوم.

– وإذا أحسّ بنا الصيدلانيّ؟ تمتم دانيال البوم فجأةً.

– هُس!

زجره روكي البعر بهمسته الصارمة تلك فأسكته، ثمّ تابعوا تقدّمهم في الحديقة، ولم يعودوا يتواصلون إلّا بالإشارة، وصارت تعابير وجه روكي البعر الغاضبة تكتسي مظهرًا مثيرًا للحزن والتأسّي، حينما لا يلتقط رفيقاه مغزى إشاراته بسرعة.

وبعد أن وصلوا تحت شجرة التفّاح المحدّدة، وكانت خلف المنزل ببضع أقدام، قال روكي البعر:

– ابقيا هنا؛ أمّا أنا فسوف أهزّ الشجرة.

ثمّ تسلّقها دونما إبطاء، فتسارعت دقّات قلب دانيال البوم لمّا بدأ روكي البعر يهزّ الأغصان بقوّته الرهيبة، وشرعت الثمار الناضجة تسقط على العشب وهي تنقره نقرًا مثل حبّات البَرَد. ولم يعد بوسعه لا هو ولا خيرمان الأقرع، لملمة كلّ الثمار المتساقطة، وأخذ يفتح فمه كلّما انحنى، لشعوره بين الفينة والأخرى بنقص في الهواء وبضيق في أنفاسه. وفجأة كفّ روكي البعر عن هزّ الشجرة.

– انظرا هناك، لقد وصلت السيّارة! تمتم من أعلى الشجرة بصوت كئيب كآبة غريبة.

نظر دانيال والأقرع إلى المنزل الغارق في العتمة، فرأيا الجانب الخلفيّ لسيّارة الأميركيّ السوداء يلمع خلف زاوية المبنى، وكانت السيّارة تصدر ضجيجًا أقلّ من السيّارة التي أتى بها في المرّة الأولى إلى الوادي. ارتعشت شفتا خيرمان الأقرع وهو يقول ملحًّا:

– انزل بسرعة. لا بدّ أنها هي.

همّ دانيال البوم وخيرمان الأقرع بالتحرّك وكلّ منهما محنيّ القامة ليتمكّن من حمل كومة التفّاح بين ذراعيه. وخشي دانيال البوم خشية

شديدة من أن يتمكّن أحد من مداهمته وهو على هذه الحال، فأيّد الأقرع بحرارة وقال:

– هيّا يا بعر، انزل؛ فقد صار لدينا ما يكفي من التفّاح.

ذهب الخوف بسكينتهم، فاضطرب صوت دانيال البوم، وصارت نبرته أعلى من مجرّد الهمس. أمّا روكي البعر فقد داس على أحد الأغصان لمّا حاول النزول عن الشجرة مندفعًا، فانكسر تحت تأثير ثقله، ودوّت طقطقته مثل طلق ناريّ في ذلك الجوّ الساكن الذي يخيّم عليه الهمس والحفيف. وهكذا أخذ اضطرابهم يزداد:

– انتبه يا بعر!

– هيّا، سوف أخرج من هنا.

– اللعنة!

– جبان من يجتاز السور أوّلًا!

يصعبُ تحديد المكان الذي خرج منه الشبح عليهم، إلّا أنّ دانيال البوم صار منذ ذلك اليوم يميل للاعتقاد بالساحرات والعفاريت والجنّ؛ فقد انتصبت أمامهم ميكا بقدّها الممشوق، الرشيق، مكتسية ببدلة بيضاء مثيرة للرهبة. وكانت هيأتها وسط الظلام الدامس كهيئة كائن هبط من السماء، أو شيئًا شبيهًا بقمّة جبل راندو، لكنّه أكثر غموضًا وإبهامًا.

قالت: – أنتم مَن تسرقون التفاح إذًا!

ترك دانيال البوم وخيرمان الأقرع الثمار تتساقط من بين أيديهما على الأرض، واحدة تلو الأخرى، فقد استولى عليهما الذهول. وكانت ميكا تكلّمهم من دون تكلّف ولا تصنّع في نبرة صوتها:

– هل تحبّون التفاح؟

أجابها دانيال البوم خائفًا، فسرى صوته في الأثير مرتعشًا لحظةً:

– نـ... نـ... نعم.

ضحكت ميكا ضحكة خافتةً، بدت في تقطّعها كأنّها نابعة من رضى قابع في أعماق نفسها، ثمّ قالت:

– حسنًا، فليأخذ كلّ منكم تفّاحتين ويتبعني.

امتثَلوا لأوامرها ومشى الأربعة باتجاه الرواق المحيط بالمنزل؛ ولمّا بلغوه أدارت ميكا مفتاح الكهرباء المتواري خلف أحد الأعمدة، فأُضِيءَ المكان. سُرّ دانيال البوم لأنّ العمود أشفق لحاله وحجب عن وجهه المكتئب نور المصباح. أمّا ميكا فبدت حائرة في أمرها وعادت تضحك من جديد بعفويّة، فأحسّ دانيال البوم بالخوف من أن تُقدِم ميكا على تسليمه، هو ورفيقيه، إلى الشرطة.

لم يسبق قطّ لدانيال البوم أن رأى ابنة الأميركيّ عن قرب مثل هذه المرّة، فأخذ بهاء وجهها وجمال قوامها يُنسِيانه للحظات الموقف المُحرج الذي ألفى نفسه فيه. وكذلك بهاء صوتها، فقد بدا مثل تغريد الحسّون، الناعم، العذب. كانت بشرتها سمراء، صافية، وعيناها غامقتين تظلّلهما رموش كالحة السواد؛ أمّا ذراعاها النحيلتان الغضّتان وساقاها الطويلتان الممشوقتان فقد اكتست بلون ذهبيّ كصدر ذَكَرِ الحَجَل. وإذا ما تنقّلت ماشية، أوحت خفّة حركاتها بقدرتها على أن تطير وتتبدّد في الفضاء، تمامًا مثل فقاعة من الصابون.

قالت فجأة: – حسنا، أنتم الثلاثة لصوص صغار إذًا!

أقرّ دانيال البوم في نفسه أنّ بوسعه أن يمضي عمره كلّه في سماعها وهي تصفه باللصّ الصغير، من دون أن يكلّ أو يملّ. فأن تقول عنه «لصّ صغير» كان في نظره تمامًا بمثابة مداعبتها لخدّيه بيديها الصغيرتين، الناعمتين، الرقيقتين.

استلقت ميكا على كرسي طويل، فبرزت معالم قوامها. ثمّ قالت:

– هذه المرّة لن أعاقبكم وسوف أترككم تذهبون مثلما أتيتم. ولكن

أريد منكم أن تعدوني بأن تطلبوا التفّاح مني إن رغبتم بالحصول عليه في المستقبل، وألّا تقفزوا عن السور خلسة مثل اللصوص.

ونظرت إليهم واحدًا تلو الآخر، فأومأوا جميعًا برؤوسهم موافقين.

وختمت حديثها بالقول: والآن يمكنكم الذهاب.

خرج الأصدقاء الثلاثة بصمت من البوّابة إلى الطريق وساروا بضع خطوات من دون أن يتبادلوا الكلام. كان صمتهم ثقيلًا ومطبِقًا، فرضه إدراكهم العميق بأنّهم لم يكونوا أحرارًا طلقاء بفضل مهارتهم وشطارتهم، إنّما بفضل عفو الآخرين وصفحهم عنهم. وفي هذا ما يثير في النفس بعض الخيبة دائمًا، لا سيّما لدى الأطفال.

نظر روكي البعر إلى دانيال البوم شزرًا، وكان هذا يمشي فاغر الفم، شارد النظرات، كما لو أنه غارقٌ في حالة من النشوة. فهزّه البعر من ذراعه وقال:

- ما بك يا بوم؟ أراك كالمشدوه!

ومن دون أن ينتظر منه جوابًا، رمى بتفّاحتَيه بكلّ قوّته صوب شبحين داكنين، غامضي المعالم، كانا يرعيان بسلام في مروج مزرعة الصيدلانيّ.

الفصل العاشر

كانت صداقة دانيال البوم لروكي البعر تُرغمه أحيانًا على أن يتمادى في جرأته ويضع شجاعته على المحكّ. وما زاد الطين بلّة أنّ البعر يرى أنّ شجاعة أيّ امرئ يمكنها أن تتبدّل بين ليلة وضحاها، مثل المطر أو الريح؛ فقد يكون شجاعًا اليوم وجبانًا غدًا، أو بالعكس؛ ولا شيء يحدّد شجاعته فعلًا إلّا موافقته على القيام بالمغامرات نفسها التي يقوم بها البعر يوميًّا، أو عزوفه عنها.

- جبانٌ من لا يفعل ما أفعله، هكذا كان البعر يهدّد دانيال البوم وخيرمان الأقرع، المرّة تلو الأخرى.

فكانا يجدان نفسيهما مرغمَين على اجتياز الجسر مشيًا على حافّته -عرضها خمسة عشر سنتمترًا- أو الاستسلام لماء نهر التشورّو الهادر والغرق فيه، ليعاودا الظهور في بركة الإنكليزيّ، مدفوعَين إليها بقوّة تيّار الأعماق، أو الدخول في النفق وملاقاة قطار الإقليم.

ومن جهة أخرى، ما كان ينبغي لدانيال البوم أن يبالغ في إرغام نفسه على تقليد البعر في مغامراته، ذلك أنّه كثيرًا ما كان يستيقظ مذعورًا في ساعة متأخّرة من الليل وهو يتشبّث بفراشه المتواضع متشنّجًا، ثمّ ينشرح صدره إذ يرى أنّه لا يغرق تحت الماء في نهر التشورّو، مثلما كان يحلم، ولا ينجرف تحت القطار المتأرجح يمينًا وشمالًا، ولا يهوي عن حافّة الجسر فيطير ويرتطم بالصخور؛ ويرى أيضًا أنّه بخير، فيرقد مرتاحًا في سريره المعدنيّ، ولا شيء يدعوه إلى الخوف أبدًا في تلك اللحظة.

وعلى ضوء ما يجري في الوادي أيّام الصحو، فإنّ الأيّام الماطرة كانت تنطوي على سلام غير معهود؛ وهي أيّام كثيرة، مهما يزعم بعضهم أنّ المناخ انقلب رأسًا على عقب منذ عدّة سنوات حتّى إنّ المراعي قلّت الآن -وهو ما لم يحدث قطّ- بسبب شحّ المياه. لم يكن دانيال البوم يعلم كم كانت تمطر سابقًا في الوادي، لكنّه يستطيع الجزم أنّها تمطر الآن كثيرًا، وبالتحديد ثلاثة أيّام من كلّ خمسة، وهو مقدار ليس بالقليل.

وإذا أمطرت السماء فإنّ معالم الوادي تتبدّل تبدّلًا ظاهرًا للعيان، إذ تكتسي الجبال بألوان داكنة مكفهرّة، تذوب في الضباب، فيما تتكشّف المروج عن خضرة برّاقة، صارخة، تكاد تكون موجعة. أمّا لهاث القطارات فيُسمع من مسافات أبعد من المعتاد، وتتقاذف الجبال صفيرها إلى أن يتبدّد متلاشيًا في الفضاء أصداءً تزداد بعدًا، ولا تلبث أن تتحوّل إلى رنين خافت يكاد لا يُسمع. وفي بعض الأحيان تتعلّق الغيوم بالجبال، فتَبرز قممها مثل جزر صغيرة معزولة وسط محيط رماديّ، هائج، متلاطم الأمواج.

في الصيف لم تكن العواصف تجد لنفسها سبيلًا للانصراف عن محيط الجبال، وفي بعض الأحيان لا تنفكّ السماء ترعد خلال ثلاثة أيّام متتالية.

إلّا أنّ القرية كانت مستعدّة لمثل هذه الحالات الطارئة، فمع أولى حبّات المطر تخرج الأحذية الخشبيّة فجأة، فتُسمع طقطقاتها الموزونة، الرتيبة، في الوادي كلّه وفي أيّ ساعة، ما دامت العاصفة مستمرّة. وعلى ما يرى دانيال البوم فإنّ الوادي لا يكتسب الملامح التي تلائمه إلّا في هذه الأيّام وفي أيّام الثلج الغزير أيضًا، أثناء أعياد الميلاد. فواديه هو وادي الأمطار والنداوة والحزن والكآبة، وإذا ما سطعت الشمس وانجلت الآفاق رحبة، زرقاء، تلاشى بهاء الخدر والنعاس اللذين يميّزانه.

وفي نظر الأصدقاء الثلاثة، كانت أيّام المطر تمثّل سحرًا خاصًّا لا مثيل له. فهي عندهم مناسَبة للتخطيط والتذكّر والإعداد، فأثناء تلك الأيام لا يبتكرون شيئًا، بل يجترّون الماضي، ولا يقومون بأيّ فعل، بل يتدرّبون ويتحضّرون. وكانت أحاديثهم التي تدور بصوت خفيض في مستودع تبن منزل البوم، تثير في نفسه ذكريات الشتاء الجميلة قرب الموقد، حينما كان أبوه يقصّ عليه حكاية النبيّ دانيال، أو حينما كانت أمّه تضحك لاعتقاده أنّ البقرة لا يمكن لها أن تدرّ الحليب إلّا إذا كانت مزوّدة بالجرار.

كان الأصدقاء الثلاثة يخطّطون لمغامراتهم وهم جالسون على الأرض المفروشة بالتبن، وقد بدا أمامهم الطريق العام وسكّة القطار من الكوّة المواجهة لهم.

وفي أحد تلك الأيّام وهم في مستودع التبن، تبيّن لدانيال البوم بجلاء مدى قوّة روكي البعر، واتّضحت له شدّة المرارة التي يعاني منها المرء إن خلا جسمه من ندبة تدلّ على بأسه. حدث ذلك في مساء صيفيّ، فيما المطر ينقر بعناد على السطح الأردوازيّ لمعمل الجبن، والوادي يرزح تحت وطأة سماء كئيبة، رماديّة.

إلّا أنّ البعر لم يكتف بإبهار البوم بمنظر عضلاته البارزة وحسب، بل قال له:

- انظر والمس بيدك! المس!

ثمّ ثنى ذراعه، فتحوّلت إلى كتلة ضخمة، متراصّة، من العضلات المفتولة والأوتار المشدودة. فمدّ دانيال البوم يده متردّدًا خجَلًا ومسّها بطرف إصبعه.

- قاسيةٌ، أليس كذلك؟

- بلى، إنّها كذلك.

- حسنًا، انظر هنا أيضًا.

ورفع سرواله المخمل حتّى فخذه، ثمّ شدّ عضلات ساقه فاكتسبت قساوة الهراوة.

- انظر؛ المسها، المسها!

ومن جديد امتدّت يد البوم، تتبعها يد الأقرع عن قرب، فتلمّس كلّ منهما بطرف إصبعه تلك الكتلة الهائلة من العضلات.

- إنّها أقسى من الذراع، أليس كذلك؟

- بلى، إنّها أقسى.

وبعدها كشف البعر عن صدره المنتفخ وجعلهما يتلمّسانه أيضًا، فأخذا يَعدّان حتّى المائتَيْن من دون أن يفرغ صدره هو من الهواء أو أنْ يُضطرّ لأخذ نَفَس من جديد. ثمّ طلب إليهما أن يجرّبا ذلك بنفسيهما، فلم يقوَ الأقرع على حبس أنفاسه أكثر من العدّ حتّى الأربعين، أمّا البوم فقد بلغ السبعين، إنّما بعد جهد جهيد احتقن منه وجهه وازرقّ.

ثمّ ما لبث البعر أن انبطح على بطنه، مسندًا راحتيه على الأرض، وبدأ يرفع جسمه ويخفضه مرّة تلو الأخرى. ولمّا بلغ المرّة الستّين توقّف وقال لهما:

- لم أتحلّ يومًا بالصبر لأرى كم مرّة أستطيع التحمّل. فأوّل من أمس بلغت الثلاثمائة وثماني وعشرين مرّة، ثمّ توقّفت لأنّني شعرت بالنعاس.

نظر البوم والأقرع إلى صديقهما ذاهلَيْن، فذلك التباهي يفوق كلّ تصوّراتهما عن مقدراته الجسديّة.

فجأة، قال مخاطبًا البوم: - هيّا، أرِنا كم تستطيع أنت التحمّل.

- حسنًا، ولكنّي لا أعرف... فأنا لَم أجرّب قطّ ذلك.

- هيّا، جرّب الآن.

- ولكن...

وانتهى الأمر بالبوم إلى أن ينبطح أرضًا ويحاول محاولته الأولى، لكنّ ذراعيه النحيلتين لم تكونا مُعدّتين لهذا التمرين، فأخذ جسمه كلّه يهتزّ مرتعشًا من هذا الجهد العضلي غير المألوف. رفع مؤخّرته أوّلًا ثمّ ظهره ثانيًا.

صاح بحماسة: - واحد.

ومن جديد سقط على الأرض بكلّ ثقله. فقال البعر:

- لا، ليس هكذا. إن رفعت مؤخّرتك أوّلًا، فليس للتمرين أيّ قيمة. وأنا بهذه الطريقة أستطيع القيام به مليون مرّة.

تخلّى البوم عن المحاولة الثانية، إذ شعر بالإحباط الشديد لأنّه خيّب ظنّ صديقه بعد كلّ هذا الجهد الكبير.

وبعد فشل البوم في أداء التمرين خيّم على المستودع الصمت والسكون. وعاد البعر يثني ذراعه مرّة تلو الأخرى، وصارت عضلاته تتراقص بارزة بمرونة. وبينما كان البوم ينظر إلى ذراع صديقه، خطر له أن يسأله:

- أنت تستطيع أن تتغلّب على بعض الرجال في العراك. أليس كذلك يا بعر؟

حينها لم يكن البعر قد تعارك بعد مع الطبّال وأوسعه ضربًا في المهرجان الشعبيّ، فابتسم معتدًّا بنفسه ثمّ قال موضحًا:

- ما من شكّ في أنّني قادر على قهر العديد من الرجال. فكثيرون منهم لا صلابة في أجسامهم إلّا في الجلد والعظام.

رفع الأقرع حاجبيه إعجابًا ودهشة، أمّا البوم فقد اتّكأ على كومة التبن مطمئنًّا، وهو يحسّ بقوةّ روكي البعر إلى جانبه تواسيه وتحميه. فصداقته كانت ضمانة أكيدة له، مهما تصرّ أمّه والفليفلة الكبرى والأرنبات على اعتبار رفقته له شرًّا أكيدًا.

ومثلما تنتهي دائمًا جلسات سمَرهم التي تدور أيّام المطر في مستودع تبن معمل الجبن، انتهت جلسة ذلك المساء بسجال حادّ دار بينهم.

كشف البعر عن ساقه اليسرى وأشار إلى ندبة دائريّة في فخذه، تجعّد مكانها ورقّ:

- انظرا الشكل الذي تتّخذه هذه الندبة اليوم. إنّ لها شكل الأرنب!

انحنى البوم والأقرع على ساق صديقهما ثمّ قالا موافقَيْن:

- فعلًا؛ إنّ لها شكل الأرنب.

اغتمّ البوم للمسار الذي اتّخذه الحديث، إذ كان يعلم أن تلك المقدمّة سوف تؤدّي بهم إلى جدال حول الندوب وآثار الجروح. ولم يكن يُخجله شيء، وهو في الثامنة من العمر، مثل خلوّ جسمه من أيّ ندبة يمكن له أن يتباهى بها أمام صديقَيْه. وكان على اسْتعداد لأن يتخلّى عن عشر سنوات من عمره مقابل أن يتبقّع جلده بندبة ما، ويا حبّذا لو كانت كبيرة الحجم؛ فغياب الندوب من جسمه يدفع للاعتقاد بأنّه أقلّ رجولة من صديقَيْه، لأنّ كليهما لديه العديد منها. وكان هذا الوهم يملأ نفسه بشعور غريب بالنقص، يسبّب له القلق. والواقع أنْ لا حول له ولا قوّة في أن تتميّز أنسجة جسمه بسهولة الالتحام أكثر من البعر والأقرع، ولا في أن تلتئم جروحه دائمًا من دون أن تترك أيّ أثر على جلده. إلّا أنّه لم يكن يفهم الأمور على هذا النحو، بل كان يعتقد بأنّ نعومة جسمه وخلوّه من التجاعيد مصيبة، ويرى أنّ الرجل من دون ندوب على جلده مثل فتاة مسكينة، مطيعة. والحقّ أنّه لم يكن يرغب في ندبة كبيرة مثل ندوب المعارك ولا في أيّ شيء من هذا القبيل، بل كان راضيًا في أن تكون على جسمه ندبة ما، ناتجة عن أيّ حادث أو أيّ طارئ آخر، المهمّ أن تكون ندبة وحسب.

كانوا جميعًا يعرفون قصّة ندبة روكي البعر عن ظهر قلب، فلقد وقعت منذ خمس سنوات أثناء الحرب. وكان دانيال البوم يكاد لا يتذكّر شيئًا من تلك الحرب، باستثناء صور غامضة عن هدير الطائرات وهي تمرّ فوق رأسه، ودويّ القنابل المدمّرة وهي تنفجر بحدّة في المروج. وإذا ما حلّقت الطائرات في سماء الوادي، هَرَعَ سكّانه أجمعين قاصدين الأحراش للاحتماء بها، وقد تشبّثت الأمّهات بالأبناء، وأخذ الآباء يحثّون الماشية على الإسراع وهم يضربونها بالعصيّ حتّى تسيل منها الدماء.

في تلك الأيّام، كانت سارة أيضًا تهرب إلى الأحراش ممسكة بروكي البعر من يده، لكنّه لم يكن يحسّ بالخوف من الطائرات ولا من القنابل. وكان يركض لأنّه يرى الجميع يركضون، ولأنّه يستمتع بقضاء الوقت هكذا، بلا معنى، والكلّ مجتمعون من حوله، متشبّثون بأمكنتهم، ومعهم أثاث المنازل والماشية مثل جماعة من الغجر. حينها، كان عمر روكي البعر ستّ سنوات.

في بدايات الحرب، كانت نواقيس الكنيسة تعلن زوال الخطر بثلاث دقّات غليظة تتبعها دقّتان حادّتان. إلّا أنّها انتُزِعتْ من مكانها لاحقًا لتُصْهَرَ، فظلّت القرية بلا نواقيس حتّى اليوم الذي انتهت فيه الحرب، فتبرّع دونْ أنطونيو، الماركيز، للكنيسة بناقوس جديد. في ذلك اليوم أقام أهل القرية احتفالًا عظيمًا تكريمًا للمتبرّع، ألقى خلاله الخوريّ كلمة، وكذلك فعل أنطونيو الكِرش، إذ كان يشغل منصب العمدة. وفي الختام تقدّم دون أنطونيو، الماركيز، إلى الجميع بالشكر، وهو يتحدّث بصوت متهدّج. وفي المحصّلة، لم يكن لأيّ من الكلمات أهميّة تُذكر، فقد استغرق كلٌّ من الخوريّ والعمدة نصف ساعة من الوقت لتوجيه الشكر إلى دونْ أنطونيو الماركيز على تبرّعه بالناقوس؛ ثمّ تحدّث

بعدهما دونْ أنطونيو، الماركيز، لأكثر من نصف ساعة أخرى، لم يقل خلالها شيئًا سوى الردّ عليهما بكلمات الشكر أيضًا. وهكذا جرى الاحتفال كلّه في جوّ من المبالغة في الودّ والمجاملة والاحترام.

أمّا جرح روكي البعر فقد نجم عن إصابته بشظيّة من قنبلة انفجرت في أحد الحقول فيما كان يعدو ذات صباح صيفيّ، هاربًا إلى الأحراش برفقة سارة. ويقول بعض من يدّعون المعرفة، إنّ الحادث نجم عن قنبلة ألقتها إحدى الطائرات جزافًا كي «تخفّف من حمولتها». إلّا أنّ البعر يشكّك في ذلك ويقول إنّ الحمولة التي أرادت الطائرة تخفيفها كانت هو شخصيًّا. مع ذلك، فإنّه يشكر الطيّار على ذلك الوسام الذي سوّاه له من لحمه الممزّق، وخلّفه على جلده.

ظلّ الأصدقاء الثلاثة يحدّقون في الندبة التي اتّخذت شكل الأرنب. غير أنّ روكي البعر انحنى فجأة عليها ولحسها بطرف لسانه. وبعد أن تمطّق به قليلًا، قال مؤكّدًا:

- لا يزال طعمها مالحًا. ولوكاس الأبتر يقول إنّ السبب هو الحديد؛ فالجروح الناجمة عنه لها طعم مالح دائمًا. ومكان جرحه هو شخصيًّا لا يزال مالحَ الطعم حتى الآن، وكذلك مكان جرح كينو الأبتر. لكنّ هذا الطعم يزول لاحقًا، بمرور السنوات.

استمع دانيال البوم وخيرمان الأقرع إليه بارتياب، فلاحظ روكي البعر تشكيكهما في كلامه وقرّب ساقه منهما وهو يدعوهما قائلًا:

- جرّبا بأنفسكما وستريان أنّي لا أخدعكما.

تبادل البوم والأقرع بعض النظرات المتردّدة، ثمّ انحنى البوم أخيرًا على ساق البعر ولحس الندبة بطرف لسانه.

فقال مؤكدًا: - أجل؛ إنّ طعمها مالح.

ثمّ انحنى الأقرع ولحس الندبة أيضًا، فهزّ رأسه موافقًا وقال:

- فعلًا، إنّ طعمها مالح، لكنّ ذلك ليس بسبب الحديد، إنّما بسبب العرق. جرّبا أن تلحسا أذني وستريان أنّها مالحة أيضًا.

أثار الأمر فضول دانيال البوم فاقترب من الأقرع ولحس شحمة أذنه المشرومة.

- فعلًا إنّها مالحة أيضًا.

- قال البعر مشكّكًا: - هاتِ لأرى!

ثمّ مصّ شحمة أذن الأقرع بنهم الرضيع وتلذّذه، رغبة منه في إنهاء الخلاف. ولمّا انتهى، بدت على وجهه علائم خيبة أمل كبيرة.

- صحيحٌ أنّها مالحة، لكنّ ذلك لأنّك جُرحت بأسلاك السياج المعدنيّة، لا بشوك توت العلّيق كما تظنّ.

انتفض الأقرع غاضبًا: - لا، لقد شُرِمَتْ أذني بشوكة من أشواك توت العلّيق، وأنا على يقين من ذلك.

- هذا ما تعتقده أنت.

لم يشأ الأقرع أن يستسلم لما قاله البعر، فطأطأ رأسه حتّى صار على مستوى فم كلّ من صديقيه وقال بعناد:

- وماذا عن قرَعي؟ فطعمه مالح أيضًا، ولم أُصب قطّ به من الحديد، بل جاءني عدوى من أحد الطيور.

تبادل البعر والبوم نظرات الذهول ثمّ انحنيا على رأس خيرمان الداكن الشعر، ولَحَسَ كلٌّ منهما بؤر القرَع التي في رأسه، واحدة تلو الأخرى، فأقرّ دانيال البوم في الحال:

- حقًّا، إنّها مالحة.

شقّ على روكي البعر أن يُهزَم في هذا الجدال، فقال:

- لكنّ ما هو في رأسك قرَع وليس ندوبًا، وشتّان ما بين القرع والندوب. وأنت لم تُصَبْ بأيّ جرح في رأسك، وبذا فإنّ ملوحة قرَعك لا علاقة لها بما أقول.

بدأ الضوء المنسلّ من كوّة مستودع التبن يذوي، وشرع الوادي يكتسي حلّة شاحبة حزينة، وما انفكّ الأصدقاء الثلاثة يتجادلون في ما بينهم من دون أن يلحظوا أنّ الليل يهبط عليهم، وأنّ المطر لا يزال ينقر بحبّاته على السطح الأردوازيّ، وأنّ قطار الإقليم يتسلّق السكّة بمشقّة، وهو ينفث من حين إلى آخر زفرات من الدخان الأبيض، الكثيف؛ أمّا دانيال البوم فقد تملّكه شعور بالبؤس وهو يفكّر بأنّه محتاج لندبة لا يمتلكها، ولو امتلكها لاستطاع أن يتبيّن حقيقة ملوحة الندوب ويعرف إن كان سببها هو العرق كما يؤكّد الأقرع، أم الحديد كما يقول البعر ولوكاس الأبتر.

الفصل الحادي عشر

لم يعد روكي البعر ينظر بعين الإعجاب والتقدير إلى كينو الأبتر، لمّا علم أنّه بكى بكاء مرًّا يوم ماتت زوجته. فكينو الأبتر، إضافة إلى فَقْدِه يده كان قد فقد زوجته ماريوكا أيضًا. ولم يفقدها إلّا لأنّه لم يصغِ للآخرين الذين نبّهوه إلى خطورة وضعها؛ لا سيّما خوسيفا، فقد كانت مغرمة به، ولا تكفّ عن تذكيره بالأمر في كلّ مناسبة، وفي كثير من الأحيان بلا مناسبة.

– فكّر بأمر ماريوكا جيّدًا يا كينو وانظر إليها. إنّها مسلولة ولا أمل في شفائها.

وكان كينو يردّ عليها بغضب:

– وما علاقتكِ أنتِ بالموضوع، إن جاز لي أن أعرف؟

فتكظم خوسيفا غيظها وتتركه لأمره. وفي الليل تبكي وحيدة في غرفة نومها إلى أن تتبلّل المخدّة، ثمّ تُقسِم على ألّا تعاود التدخّل في هذه المسألة، لكنّها لا تلبث أن تنسى قَسَمَها في صباح اليوم التالي؛ ذلك أنّ إعجابها بكينو كان أكبر من قدرتها على الانسحاب من الميدان من دون أن ترمي آخر ما في جعبتها من سهام. كان كينو يُعجبها لأنّه رجل بحقٍّ، فهو قويّ البنية، جادٌّ، نزيهٌ، قويٌّ من دون أن يكون متوحّشًا مثل باكو الحدّاد؛ جادٌّ من دون أن يكون شكّاكًا مثل بانتشو الملحد؛ نزيهٌ من دون أن يصبح قدّيسًا مثلما كان دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه. وباختصار، كان رجلًا يجسّد الرصانة والاتّزان، لا يرتكب خطيئة ظلمًا أو تعسّفًا، ولا يزن إلّا بالقسطاس المستقيم.

الواقع أنّ كينو لم يكن يؤمن بوجود مرض السلّ. فالناس في نظره إمّا نِحاف أو سِمان. فماريوكا نحيفة مثل دونيا لولا ودونيا إيرينه والفليفلات وأندريه الإسكافيّ؛ وهو سمين مثل كوكو، مأمور المحطّة. لكنّ هذا لا يعني أنّ هؤلاء مرضى وأولئك أصحّاء. فالجميع كانوا يقولون عن ماريوكا منذ ولادتها إنّها مسلولة، مع ذلك ها هي ماثلة أمام أعينهم جميعًا، بأعوامها الثلاثة والعشرين، غضّة، نضرة، مثل زهرة.

لقد تودّد كينو إلى ماريوكا بإيحاءٍ من الآخرين، أكثر من حبّه لها. إذ كان ميله الطبيعيّ يدفعه إلى النساء البدينات، المثيرات بتقاطيع أجسادهنّ، الطافحات صحّةً، الموفورات عافيةً؛ وبالتحديد إلى النساء اللواتي يشبهن خوسيفا بصلابتها وبدانتها وتكوّرها. لكنّه حينما فكّر في الزواج نظر إلى الأمر بطريقة أخرى: «في المدينة، يتزوّج الأسياد المحترمون من نساء نحيفات، فلا بدّ إذًا أن يكون لهنّ سحرٌ ما حتّى يُقبِل عليهنّ هؤلاء المتعلّمون، أصحاب الكفاءات».

وهكذا تقرّب من ماريوكا لأنّها نحيفة، وبعد عدّة أيّام وقع في غرامها فعلًا، وأحبّها حبًّا أعمى لأنّ نظراتها حزينة ومستكينة مثل الحَمَل، ولأنّ بشرتها شفيفة، ضاربة إلى الزرقة، كالبورسلان. ثمّ حلّ التفاهم بينهما، فأُعجِبت ماريوكا به لأنّه كان نقيضها المتمّم لها: ضخم الجثّة، قويًّا، بدينًا، ذا عينين حادّتين ونظرات قاطعة مثل مِبضَع الجراح.

وحالما قرّر كينو الأبتر الزواج منها، طالَعه أهل القرية بأقوال السوء: «إنّ ماريوكا هزيلة»، «إنّ ماريوكا معلولة»، «إنّ السلّ شرّ رفيق». إلّا أنّ كينو أعرض عنهم جميعًا وحضر ذات صباح ربيعيّ مشرق إلى الكنيسة مرتديًا بأناقة بدلة من قماش أزرق، وقد عقد حول عنقه منديلًا أبيض. فكلّل دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، العروسين وبارك زواجهما. وألبست ماريوكا عروسها خاتم الزواج في بِنْصَر يده اليسرى، لأنّ يُمْناه مبتورة.

ولم تُفلح خوسيفا، رغم كلّ شيء، في أن تُفسد على كينو الأبتر شهر العسل. فقد عزمت على أن تجعل من ظلال نكبتها كابوسًا يُثقل على وجدانه مدى الحياة، لكنّها أخفقت في مسعاها.

ففي الكنيسة، وأثناء الإعلان الأوليّ عن زواج العروسين، هبّت خوسيفا كالنمرة صارخة، وهي تركض صوب مذبح القدّيس روكي، طالبة إليه أن يشهد على بطلان زواج كينو من عروسه، لأنّها مسلولة. ساد في المعبد بدايةً بعض الهرج والمرج، ثمّ خيّم على الجوّ صمت مطبق، ما بعده صمت. لكنّ دونْ خوسيه كان أدرى منها بموانع الزواج وبالقانون الكنسيّ عمومًا، فقال:

- يا ابنتي، إنّ شريعة الربّ لا تمنع زواج المرضى. هل فهمتِ؟

أحسّت خوسيفا بالخذلان، فارتمت على درجات المذبح، وشرعت تبكي كالمجنونة وهي تشدّ شعرها بيديها وتستجدي عطف الحاضرين. فراح الجميع يواسونها، إلّا أنّه كان من العسير عليهم أن يأتوها في الحال بكينو ثانٍ. أمّا الأبتر فقد أخذ يبتسم بإشفاق وهو جالس على أحد المقاعد الخلفيّة حيث يجلس الرجال، وطَفَقَ يُطبطب برفق على ذقنه بطرف ذراعه المبتورة. حتّى إذا رأت الفليفلةُ الكبرى دونْ خوسيه يقف مرتبكًا، لا يدري إلى أيّ من الجانبين يميل، تقدّمت نحو خوسيفا وأخرجتها من المعبد، ممسكة إيّاها برفق من إبطيها. (بعد ذلك، طالبت الفليفلة الكبرى أن يُقيم دونْ خوسيه، الخوريّ، قدّاسًا آخر خاصًّا بها لأنّ نشيد التقديس فاتها أثناء إخراجها خوسيفا من الكنيسة وانشغالها بها لحظات في الفناء الخارجيّ. ثمّ أخذت تؤكّد أنّها لن تقبل بأن يفوتها شيء من القدّاس لقيامها بعمل إنسانيّ، فليس ذلك من العدل بشيء ولا هو معقول ولا منطقيّ ولا أخلاقيّ، وأنّ ضميرها يؤنّبها لذلك تأنيبًا شديدًا، وأنّ هذه المرّة هي المرّة الأولى التي تشهد فيها ضياع القدّاس

عليها في حياتها كلّها... لكنّ دونْ خوسيه تمكّن بعد لَأْيٍ من تهدئتها وإعادة الطمأنينة إلى نفسها المضطربة). ثمّ استُؤنِف القدّاس بسرّ القربان المقدّس، وكأنّ شيئًا لم يحدث من قبل. وفي يوم الأحد التالي حضر الجميع قدّاس الإكليل الإلهيّ، حتّى بانتشو الملحد، إذ تسلّل خلسة إلى صفوف فرقة الإنشاد ووقف خلف الأرغن. وفي ذلك اليوم تلا دونْ خوسيه إعلان الزواج من دون أن يعكّر صفو الأجواء أيّ شيء سوى شهقة مخنوقة، صدرت من المقعد الذي جلست عليه خوسيفا، ولم يتلُها أيّ صوت آخر بعد. أمّا بانتشو الملحد فقد قال وهو يخرج من الكنيسة إنّ التقوى متاع رخيص لا يُسمِن ولا يُغني من جوع، وإنّ المرء لن يصل إلى أيّ نتيجة في هذه القرية، إن آمن بالربّ، ولذا فإنّه لن يطأ عتبة الكنيسة بعد.

إلّا أنّ الحادث الخطير فعلًا وقع يوم الزفاف، أثناء تقديم الشراب، حينما كان الجميع منشغلين عن خوسيفا ولا يفكّرون بها قطّ. ولا بدّ أنّ انشغالهم عنها كان السبب الذي دفعها لجذب الأنظار إليها بتلك الطريقة المروّعة. وعلى كلّ حال فإنّ ما جرى كان حادثًا مؤلمًا، يلفّه الغموض.

وصلت صرخة خوسيفا بوضوح حتّى فناء منزل كينو الأبتر حيث اجتمع المدعوّون، وكانت آتية من صوب الجسر، فالتفتوا جميعًا نحوه بأبصارهم؛ وهناك كانت خوسيفا عارية من ملابسها تمامًا، تقف على حافّة الجسر وقد يمّمت وجهها شطر النهر وهي تنظر إلى تيّاره العاتي بعينين جاحظتين. لم تفعل النسوة أيّ شيء لتجنّب وقوع الكارثة غير الصراخ، وقد اتّسعت حدقات عيونهنّ هلعًا وأخذن بالتساقط أرضًا مغشيًّا عليهنّ. أمّا الرجال فقد شرع اثنان منهم يركضان نحو خوسيفا لمنعها من إلقاء نفسها إلى النهر، بحسب زعمهما، لكنّ زوجتيهما زجرتهما وطلبتا إليهما أن يرجعا لأنّهما لا ترغبان في أن يريا خوسيفا

عن قرب وهي عارية تمامًا. وفي خضمّ هذه الفوضى، عادت خوسيفا وأطلقت صرخة من جديد، ثمّ رفعت ذراعيها إلى السماء وحملقت في الفراغ بعينين شاردتين وألقت بنفسها إلى تيّار نهر التشورّو المظلم.

هَرَعَ الجميع إلى عين المكان، ما خلا العروسين. وبعد قليل عاد القاضي إلى الحانة، وكان كينو الأبتر في هذه اللحظة يقول لماريوكا:

– إنّ خوسيفا هذه حمقاء تمامًا.

– كانت... حمقاء، قال القاضي مصحّحًا.

وهكذا علمت ماريوكا وكينو الأبتر أنّ خوسيفا انتحرت.

ولمّا حان موعد دفنها في المقبرة الصغيرة المجاورة للكنيسة، برزت بعض العقبات، ذلك أنّ دونْ خوسيه رفض بدايةً أن تُوارى الثرى فيها لأنّها ماتت منتحرة، ولم يوافق إلّا بعد استشارة أسقف الأبرشيّة، وبعد أن أتى الجواب أخيرًا من المدينة وحُلّت المسألة، باعتبار أنّ خوسيفا انتحرت، على ما يبدو، وهي في حالة من الجنون الطارئ.

إلّا أنّ شبح خوسيفا لم يتمكّن من تعكير صفو كينو في رحلة زواجه. فقد أمضى العروسان أسبوعًا في المدينة، ولمّا عادا إلى القرية، لم توفّر ماريوكا دقيقة واحدة من الوقت إلّا وأخبرت القاصي والداني خلالها أنّها حبلى.

– بهذه السرعة؟، سألتها الفطساء، مستغربةً كيف تحبل بعض النساء بمعاشرتهنّ أحد الرجال ليلة واحدة، وغيرهنّ لا يحبلن، وإن عاشرن رجالهنّ ليالي العمر كلّه.

قالت ماريوكا بارتباك: – عجبًا لك يا امرأة! وما الغريب في الأمر؟

فتمتمت الفطساء في سرّها بلفظة نابية وانصرفت.

لم يكن حمل المسكينة ماريوكا طبيعيًّا في تطوّره، ذلك أنّ وجهها

كان يَنحُل نحولًا يبعث على القلق، كلّما ازداد تكوّر بطنها. فبدأت النساء يتهامسن بأنّها لن تحتمل آلام المخاض.

كذّبتهنّ ماريوكا واحتملت تلك الآلام، لكنّها لم تتجاوز مصاعب النِّفاس وماتت مسلولة بعد أسبوع ونصف على وضعها وليدها، وقد وضعته بعد خمسة أشهر تمامًا على انتحار خوسيفا.

وحينها بدأت نساء القرية الفضوليّات يدركن سبب اندفاع ماريوكا في إعلان حملها حتّى قبل أن تترجّل من القطار الذي عادت فيه من المدينة.

وأمضى كينو الأبتر، على ما قيل، ليلته وحيدًا، حاملًا طفلته الوليدة بين ذراعيه وهو يبكي إلى جانب جثمان المرحومة، ويداعب على استحياء، بما تبقّى له من ذراعه اليمنى، خصل شعرها الشقراء، المسترسلة، الساكنة.

ولمّا علمت الفليفلة الكبرى بالكارثة، علّقت قائلة:

- إنّه عقاب الربّ لمن يأكل الطبيخ قبل موعده.

وكانت تشير في قولها هذا إلى ولادة ماريوكا المُبكّرة، لكنّ مشرفة منزل دونْ أنطونيو، الماركيز، كانت محقّة حين قالت إنّ ذلك ليس عقابًا من الربّ، لأنّ إيرينه، الفليفلة الصغرى، لم تأكل الطبيخ قبل موعده وحسب، إنّما أكلته وأكثرت منه، ولم يصبها أيّ مكروه.

آنذاك، لم يكن لدانيال البوم من العمر سوى سنتين، ولا لروكي البعر سوى أربع. وبعد خمس سنوات بدآ يتردّدان على حانة كينو الأبتر وهما راجعان من السباحة في بركة الإنكليزيّ، أو من صيد السرطانات والأسماك الصغيرة. كان الأبتر شديد السخاء نحوهما، فيقدّم لكلّ منهما كأسًا كبيرة من عصير التفاح المحفوظ في البراميل مقابل خمسة سنتات فقط. لكنّ حال الحانة آنذاك كان في تدهور، إذ إنّ الأبتر يعيد الفواتير المستحقّة عليه إلى مرسليها من دون سداد، فيكفّ الموزّعون عن تزويده

بالمواد اللازمة للحانة. كفِله خيراردو الأميركيّ عدة مرّات، لكنّه تركه يواجه مصيره بعد بضعة أشهر، لمّا لاحظ أنْ لا رغبة لديه في أن يتغيّر. ثمّ بدأ حال الأبتر يزداد سوءًا ويتدهور أكثر، إلّا أنّه لم يتخلّ عن حبِّه للثرثرة والكلام، وما انفكّ يقدّم للزبائن ما تيسّر له من القليل الذي ظلّ لديه.

اعتاد روكي البعر وخيرمان الأقرع ودانيال البوم أن يجالسوا كينو على المقعد الحجريّ المجاور للطريق، ويسامرونه. وكان كينو يفضّل مسامرة الأطفال على مسامرة الكبار، ربّما لأنّه في سريرته طفل كبير أيضًا. وأحيانًا، كان اسم ماريوكا يَرِدُ أثناء الحديث، فتغرورق لذكرها عيناه بالدموع، لكنّه لا يلبث أن يحاول إخفاء تأثّره، فيلطم ذقنه بما تبقّى له من ذراعه مرّات ومرّات. بيد أنّ روكي البعر لا يطيق الدموع والعواطف الجيّاشة، فكان في مثل هذه المواقف ينهض من دون أن يتفوّه بحرف، ثمّ ينصرف ووراءه صديقاه، يقتفيان أَثَرَهُ؛ أما كينو الأبتر فيظلّ في مكانه ينظر إليهم بذهول، من دون أن يفهم أبدًا السبب الذي يحملهم على تركه فجأة، بلا عذر.

لم يحدث قطّ أن تبجّح كينو الأبتر مرّة وقال أمام الأولاد الثلاثة إنّ امرأة انتحرت عارية من أجله. بل إنّه لم يشِر في حضورهم إطلاقًا إلى تلك الواقعة التي مرّت في حياته. ولم يسمع دانيال البوم وصديقاه أنّ خوسيفا ألقت بنفسها إلى النهر عن حافّة الجسر وهي عارية تمامًا، إلّا عن طريق باكو الحدّاد، إذ لم يكن يخفي إعجابه بها، بل ويقول لو أنّها طاوعته لكانت الآن الأمّ الثانية لروكي البعر. لكنّها فضّلت الموت على أن تنعم بصدره العريض وشعره الأصهب، ونالت ما أرادت.

وأيّام كان كينو الأبتر يقدّم لزبائن الحانة كأسًا كبيرة من عصير التفّاح المحفوظ في البراميل مقابل خمسة سنتات فقط، كان أكثر ما

يُثير فضول الأصدقاء الثلاثة توقهم لمعرفة السبب الذي أدّى به إلى فقدان يده. وكان لذلك حكاية بسيطة رواها لهم كينو ذات مرّة:

– كان أخي وراء ذلك. وكان حطّابًا يفوز دائمًا بالمركز الأوّل في مسابقات تقطيع جذوع الأشجار، إذ يقطع أيّ جذع مهما يبدو غليظًا، ببضع دقائق، وقبل الآخرين. وكان يرغب في أن يصبح ملاكمًا.

وازدادت شهيّة الأولاد لسماعه عند ذكر رغبة أخيه. ثمّ استأنف كلامه قائلًا: مكتبة سُر مَن قرأ

– بالطبع، إنّ ذلك لم يحدث هنا، إنّما في بيثكايا، منذ خمسة عشر عامًا. وبيثكايا هذه ليست بعيدة من هنا، فهي هناك وراء هذه الجبال، وأشار إلى قمّة جبل راندو المكلّلة بالضباب. ففي بيثكايا ما من رجل إلّا ويرغب في أن يكون قويًّا، وكُثُرٌ منهم كانوا كذلك فعلًا. لكنّ أخي كان أقواهم في القرية، ولذا أراد أن يصبح ملاكمًا، فقد كان متفوّقًا عليهم جميعًا. وذات يوم، قال لي: «امسك بهذا الجذع يا كينو، فسوف أقطعه بأربع ضربات من فأسي». كان ما قاله مجرّد كلام، فهو يطلب إليّ دائمًا أن أفعل هذا، لكنّه لم يقطع يومًا أيّ جذع بأربع ضربات. في ذلك اليوم أمسكت له الجذع بثبات، لكنّي قدّمت يدي قليلًا كي أركّز له مكان الضربة، وكان ذلك في اللحظة التي هوت فيها الفأس صاعقة: «طاخ!» –فبدت على وجوه الأولاد الثلاثة حينها علامات التأثّر نفسها؛ وأخذ كينو الأبتر ينظر بحنان إلى ذراعه المبتورة ويبتسم– ثمّ أردف قائلًا: «وطارت يدي إلى مسافة بلغت الأربعة أمتار، كأنّها فِلْقة من الجذع. ولمّا قمت لآخذها بنفسي، كانت لا تزال ساخنة، والأصابع فيها تتلوّى من تلقاء نفسها بتوتّر، مثل ذيل الضبّ».

سأله البعر وهو يرتجف:

– أَ...أَ... أيزعجك أن تُريني عن قرب ذراعك المبتورة؟

فمدّ كينو ذراعه وهو يبتسم وقال موافقًا:

- أبدًا. على العكس.

فاندفع الأولاد الثلاثة بطيب موافقته وعاينوا ذراعه المبتورة مرارًا وتكرارًا، ثمّ تلمّسوها بأصابعهم ودسّوا أظافرهم المتّسخة في أخاديد لحمه، وأخذ كلّ منهم يشير إلى الآخر على أخدود فيه، وأخيرًا تركوا الذراع المبتورة على الطاولة الحجريّة كما لو أنّها شيء صار عديم النفع.

حملت الوليدة اسم ماريوكا مثل أمّها، وترعرعت على حليب الماعز، وكان كينو بنفسه يحضّر لها زجاجات الرضاعة إلى أن أتمّت عامها الأوّل. ولمّا لمَّحَتْ جدّتها لأمّها ذات مرّة إلى استعدادها لأن تَكفلها وتربّيها، لأنّها حفيدتها، أحسّ كينو الأبتر بالإهانة من حماته وغضب منها حتّى إنّه قاطعها، ولم يعد أيّ منهما يكلّم الآخر. ويؤكّد أهل القرية أنّ كينو كان قد قطع على نفسه عهدًا أمام المرحومة ألّا يترك الوليدة بين أيد غريبة وإن اضطرّ إلى إرضاعها من صدره هو. وكان دانيال البوم يرى في هذا الكلام مبالغة وغلوًّا واضحَيْن.

كان الجميع، باستثناء دانيال البوم، يحبّون ماريوكا أوكا، كما صارت تُنادى في القرية، إشارةً إلى أنّها من خلفة المرحومة ماريوكا. كانت طفلة زرقاء العينين، ذهبيّة الشعر، يملأ النمش أعلى وجهها؛ وقد تعرّف دانيال عليها مُبكّرًا جدًّا، حتّى إنّ ذكراهُ الأولى عن طفولتها المُبكّرة تلاشت من مخيّلته ولم يعد يتذكّرها. لكنّه لا ينسى كيف صارت في ما بعد طفلة صغيرة لا يتجاوز عمرها الأربع سنوات، تطوف لاهية أيّام الأعياد بالقرب من معمل الجبن.

كانت ماريوكا أوكا توقظ في نفس أمّ دانيال البوم غريزة الأمومة التي فقدتها مُبكّرًا، وكانت تتمنّى أن تُرزَق ببنت مثلها، حتّى وإن امتلأ

وجهها بالنمش. لكنّ ذلك لم يعد ممكنًا، فدونْ ريكاردو، الطبيب، قال لها إنّ رحمها يبس بعد الإجهاض، وهو الآن يشيخ مع الزمن ولا أمل لها في تحقيق حلمها. كانت أمّ دانيال تحسّ بانجذاب كبير إلى البنت اليتيمة، وكأنّها بنتها؛ وحينما تراها تتسكّع على مقربة من معمل الجبن، تُناديها وتُجلِسها على الطاولة.

تقول لها وهي تداعبها: - ماريوكا أوكا، يا بنيّتي! لا بدّ وأنّك راغبة في قليل من اللبن المحلّى. أليس كذلك؟

وتردّ الصغيرة موافقة، فتقدّم لها أمّ البوم اللبن بعناية.

- هل فيه ما يكفي من السكّر يا صغيرتي؟ أيُعجبك؟

فتومئ الصغيرة برأسها موافقة من دون أن تنبس ببنت شفة. وعندما تنتهي من تناول اللبن، تبدأ أمّ دانيال بسؤالها عن تفاصيل حياتها المنزليّة:

- ماريوكا أوكا يا صغيرتي، من يغسل لك ثيابك؟

فتبتسم الصغيرة وتقول:

- أبي.

- ومن يعدّ لك طعامك؟

- أبي.

- ومن يسرّح لكِ شعرك ويسوّي ضفائرك؟

- أبي.

- ومن يغسل لك وجهك وينظّف أذنيك؟

- لا أحد.

وتتأسّى أمّ دانيال البوم لحالها، فتنهض وتصبّ الماء في الطَّشت وتغسل لها أذنيها ثمّ تسرّح لها شعرها بعناية وتسوّي لها ضفائرها، وهي تردّد متمتمة: «يا للبنت المسكينة. يا للبنت المسكينة. يا للبنت المسكينة...».

وحينما تنتهي من الاعتناء بها، تضربها براحة كفّها على قفاها وتقول لها:

- آه يا بنيّتي، لو ترين ما أحلاكِ هكذا!

وترتسم على شفتَيْ البنت ابتسامة خفيفة، فتأخذها أمّ دانيال بين ذراعيها وتُمطر وجنتيها بالقبل بجنون.

ويبدو للوهلة الأولى أنّ هذا الحنان المفرط الذي تمنحه أمّ دانيال البوم لماريوكا أوكا كان يثير الغيرة في نفس ابنها، ويدفعه إلى النفور منها واستهجانها. لكنّ الأمر ليس كذلك أبدًا، فما كان يثير سخطه من ماريوكا أوكا هو مَيْلها إلى حشر أنفها في كلّ مسألة، ورغبتها في التدخّل فعلًا في أمور لا تليق بالبنات ولا تعنيهنّ.

صحيحٌ أنّ ماريوكا أوكا كانت تنعم بحرّيّة واسعة الحدود تُحسد عليها، لكنّها تبقى بنتًا في نهاية المطاف، والبنات لا يمكنهنّ أن يفعلن ما يفعله الصبيان، ولا هم يمكنهم أن يتحدّثوا أمامهنّ عن «تلك الأشياء»، فليس ذلك من اللباقة أو اللياقة بشيء. أمّا مسألة تعلّق أمّه بماريوكا أوكا ودعوتها لها لتناول اللبن المحلّى أيام الآحاد والأعياد، فما كانت تعنيه أبدًا؛ لكنّ ما يعنيه فيها ويغيظه حقًّا كان نظراتها الدائمة إلى وجهه، وتوقها لمعرفة مُجريات حياته اليوميّة كلّها.

- إلى أين أنت ذاهب اليوم يا بوم؟

- إلى الجحيم. هل تتبعينني؟

تجيب البنت من دون تفكير في ما تقول: - نعم أتبعك.

ويضحك روكي البعر وخيرمان الأقرع ثمّ يقولان له مناكفَيْن إنّ أوكا أوكا مغرمة به.وذات يوم أراد دانيال البوم أن يتخلّص منها، فأعطاها قطعة نقديّة صغيرة وقال لها:

- أوكا أوكا، خذي هذه السنتات العشرة واذهبي إلى الصيدليّة، واسألي الصيدلانيّ كم يبلغ وزني.

ثمّ ذهب الصبيان الثلاثة إلى الجبل، ولمّا عادوا بعد حلول الظلام، كانت ماريوكا أوكا جالسة على باب معمل الجبن، تنتظرهم بفارغ الصبر. فنهضت لمّا رأتهم واقتربت من دانيال البوم وأعادت له قطعة النقود.

قالت: – يا بوم، يقول الصيدلانيّ إنّه لا بدّ من حضورك شخصيًّا كي يتمكّن من معرفة وزنك.

فأخذ الأصدقاء الثلاثة يضحكون وقد غُشِيَ عليهم، فيما كانت البنت تنظر إليهم بعينيها الزرقاوين الحادّتين من دون أن يبدو عليها، في غالب الظنّ، أنّها تفهم سبب ضحكهم.

وفي بعض الأحيان كانت أوكا أوكا تلجأ إلى كلّ ما لديها من الحيل كي تتمكّن من مرافقة البوم إلى المكان الذي يذهب إليه.

وذات مساء التقى الاثنان وحدهما مصادفة في الطريق.

قالت البنت: يا بوم، أعرف مكانًا يعشّش فيه الزرياب وفراخه المُزغبة الريش.

– دلّيني أين هو.

– تعال معي، أدلّكَ عليه.

وذهب البوم هذه المرّة مع البنت، وفي الطريق لم ترفع عينيها عنه لحظة. آنذاك، لم يكن عمرها أكثر من تسع سنوات، مع ذلك فقد أحسّ البوم بنظراتها تخز لحمه كالمخارز.

سألها: – أوكا أوكا، لماذا تنظرين إليّ هكذا، بحقّ الشيطان؟

أحسّتْ بالخجل، لكنّها لم تحِد بنظرها عنه.

أجابت: يُعجبني منظرك.

– لا تنظري إليّ. أَتسمعين؟

لكنّ البنت لم تصغِ إلى ما قال ولم تُعِرْه انتباهًا.

فقال بإلحاح: - قلت لكِ ألّا تنظري إليّ. أما سمعتِ؟

وحينها خفضت البنت عينيها عنه.

سألته: - أَصحيح يا بوم أنّك معجب بميكا؟

احمرّ وجه البوم، وتردّد لحظة، إذ أحسّ بفوران غريب في رأسه. ولم يعدْ يعرف هل من الأنسب له أن يستسلم للغضب في مثل هذه الحالة، أم إنّه، على العكس، عليه أن يهدّئ نفسه ويبتسم. إلّا أنّ الدم ظلّ يفور في رأسه، ولم يطل تردّده واستولى عليه الغضب، لكنّه سرعان ما كبح جماحه متظاهرًا بتعثّره في القفز عن سياج أحد الحقول.

- وما علاقتكِ أنتِ إن أعجبتني ميكا أم لا.

فردّت أوكا أوكا بصوت خفيض:

- إنّها أكبر منك بعشر سنوات.

وتخاصما، فافترقا وتركها البوم وحيدة في أحد الحقول وعاد إلى القرية وقد نسي تمامًا عشّ الزرياب الذي ذهب من أجله معها. لكنّه لم يستطع نسيان كلماتها طوال الليل. ولمّا أوى إلى فراشه أحسّ بقلق غريب، لكنّه تمكّن من التغلّب عليه. ثمّ تذكّر وهو في السرير أنّ باكو الحدّاد روى له قصّة الفليفلة الصغرى ودونْ ديماس مرّات كثيرة، وكان دائمًا يبدأها هكذا: «النصّابُ، كان يصغرها بخمسة عشر عامًا...».

ابتسم البوم في العتمة، وتبادر إلى ذهنه أنّ القصّة قد تتكرّر مرّة أخرى، فنام وهو يشعر بسعادة وهناءة غريبتَيْن، تلفّانه بأطيافهما وتهدهدانه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني عشر

كتب إليهم الخال أوريليو، شقيق أمّه، رسالة من إكستريمادورا، وكان قد رحل إليها لإصابته بالربو ولأنّ الوادي لم يعد يناسب صحّته لرطوبة الجوّ فيه وقُربه من البحر. ففي إكستريمادورا كان المناخ أكثر جفافًا فصار حال الخال أفضل. هناك عمل بغّالًا في إحدى المزارع الكبيرة، من دون أن يتقاضى أجرًا كبيرًا، لكنّه كان يعيش في مسكن بالمجّان ويحصل على الفاكهة التي يريد من المزرعة بأسعار رخيصة. «في هذه الأيّام، لا يمكن للمرء أن يطلب أكثر من ذلك»، كتب إليهم في رسالته الأولى.

لم يتبقّ في ذاكرة دانيال البوم أيّ شيء عن خاله سوى ذكرى مبهمة عن لهاثه المخنوق، فهو لا يزال يسمع صوت تنفّسه وكأنّه قاطرة تصعد السكّة بمشقّة. كان الخال يضع الكمّادات على القسم العلوي من صدره ويستنشق دائمًا أبخرة ورق الكينا وهو في غرفته. مع ذلك، فإنّه لم يكن يتعافى من حشرجة الأنفاس إلّا في الصيف، خلال الخمسة عشر يومًا الأشدّ جفافًا.

في الرسالة الأخيرة التي أرسلها الخال إليهم، ذكر أنّه بعث إلى الصغير، دانيال، دوقًا كبيرًا كان قد أمسك به حيًّا في أحد حقول الزيتون. ارتعش دانيال وهو يقرأ الرسالة، ذلك أنّه تصوّر أنّ خاله أرسل له بالبريد دوقًا امتلأ صدره بالنياشين والميداليّات والأوسمة، مثل دونْ أنطونيو، الماركيز. ولم يكن يعلم أنّ الدوق بوسعه أن يسرح طليقًا في

الحقول، ولا أنّ بوسع البَغّال الإمساك به من دون عقاب، مثلما يُمسِك بالأرنب.

ضحك الأب من ابنه لمّا كشف له عن مخاوفه، إلا أنّ الابن فرح في دخيلته لأنّه أضحك أباه، ففي السنوات الأخيرة كان دائمًا عابس الوجه ولا يضحك حتّى وإن أتى الهنغار إلى ساحة القرية وقدّموا فيها عروضهم الكوميديّة ومسرح عرائسهم المتحرّكة. ولمّا كفّ الأب عن الضحك، قال له موضحًا:

- إنّ الدوق الكبير بوم ضخم. وهو طُعْمٌ لا مثيل له لجذب الحِداء وصيدها. وحالما يصلنا، آخذك معي في رحلة صيد إلى قمّة جبل راندو.

كانت تلك المرّة الأولى التي يَعِدُه فيها أبوه باصطحابه إلى الصيد، رغم أنّ ولع الابن بهذه الهواية لم يكن خافيًا على الأب.

في أوّل يوم من بداية موسم الصيد في كلّ عام، كان صانع الجبن يستقلّ القطار من القرية ويقصد منطقة قشتالة ليعود منها بعد يومين حاملًا أرنبًا برّيًّا وعددًا كبيرًا من الحِجلان، لا يجد بدًّا من تعليقها مثل القرط على نافذة مقصورته كي يراها الناس. ولم يكن يطلق النار على طيور السُّمَّان، إذ يقول إنّها لا تعادل ثمن الخرطوشة التي تُرمى بها، أمّا العصافير فإمّا أن تُصاد بالنُّقافة أو تُترك لتعيش. وبالفعل كان الأب يتركها لتعيش، أمّا دانيال البوم فيصطادها بالنُّقافة.

كان دانيال البوم يقصد محطّة القطار لملاقاة أبيه وهو عائد من رحلة الصيد في أوائل الخريف. وكان كوكو، مأمور المحطّة، يُعلِمه إن كان القطار على موعده أم إنّه سيتأخّر بعض الوقت. وعلى أيّ حال، فإنّ دانيال البوم كان يترصّد ظهور القاطرة عند المنعطف وهي تنفث الدخان في الأجواء، ويترقّبها بلهفة وفرح، وكان دائمًا يعرف مقصورة

أبيه من قرط الحِجلان المتدلّي من النافذة. وما إن يترجّل الأب من القطار ويقف إلى جانبه على الرصيف الضيّق، حتّى يسلّمه بندقيّة الصيد والخراطيش الفارغة. وكانت ثقة أبيه فيه بتسليمه البندقيّة تعني له الكثير، فيأخذها منه ويحملها بجدّيّة الصيّاد الحقيقيّ، مع أنّ وزنها يعادل وزنه، وزنادها يثير في نفسه فضولًا لا حدود له.

في ما بعد، لم يكن يفارق أباه وهو ينظّف البندقيّة ويُزيّتها؛ ولا ينفكّ يطرح عليه السؤال تلو السؤال. أمّا أبوه فكان يشبع فضوله بإجاباته أو لا يفعل، تبعًا لحالة مزاجه. وكلّما قلّد الأب صوت طيران الحجل، صاح: «فررر...»، حتّى إنّ دانيال اقتنع أخيرًا أنّ الحجلان إن طارت لا بدّ لها من أن تصدر هذا الصوت: «فررر...»، وإلّا لما تمكّنت من الطيران. أخبر دانيال صديقه الأقرع بذلك فتجادلا جدالًا حاميًا في هذا الموضوع، لأنّ الأقرع أكّد أنّ الحِجلان فعلًا تصدر صوتًا عند طيرانها، لا سيّما في فصل الشتاء وأيّام هبوب الريح، لكنّ هذا الصوت هو «بررر...» وليس «فررر...» كما يدّعي البوم وأبوه. ولم يجد أيّ منهما وسيلة لإقناع الآخر برأيه حول حقيقة الصوت الذي تصدره الحِجلان عند طيرانها، وافترقا في ذلك المساء متخاصمَيْن.

كان لقاء دانيال بكلبة الكوكر، تولا، بعد يومين أو ثلاثة من غيابها، يثير في نفسه فرحة عارمة، تضاهي فرحته برؤية أبيه وهو يعود ظافرًا بزوج من الأرانب البرّيّة وعدد وفير من الحِجلان يعلّقها على نافذة القطار. كانت تولا تقفز بخفّة من القطار، وما إن تلمح دانيال على الرصيف حتّى تضع قائمتَيْها الأماميّتَيْن على صدره، ولا تنفكّ تلاطفه فتلعق وجهه بلسانها إلى أن يندى بأكمله؛ وكان هو أيضًا يداعبها ويقول لها كلامًا رقيقًا بصوت مرتعش، حنون. وما إن يصلا إلى المنزل، حتى يحمل دانيال إلى الفناء علبة معدنيّة قديمة فيها بقايا من الطعام وإناء فيه ماء، ويقف يشاهد بحنوّ حيوانه الأليف وهو يتناول وليمته.

كان دانيال البوم يغتمّ للسبب الذي أدّى إلى خلوّ الوادي من الحِجلان، ويرى أنّه لو كان حجلًا لَما غادره قطّ، ولَشَدّته الحماسة إلى أن يحلّق فوق المروج ويلهو بتأمّل الجبال من الأعالي، والتمتّع بمنظر أحراش الكستناء وأيائك الكينا الكثيفة والقرى ذات المنازل الحجريّة والضِّياع البيضاء المتناثرة هنا وهناك. لكنّ الحِجلان، على ما يبدو، لا ترى في ذلك متعة، وجلّ همها أن تحصّل ما أمكن من وفرة في القوت بيسر وسهولة.

روى له أبوه أنّ زوجًا من الحِجلان فرّ من زريبة أندريس، الإسكافيّ، ذات مرّة منذ عدّة سنوات، واتّخذ له عشًّا في الجبل وتكاثر فيه. وبعد عدّة أشهر اتّفق صيّادو الوادي على تمشيط الجبل وتعقّب الحِجلان، فاجتمع للأمر اثنان وثلاثون صيّادًا ومعهم بنادقهم إضافة إلى خمسة عشر كلبًا، وأعدّوا لكلّ شيء عدّته. انطلقوا من القرية مع طلوع الفجر، لكنّهم لم يعثروا على ضالّتهم إلّا عند الغروب، ولم يجدوا غير الأمّ مع فراخ ثلاثة، هزيلة، جائعة، فاستسلمت وفراخها لبنادقهم من دون مقاومة. وفي الختام، تنازع الصيّادون الاثنان والثلاثون على حيازة الطيور الأربعة، الميْتة، وانتهى بهم الأمر إلى تبادل إطلاق النار بين الصخور. وفي ذلك اليوم، كاد عدد الضحايا بين الصيّادين أن يفوق عددهم بين الحِجلان.

عندما روى البوم لصديقه الأقرع هذه الحكاية، فقال له إنّ الحجلَيْن فرّا فعلًا من زريبة أبيه وعاشا في الجبل، لكنّ ما تبقّى من الحكاية ليس إلّا سلسلة لا نهاية لها من الأكاذيب.

عندما تسلّم دانيال البوم رسالة خاله أوريليو، توتّر توتّرًا يصعب لَجمه، وتلهَّف للحظة وصول الدوق الكبير كي يتمكّن من الذهاب مع أبيه إلى صيد الحِداء. وإن اعتراه بعض الخوف من الأمر، فلم يكن

إلّا خوفًا من أن يكفّ أصدقاؤه عن مناداته بالبوم مع وصول الطائر الجديد، وبالتالي أن يلقبّوه بالدوق الكبير. فتغيير اللقب بعد هذا العمر يؤلمه كثيرًا، مثلما قد يؤلمه تغيير اسم عائلته. إلّا أنّ الدوق الكبير وصل، فجُنَّ الأصدقاء لرؤيته مثلما جُنَّ دانيال، ولم يتسنَّ لهم الوقت كي يلحظوا أنّ الطير الذي أدهشهم لم يكن إلّا بومًا كبيرًا.

ربط صانعُ الجبن الدوقَ الكبير من إحدى قائمتيه في زاوية من زوايا الزريبة، وكان إذا ما دخل أحد للتفرّج عليه زمجر في وجهه كما لو أنّه قطّ غاضب.

ويوميًّا، كان الدوق الكبير يأكل أكثر من كيلو غرامين من بقايا اللحم، حتّى إنّ أم دانيال البوم أشارت باستحياء في إحدى الليالي إلى أنّ الدوق الكبير يستهلك من الطعام أكثر ممّا تستهلك البقرة، وأنّ البقرة تدرّ الحليب والدوق الكبير لا يدرّ شيئًا. ولمّا ظلّ صانع الجبن صامتًا، سألته زوجته هل الدوق الكبير مجرّد ضيف مدلّل، أم إنّ هناك أملًا في أن يدرّ عليهم شيئًا ما. ارتعد دانيال البوم وظنّ أنّ أباه سيحطّم أحد الصحون أو أحد قوالب صنع الجبن الفخّاريّة جريًا على عادته حينما يغضب. لكنّ صانع الجبن ضبط نفسه هذه المرّة واكتفى بالقول عابسًا:

- أنتظر منه أن يدرّ علينا شيئًا.

وذات ليلة، لمّا استقرت الأحوال الجويّة، قال الأب لدانيال البوم بغتة:

- حضّر نفسك، فسوف نذهب غدًا لاصطياد الحِداء. وسأوقظك عند الفجر.

أحسّ دانيال البوم بالقشعريرة تسري في ظهره. وبدأ أنفه، فجأة ومن دون سبب، يشمّ شذا الزعتر الذي يفوح من السروال الذي يرتديه صانع الجبن عند الذهاب إلى الصيد، وكذلك رائحة البارود الحادّة المنبعثة

من الخرطوش الفارغ الذي يعيد أبوه حشوه بيده بأناة وتقشّف، مرّة تلو الأخرى، إلى أن يصبح غير صالح للاستعمال. وأخذ الصبيّ منذ الآن يهجس في نفسه بتعقّب الحِداء المكّارة، السريعة، ويرسم في ذهنه تفاصيل الرحلة.

مع الفجر خرجا معًا، وكانت السراخس على جانبي الدرب تلمع مكسوّة بالندى، ورؤوس الأعشاب البرّيّة مبلّلة بقطيرات من الطلّ، تبدو كأنّها حبيبات من الزئبق. ومن بداية منحدر جبل راندو، كانت الشمس تُرى وهي تطل بمحيّاها من ورائه، والضباب الأبيض الكثيف يطبق بلا رحمة على صدر الوادي. كان هذا المنظر من علٍ يجعل الوادي يبدو كبحيرة امتلأت بسائل لزج، خفيف.

كان دانيال البوم يجول بنظره على كلّ ما حوله مسحورًا، وهو يحمل على ظهره الدوق الكبير محبوسًا في قفص خشبيّ، وكان الطير يزمجر ويزفر الهواء من صدره مغتاظًا كلّما نبح عليهم كلب في الطريق.

حينما خرجا من المنزل، قال دانيال لأبيه:

- والكلبة تولا، ألا نأخذها معنا؟

أجاب الأب: - لا مكان لتولا في رحلة اليوم.

أسِف الصبيّ من أعماق نفسه لبقاء تولا في المنزل، بعدما أبدت لهفتها الحارّة نحوهما وهي ترى البندقيّة وتشمّ حذاء صانع الجبن وسرواله. ولمّا بدأ دانيال يصعد المنحدر الجنوبيّ لجبل راندو، وضوء النهار وشذا المروج يغمرانه، عاد وتذكّر الكلبة، تولا. لكنّه فيما بعد نسيها كما نسي كلّ شيء، حين اختبأ في الأجمة المقابلة لأبيه، ولم يعد يرى أمامه غير وجهه، متربّصًا بين الصخور الرماديّة، مترصّدًا السماء بعينين يقظتين، وبقربه الدوق الكبير هائجٌ، يزفر الهواء من صدره حتّى مسافة تبلغ الخمسة أمتار وهو مربوطٌ من قائمته اليمنى.

حذّره والده: - إيّاك أن تتحرّك أو أن تصدر أيّ صوت، فالحِداء شديدة الفطنة والذكاء، حتّى إنّها «تفهم اللغة اللاتينيّة» التي يُتقنها رجال الكنيسة.

استكن دانيال في مكمنه وهو يتساءل إن كان ثمّة علاقة بين «فهم الحِداء للّغة اللاتينية»، كما قال أبوه، واكتسائها بالريش ذي اللون البنيّ، الصارم، المتقشّف، الشبيه بلون أثواب الرهبان. أم إنّه يا تُرى قال ذلك ممازحًا، من دون أن يقصد من ورائه شيئًا؟

تهيّأ لدانيال البوم أنّه لمح أباه ينبّهه إلى السماء مشيرًا إليها بإصبعه، فنظر إلى الأعلى وهو ثابت في مكانه، ورأى ثلاث حِداء تُحَوِّمُ فوق رأسه وتدور بانتظام. فأحسّ بقلق غريب، والتفت إلى أبيه من جديد، ورآه ممتقع الوجه، يهيّئ بندقيّته باحتراز، ورأى الدوق الكبير يزداد هياجًا ويزمجر. انبطح دانيال أرضًا وحبس أنفاسه، لمّا لاحظ أنّ الحِداء تنزل عليهما، وهو يكاد أن يراها بكلّ تفاصيلها، وكانت إحداها كبيرة الحجم جدًّا. أحسّ دانيال بقرصة مباغتة في ساقه، لكنّه امتنع عن حكّها تفاديًا لإحداث أيّ صوت أو أيّ حركة.

فجأة، تدلّت إحدى الحِداء من السماء هابطة هبوطًا عموديًّا، وعبرت فوق رأس الدوق الكبير مسرعة، وهي تمسّ رأسه مسًّا، ثمّ مالت عليه الحدأتان الأخريان في الحال. أخذ قلب دانيال البوم يخفق مسرعًا، وتوقّع أن يسمع دويّ الطلق الناريّ، فقطّب وجهه استعدادًا له. لكنّه لم يسمع أيّ شيء من هذا القبيل، فنظر إلى أبيه مندهشًا.

كان أبوه يلاحق ببندقيّته الحدأة الكبيرة، وقد ارتفعت وعادت إلى التحليق من جديد، لكنّه لم يطلق عليها النار هذه المرّة أيضًا. فظنّ دانيال البوم أنّ مكروهًا أصاب أباه، ذلك أنّه ما رأى قطّ حدأة تقترب منه بهذا المقدار، إلّا وأطلق النار عليها.

بعد قليل عاودت الحِداء الكرة، فازداد اضطراب دانيال وتوتّره. ومرّت الحدأة الأولى قريبة منه، حتّى إنّه لمح عينها البرّاقة المدوّرة، ترنو إلى الدوق الكبير بثبات، ورأى مخالبها المعقوفة، الجارحة. ثمّ مرّت الحدأة الثانية وراء الأولى، فبدتا مثل سرب من الطائرات ينقضّ على هدفه بالتتابع. وأخيرًا أخذت الحدأة الثالثة تهبط، باسطة جناحيها، متهادية بِخُيَلاء في السماء الزرقاء؛ ولا شكّ في أنّ هذه اللحظة هي التي كان ينتظرها صانع الجبن. نظر دانيال إلى أبيه فرآه يلاحق الحدأة ببندقيّته، ولمّا صارت فوق الدوق الكبير وهي تتهادى بجناحَيْها، دوّى الطلق الناريّ، وتردّدت أصداؤه في أرجاء الوادي. فتناثر ريش الحدأة وراءها سابحًا في الفضاء، وأخذت تخفق بجناحيها الكبيرين، المهيضَيْن، هائجةً، لعلّها تُفلِتُ من دائرة الخطر. إلّا أنّ صانع الجبن عاود إطلاق النار عليها مرّة ثانية، فخرّت صريعة وهي تنعق نعيقًا جنائزيًّا، والريش من حولها يتطاير نُتَفًا، نُتَفًا.

إلّا أنّ صيحة الفرح التي أطلقها الأب لم تلاقِ لها صدًى لدى الابن. ذلك أنّ دانيال كان قد رفع يده إلى خدّه حالَما سمع الطلقة الثانية، فمع دويّها أحسّ بلسعة حارقة فيه، كما لو أنّ سِيخًا محمّى اخترق لحمه. ولمّا أنزل يده عن خدّه لاحظ أنّها تلطّخت بالدم، فانتابه بعض الخوف، وأدرك في الحال أنّ أباه أصابه بشيء من الطلق الناريّ الذي أطلقه من بندقيّته.

قال باستحياء: – لقد أصبتني.

تسمّر الأب في مكانه فجأة، وتبدّدت حماسته في الحال، وأوشك أن يبكي غيظًا وهو يدنو من ابنه.

سأله بتأثّر: – هل إصابتك كبيرة يا بنيّ؟ هل إصابتك كبيرة؟

واسودّ كل شيء في عينَيّ صانع الجبن لبضع ثوانٍ: الأرض وما عليها والسماء وما فيها. وفي لحظتها، لم تعد المدّخرات التي جمعها

بحرص ذات قيمة في عينيه، ولا حياته البائسة ذات معنى في نظره. فما كان بوسعه أن يفعل لو أنّه قتل ابنه؟ أو لو أنّ ابنه لم يعد يستطيع التقدّم في حياته؟ لكنّ هواجسه السوداء سرعان ما تبدّدت، حينما دنا من دانيال وصار إلى جانبه، إذ أخذ يقهقه قهقهة صاخبة، مدويّة، ويلاطفه بفيض من المشاعر الهازلة:

- آآآه، لا بأس عليك، لا بأس عليك. ظننته شيئًا أخطر من ذلك. إنّها مجرّد إصابة طفيفة. أتؤلمك حقًّا؟ أتؤلمك؟ ها، ها، ها؛ إنّها حبّة خردق واحدة فقط.

لم يرق لدانيال البوم استخفاف أبيه بجرحه؛ فسواء أَصَغُرَ الجرح أم كَبُرَ، فهو يظلّ إصابة بطلق ناريّ. وتحسّس بطانة فمه بلسانه، فلاحظ وجود عقدة في لحم خدّه. ولم تكن العقدة غير حبّة الخردق التي اخترقته. وهي من عيار أربعة ميليمترات، أي إنّها طلقة، وإن كانت صغيرة.

- إنّها تؤلمني قليلًا الآن، فقد تخدّر مكانها. لكنّها كانت تؤلمني أكثر منذ قليل.

كان الدم يسيل من خدّ دانيال، إلّا أنّ أباه تركه والتفت من جديد صوب الحدأة التي جندلها، فما ألمَّ بالصبيّ لا قيمة له في نظره.

- أما رأيتها وهي تهوي يا دانيال؟ أما رأيت كيف أرادت الماكرة أن تلتقط أنفاسها وتفرّ بعد الطلقة الأولى؟ سأله.

وانتقلت حماسة الأب الشديدة إلى دانيال بالعدوى. فردّ على أبيه:

- بلى، رأيتها يا أبي. لقد سقطت هناك.

وهَرَعَا معًا نحو المكان الذي أشار إليه دانيال، وهما يقفزان قفزًا. وهناك كانت الحدأة لا تزال تتلوّى وتختلج، مشرفة على الموت، وجناحاها يجاوزان المترين اتّساعًا.

وفي طريق العودة إلى المنزل، قال دانيال البوم لأبيه:

- أتظنّ يا أبي أنّ الجرح سيترك أثرًا على خدّي؟

كاد صانع الجبن ألّا يعيره انتباهًا:

- لا، أبدًا. فجرحك سوف يلتئم تمامًا.

أوشك دانيال على البكاء.

- ولكنْ... ولكنْ، أنت واثق أنّه لن يترك ندبة على خدّي؟

كرّر أبوه رأيه، بفتور: - بالطبع لا. فما أصابك غير ذي بال أبدًا يا دانيال.

واضطرّ دانيال البوم أن يواسي نفسه بشيء آخر كيلا يجهش بالبكاء، لكنّ أبوه أوقفه فجأة ممسكًا به من رقبته:

- اسمعني جيّدًا! إيّاك أن تذكر لأمّك أيّ شيء ممّا جرى اليوم. هل فهمت؟ وعليك أن تكتم هذا السرّ، إن رغبت بالعودة إلى الصيد معي مرّة أخرى. اتّفقنا؟

استطاب دانيال البوم إحساسه بالتواطؤ مع أبيه وأجاب: - اتّفقنا.

في صباح اليوم التالي قصد صانع الجبن المدينة حاملًا الحدأة التي اصطادها، ثمّ عاد منها عصرًا. ومن دون أن يبدّل ملابسه، أمسك بالدوق الكبير ووضعه في قفص، ثمّ سار به إلى قرية لاكويّيرا، وهي إحدى القرى القريبة.

وعند المساء، بعد العشاء، أخرج من جيبه خمس أوراق نقديّة من فئة المائة ووضعها على الطاولة.

- انظري! إليكِ ما درّه علينا الدوق الكبير. وكما ترين لم يكن مجرّد ضيف مدلّل، فلقد بعته إلى خوريّ لاكويّيرا بأربعمائة؛ أمّا في المدينة فقد منحتني جمعية مكافحة الحيوانات الضارّة مائة مقابل الحدأة التي اصطدتها.

لم تجِب أمّ دانيال بشيء، فقد كان زوجها على الدوام عنيدًا، متعنّتًا في الدفاع عن رأيه. وهو لم يكن يخفي ذلك بالطبع، إذ لطالما كان يردّد: «منذ يوم زفافنا وأنا أحبّ أن أكون متفوّقًا على امرأتي».

ثمّ يضحك ويضحك، مقهقهًا بصوتٍ عالٍ، لسبب لا أحد يعرفه سواه.

الفصل الثالث عشر

ثمّة أشياء لا تَقْدِرُ الإرادة البشريّة على التحكّم بها. هذا ما تبيّن لدانيال البوم مؤخّرًا. فحتّى ذلك الحين كان يعتقد بأنّ الإنسان حرّ في تخيّره لما يريد وما لا يريد؛ لا سيّما أنّه هو نفسه كان قادرًا، إن أراد ذلك فعلًا، على الذهاب إلى طبيب الأسنان الذي يمارس عمله أيّام الخميس صباحًا عند مدخل حانة كينو الأبتر، ليقتلع السنّ التي تضايقه، مقابل أجر زهيد. كما أنّ بعضهم، مثل لوكاس الأبتر، كانوا يذهبون بعيدًا ويعمدون إلى اجتثاث أحد أطرافهم، إن صار عبئًا عليهم يعرقلهم في حياتهم اليوميّة.

وبكلام أوضح، فإنّ دانيال البوم كان يظنّ بأنّ الإنسان بوسعه أن يتجاهل على هواه كلّ ما يبدو له عائقًا في طريقه، سواء أَتعلّق الأمر بالجسد أم بالنفس، وذلك حتّى المساء الذي قفز فيه مع صديقيه عن سور مزرعة الأميركيّ كي يسرقوا التفّاح، وأمسكت بهم ميكا.

فما إن غادر دانيال المزرعة حاملًا تفّاحة في كلّ يد من يديه، مُطأطِئ الرأس، متدلّي الأذنين، حتّى أدرك أنّ إرادة الإنسان ليست كلّ شيء في حياته، وأنّ هناك أشياء أخرى تفرض نفسها عليه فرضًا فتقهره وتُخضِعه لسلطانها باستبدادها الطاغي. وصار لحظتها يتنبّه لأمثلة كثيرة، مثل جمال ميكا الباهر، ومثل شكّ بانتشو الملحد، ومثل الحماسة المتّقدة التي يتميّز بها دونْ خوسيه، الخوريّ الجليل، قدّس الله سرّه؛ وأخيرًا مثل نفور سارة الأعمى من أخيها، روكي البعر.

ومنذ محاولة سرقة التفّاح الفاشلة، أدرك دانيال البوم أنّ ميكا جميلة جدًّا، ولاحظ أنّ جمالها أضرم في صدره نارًا متّقدة، عجيبة، صارت تلفح وجهه بحمرة الخجل كلّما ذكر أحد اسمها أمامه. وكان ذلك حدثًا غريبًا عليه، غيّر مجرى حياته التي كانت حتّى الآن خالية من الهمّ والالتزام.

تقبّل دانيال البوم الأمر بإذعانِ مَنْ يتقبّل الأمور المحتومة. ولم يعد بوسعه أن يتجنّب التفكير في ميكا كلّ ليلة وهو يأوي إلى الفراش، ولا في أيّام الآحاد والأعياد وهو يتناول اللبن المحلّى بالسكّر. وحمله ذلك على الاعتقاد بأنّ ميكا ستكون واحة سلام هانئة للرجل السعيد الذي سيظفر بحبّها.

في بادئ الأمر، حاول دانيال البوم أن يتحرّر من هذا العبء الذي يُثقل عليه ويهدّد استقلاليّته التي لا يُساوم عليها. لكنّه انتهى إلى تقبّل حضور ميكا الدائم في فكره باعتبارها شيئًا من صميم نفسه وجزءًا لا يتجزّأ منها.

فإذا غابت ميكا عن القرية، أظلم الوادي في عينيّ دانيال البوم، وبدا له أنّ السماء والأرض صارتا مُقفرتَين، مُفزعتَين، رماديّتَين. لكنّها إذا عادت إليه، اكتست الأشياء في الوادي حلّة ولونًا مغايرَيْن، وصار خوار البقر أحلى وأعذب، وخضرة المروج أشهى وأبهى، وحتّى تغريد الشحارير بين الشوك والعوسج باتت أنغامه أصفى وأنقى. فحينذاك، ينبعث الوادي انبعاثته العجيبة، إذ يفيض طافحًا بكلّ ما يختزن في أعماقه من شذًى وأصوات وأنغام تميّزه. وباختصار، كان الأمر كما لو أنّه لا شمس للوادي في هذا الكون إلّا عينيّ ميكا، ولا نسيم له إلّا عطر كلماتها.

كان دانيال البوم يكتم إعجابه الشديد بميكا باعتباره السرّ الوحيد

الذي لا يُطلِع عليه أحدًا. مع ذلك، فإنّ شيئًا ما في عينيه، وربّما في صوته، كان يفضح هياجه الداخليّ الذي يصعب إخماده.

وكذلك كان صديقاه مثله، معجبَيْن بميكا، وكان يُعجبهما فيها جمالها، مثلما يُعجبهما في الحدّاد قوّته البدنيّة، وفي دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، ورعه، وفي كينو الأبتر -قبل أن يعلم روكي البعر أنّه بكى حين ماتت زوجته- ما تبقّى له من ذراعه. أجل، كانا معجبَيْن بها، إنّما كمن يُعجب بالأشياء الجميلة أو الكبيرة التي لا تترك وراءها أثرًا يُذكر فيما بعد. ولا ريب في أنّهما كانا في حضرتها يتذوّقان الجمال بإحساس متجدّد، لكنّهما سرعان ما ينسيانه أمام أيّ زرزور تُسقِطه نقّافاتهما، أو أيّ ضربة عصا ينالانها من المعلّم دونْ مويسيس. وهكذا، فإنّ افتتانهما بها لم يكن دائمًا، بل عابرٌ وزائلٌ مثل صوت الفرقعة.

وفي هذا الصدد، لاحظ دانيال البوم أنّ مشاعره تجاه ميكا حالة خاصّة، تختلف عن مشاعر صديقَيْه تمامًا. وإلّا لماذا لا يصيبهما ما يصيبه من غياب ميكا أو حضورها؟ فهو يخسر ثلاثة كيلوغرامات من وزنه، إذا ما سافرت ميكا إلى أميركا، ولا يخسر إلّا كيلوغرامين فقط، إذا ما اكتفت بالذهاب إلى المدينة! وهو يستردّ كلّ ما خسره من وزن، ويكسب فوقه كيلوغرامًا أيضًا، إذا ما عادت ميكا إلى الوادي لتمكث فيه مدَّة طويلة! إنّ في ذلك لَدليل على أنّ مشاعره نحو ميكا متميّزة عن المشاعر التي يحسّ بها صديقاه، ومختلفة عنها جدًّا. فهما قد يرسمان إشارة الصليب على صدرَيهما حينما يتحدّثان عنها، أو قد يُغمِض روكي البعر عينيه ويصفر صفرة حادّة وقصيرة، مثلما يفعل أبوه حينما يرى صبيّة جميلة، لكنّ ذلك ليس إلّا مباهاة مجرّدة بجمالها وتفاخرًا سطحيًّا بهذا الجمال لا يرقى لأن يكون، في أيّ حال من الأحوال، عاطفة جيّاشة، دائمة، متدفّقة من الأعماق.

ذات مساء أتى الأصدقاء الثلاثة على ذكر ميكا وهم في مرج البلّوطة، وذلك بمناسبة الحديث عن القتيل الذي يُقال عنه إنّه مدفون، منذ أيّام الحرب، وسط المرج تحت الشجرة المُعمّرة.

قال الأقرع: - لا بدّ أنّه صار رمادًا. ولم يتبقَّ منه أيّ شيء، ولا حتّى عظامه. ولكنْ إن ماتت ميكا، هل تظنّان أنّ الرائحة الكريهة سوف تنبعث من جثّتها مثل الآخرين، وأنّها ستصبح ترابًا؟

أحسّ دانيال بالدم يسري في وجهه. فهبّ وقال مستاءً، كما لو أنّ أحدًا أهان أمّه:

- لا، إنّ ذلك غير ممكن، لا يمكن لميكا أن تُصدر رائحة كريهة أبدًا، حتّى وإن ماتت.

ضحك البعر ضحكة قصيرة، هازئة، تردّد صداها في الفضاء وقال:

- يا لك من أحمق! عندما تموت ميكا سوف تنبعث منها رائحة نتنة، كأيّ إنسان آخر.

لم يستسلم دانيال البوم لكلام صديقه. وقال بنبرة حازمة:

- يمكن لميكا أن تموت مضمّخة بعبير القداسة، فهي طيّبة القلب جدًّا.

سأله روكي مدمدمًا: - وما هو عبير القداسة هذا؟

- إنها رائحة القدّيسين.

احتدّ روكي البعر غاضبًا:

- هذا مجرّد كلام. ولا تظنَّنَّ أنّ للقدّيسين رائحة الكولونيا. نعم، قد يكون هذا صحيحًا عند الله، لكن ليس عندنا، نحن البشر الذين نتحسّس الروائح بأنوفنا. انظر إلى دونْ خوسيه مثلًا، ولا أظنّ أنّ هناك رجلًا أكثر قداسة منه، مع ذلك ألا تنبعث من فمه رائحة كريهة؟ قد يتمتّع دونْ خوسيه بكلّ مراتب القداسة التي تتمنّاها له، لكنّه عندما

يموت، سوف تنبعث منه روائح كريهة، مثله مثل ميكا، ومثلك ومثلي ومثل أيّ إنسان آخر.

لم يكن قد مضى على اقتحامهم مزرعة الأميركيّ أكثر من أسبوعين، ومع ذلك أطبق خيرمان جفنيه نصف إطباقة محاولًا تذكّر ما جرى. كان يعاني دائمًا في التعبير عمّا يجول بخاطره، حتّى إنّ أباه، الإسكافيّ، كان يقول إنّ أفكار ابنه تفرّ من رأسه عبر بؤر القرع المنتشرة فيه. وقد سأل فجأةً:

- هل دقّقتما... هل دقّقتما في جلد ميكا؟ إنّه يبدو كالحرير.

قال روكي البعر موضحًا: - يُقال «بشرة ناعمة»... لديها «بشرة ناعمة».ليس في القرية كلّها إلّا ميكا مَنْ يمتلك بشرة ناعمة.

أحسّ دانيال البوم ببهجة عارمة لمّا علم أنّ ميكا هي الشخص الوحيد الذي يمتلك بشرة ناعمة في القرية كلّها.

رمى دانيال كلامه بخفر: - إنّ جلدها مثل تفّاحة تلمع.

واستأنف روكي البعر كلامه:

- كانت خوسيفا، المرأة التي انتحرت من أجل الأبتر، بدينة، لكنّ بشرتها كانت ناعمة أيضًا، على ما قال لي أبي وسارة. في المدن، هناك الكثير من النساء اللواتي يتميّزن ببشرتهنّ الناعمة؛ أمّا في القرى، فلا، لأنّ الشمس تلفح جلد النساء والماء يُجعّده.

كان خيرمان الأقرع يعرف بعض الأشياء عن حياة المدينة، لأنّ لديه أخًا يعيش فيها، ومن عام إلى آخر يعود إلى القرية في فترة أعياد الميلاد، ويحكي له عن أشياء كثيرة يراها هناك.

قاطع الأقرعُ روكي البعر، معتدًّا بنفسه أيّما اعتداد: لا، ليس هذا هو السبب، وأنا أعرف السبب الحقيقيّ. إنّ النساء في المدينة يَدهنَّ بشرتهنّ بالمراهم ليلًا قبل النوم، ويتناولن العقاقير التي تُزيل التجاعيد.

ونظر إليه صديقاه مُنبهرَين.

خفض الأقرع صوته ودنا منه دانيال وروكي، مدفوعين بأسلوبه المُشوّق في المُسارّة، فأضاف: - بل إنّني أعرف أكثر من ذلك. أتعلمان لماذا لا تتجعّد بشرة ميكا وتظلّ ناعمة طريّة كما لو أنّها بشرة بنت صغيرة؟

ردّ الاثنان بصوت واحد:

- لماذا؟

- لأنّها تأخذ حقنة شرجيّة كلّ ليلة قبل النوم، مثلما تفعل نجمات السينما جميعًا. هذا ما يقوله أبي؛ دونْ ريكاردو أخبره أنّ ذلك صحيح، لأنّ الشيخوخة مصدرها أمراض في البطن، وقد تتجعّد البشرة إذا امتلأت الأمعاء بالأوساخ.

كان ما كشف عنه الأقرع صدمة قاسية لدانيال البوم، فقد اختلطت في ذهنه صورة ميكا والحقنة الشرجيّة اختلاطًا مريعًا، ذلك أنّهما شيئان متناقضان لا يمكن لهما أن يلتقيا. لكنّه تذكر فجأة ما كان يقوله أحيانًا دونْ مويسيس، المعلّم، من أنّ المتناقضات قد تتلاقى، فأُصيب باكتئاب عميق، وأحسّ بمعنويّاته تنهار شيئًا فشيئًا؛ فكلام الأقرع صحيح إذًا، وهو وارد ومعقول تمامًا. ولكنْ، عندما رأى ميكا بعد يومين، تبدّدت مخاوفه المؤسفة، وأدرك أنّ دونْ ريكاردو والإسكافيّ وخيرمان الأقرع وأهل القرية كلّهم لا يشيعون خبر الحقنة إلّا لأنّ أمّهاتهم وزوجاتهم وأخواتهم وبناتهم لا يمتلكن البشرة الناعمة التي تمتلكها ميكا.

كان ظلّ ميكا يرافقه في حلّه وفي ترحاله، واستحوذت صورتها على مخيّلته مثل هاجس لا يبارحه. وحينها لم يكن يلتفت إلى أنّها تكبره بعشرة أعوام، ولم يكن يؤرقه شيء سوى أنّها تنتمي إلى طبقة اجتماعيّة مختلفة عن طبقته. لم يكن يشعر بالحسرة إلّا لأنّه وُلِد فقيرًا وهي غنيّة،

ولأنّ أباه، صانع الجبن، لم يغادر في شبابه إلى أميركا مع خيراردو، أصغر أبناء السيّدة ميكا. ولو أنّ أباه فعل ذلك، لامتلك مطعمين راقيَيْن ووكالة لبيع أجهزة الراديو، إضافة إلى ثلاثة مراكب للنقل البحريّ؛ أو على الأقلّ معرضًا تجاريًّا لبيع الأجهزة الكهربائيّة كذاك الذي يمتلكه «ظِلّا الأميركيّ» في المدينة. ولو أنّه امتلك مثل هذا المعرض، لما فصله عن ميكا غير المطعمَيْن الراقيَيْن والمراكب الثلاثة. أمّا الآن، وأبوه على هذا الحال، فإضافة إلى المطعمين الراقيَيْن والمراكب الثلاثة، هناك وكالة أجهزة الراديو التي تفصله عنها أيضًا، وهو ليس بالأمر القليل.

مع ذلك، ورغم إعجاب دانيال البوم بميكا وتولّهه بها، فقد مرّت سنوات عدّة قبل أن يتمكّن من التحدّث معها، ما خلا توبيخها له بلطف ليلة حادثة التفّاح. وكان إذا رآها، اكتفى بالترحيب بها أو بوداعها بابتسامة حزينة أو مشرقة، تبعًا للظروف. ولم تكن علاقته بها تتجاوز ذلك، إلى أن حملته معها ذات صباح صيفيّ إلى الكنيسة بسيّارتها السوداء، الطويلة، البرّاقة، التي تكاد لا تصدر ضجيجًا أثناء سيرها. في ذلك الحين، كان دانيال البوم قد أكمل عامه العاشر، ولم يتبقَّ له إلّا عام واحد كي يذهب إلى المدرسة في المدينة ويشرع بالسير على طريق التقدّم؛ أمّا ميكا فقد تجاوزت التاسعة عشرة من عمرها ودخلت في العشرين منه، من دون أن تؤثّر السنوات الثلاث التي مرّت منذ ليلة التفّاح، على بشرتها أو وجهها أو قوامها، لا بل إنّها زادت كلّ ما فيها نُضجًا وانسجامًا.

في ذلك الصباح الصيفيّ، كان دانيال يصعد الدرب نحو الكنيسة وقد أرهقته شمس آب، فيما أخذت تتردّد في أجواء الوادي الصباحيّة أصداء الأجراس متسارعة، معلنة النداء الأخير إلى القدّاس. كان لا يزال أمامه نحو كيلومترٍ كي يصل إلى الكنيسة، فبدا يائسًا من وصوله

إلى مبتغاه قبل وصول دونْ خوسيه في القدّاس إلى فقرة تلاوة الإنجيل. وفجأة سمع إلى جانبه بوق سيّارة ميكا السوداء، فالتفت نحوها مفزوعًا، ووقعت عيناه فورًا على ابتسامة الصبيّة وقد بدت أمامه ماثلة بوضوح، من دون أن يتوقّعها. أحسّ دانيال بالخدر يسري في أوصاله وهو يتساءل إن كانت ميكا ستتذكّر محاولة سرقة التفّاح الفاشلة. لكنّها لم تُشِرْ إلى تلك الواقعة المخجلة، لا من قريب ولا من بعيد.

- أذاهب أنت إلى القدّاس، أيّها الصغير؟.

انعقد لسان دانيال البوم ولم يستطِع أن يجيبها بأكثر من إيماءة برأسه، ففتحت له بنفسها باب السيّارة ودَعَتْهُ إلى الصعود قائلة:

- اصعد، فالجوّ حارّ وأنت متأخّر عن موعد القدّاس.

ولمّا استردّ وعيه، ألفى نفسه جالسًا إلى جانب ميكا بارتياح يستعرض مرور الأشجار وهي تمرّ مسرعة خلف زجاج السيّارة. وأحسّ بقرب الصبيّة منه، في الدم المتدفّق في عروقه وفي توتّر أعصابه الذي أخذ يُثقل عليه. وكان كلّ ما يراه مثل حلم مؤلم ينخس أعماقه بكل ما أُوتِي من قوّة. قال البوم في سرّه: « يا إلهي، إنّ هذا يفوق ما كنت أتصوّره»، وتسمّر في مكانه، متجمّدًا، خدرًا، لمّا داعبت قفا رقبته بيدها الناعمة، وسألته برقّة:

- ابن من أنت؟

وتلعثم البوم، مجاهدًا بضراوة توتّر أعصابه:

- ابن... ابن صانع الجبن.

- ابن سَلبادور؟

خفض رأسه مصادقًا على ما ذهبت إليه، واستشفّ بحدسه أنّها تبتسم. وساورته الشكوك بأنّ لراحتيها أيضًا بشرة ناعمة مثل بشرة وجهها، عندما لامست كفّها الرقيقة قفا رقبته.

وحينها بدأ برج الكنيسة يلوح من بين الأشجار المتكاثفة.

قالت ميكا: هل يمكنك أن تُحضر لي قرصَيْن من جبن القشدة هذا المساء؟

فأجابها دانيال تلقائيًّا بخفض رأسه، من دون أن يقوى على التفوّه بكلمة واحدة. وفي القدّاس بدا ضائعًا، لا يعرف رأسه من قدميه، حتّى إنّه رسم إشارة الصليب على صدره في غير وقتها مرّتَيْن، فأخذ أَنْخِل، الدركيّ، يضحك مختلجًا وهو إلى جانبه، يستر وجهه بقبّعة الدرك، المثلّثة الرؤوس.

وعندما حلّ المساء، ارتدى دانيال بدلته الجديدة، وسرّح شعره بعناية، ومسح الغبار عن ركبتَيْه المتّسختَيْن، ثمّ قصد منزل ميكا حاملًا قرصَيْ الجبن. ولمّا دخل المنزل، ذُهِلَ لفخامته العجيبة، إذ كان كلّ ما فيه من أثاث يلمع، وأرضيّته ناعمة صقيلة، كما لو أنّها هي الأخرى ذات بشرة ناعمة مثل بشرة ميكا.

ولمّا بدت الصبيّة أمامه، تبدّد منه ما كان قد استجمعه من شجاعة في الطريق. وبينما كانت تتفحّص الجبن وتناول دانيال ثمنه، أخذت تطرح عليه السؤال تلو الآخر، من دون أن تذكر أبدًا حادثة سرقة التفّاح المشؤومة، فهي حقًّا بنت بسيطة ولطيفة.

- ما اسمك؟

- دا... دانيال.

- هل تذهب إلى المدرسة؟

- نعم.

- لديك أصدقاء؟

- نعم.

- ما أسماؤهم؟

- الـ... البعر والـ... الأقرع.

وأبدت الصبيّة شيئًا من الامتعاض.

- أفٍّ، ما أقبح هذه الأسماء! ولماذا تسمّي أصدقاءك بأسماء قبيحة كهذه؟

ارتبك دانيال البوم، وأدرك أنّه أجابها بغباء ومن دون تفكير، وأنّه كان عليه القول إنّ اسمَي صديقَيه هما روكيتو وخيرمانين؛ فميكا صبيّة شديدة النعومة والرقّة، ولا بدّ أنّه جرح مشاعرها بتلك المفردات. وتأسّف من أعماق نفسه للطيش الذي تصرّف به معها. وأحسّ في تلك اللحظة، وهو قبالة وجهها الباسم الأخّاذ، أنّ فكرة الذهاب إلى المدرسة في المدينة فكرة جميلة، تروق له. فهناك سوف يدرس باجتهاد، وقد يكسب مالًا كثيرًا في ما بعد، ويصير هو وميكا من الطبقة نفسها فيتزوّجان؛ وعندما تسمع أوكا أوكا بالخبر، قد ترمي بنفسها عن الجسر إلى النهر وهي عارية تمامًا، مثلما فعلت خوسيفا يوم زفاف كينو الأبتر. وأحسّ دانيال بالمتعة والإثارة وهو يفكّر بالمدينة وبأنّه قد يصبح ذات يوم رجلًا ذا شأن، فتفقد ميكا أسباب تمنّعها وتصير في متناول يده، ويكفّ هو بالتالي عن مناداة الآخرين بالألقاب المشينة والتلفّظ بالألفاظ القبيحة، ولا يعود يتراشق مع أصدقائه بروث البقر الجافّ، بل تفوح منه روائح العطر غالية الثمن، بدلًا من رائحة الجبن القريش. ولربّما تكفّ ميكا، في مثل هذه الحالة، عن معاملته معاملة الولد القرويّ، الشقيّ.

عندما غادر دانيال منزل الأميركيّ، كان الظلام قد حلّ. فلاحظ وهو يمشي أنّ التفكير في الظلمة يبعث في نفسه المتعة. لكنّه كاد أن يقع فريسة الخوف، لمّا أحسّ بأصابع تضغط على لحم ساعده، وكانت تلك الأصابعُ أصابعَ أوكا أوكا.

سألته الصغيرة: - لماذا تأخّرت طويلًا في تسليم الجبن إلى ميكا؟

آلمه أن تُفسد أوكا أوكا عليه خلوته إلى نفسه، بهذه السهولة، وألّا تدعه هنيّ البال، يخمّر أفكاره، ويتبصّر في مستقبله.

انتفض في وجهها بتعالٍ لا يخلو من الظرافة:

- هلّا تركتِني وشأني وابتعدتِ عن طريقي إلى الأبد، أيّتها التافهة؟

وأخذ يسير مسرعًا وهو يهبط الدرب، وماريوكا أوكا إلى جانبه تكاد تركض ركضًا للّحاق به.

سألته بإلحاح: - لماذا ارتديتَ بدلتك الجديدة يا بوم، وأنت توصل الجبن إلى ميكا؟ أجبني.

توقّف في وسط الطريق وهو يستشيط غضبًا، حتّى إنّه تردّد لحظة وفكّر في صفع هذه البنت المزعجة.

قال لها أخيرًا: - إنّ شؤوني الشخصيّة لا تهمّكِ أبدًا. هل تفهمين؟

وارتعش صوت أوكا أوكا وهي تستوضح:

- أتُعجبك ميكا أكثر منّي؟

قهقه البوم ضاحكًا، ثمّ اقترب منها إلى أن التصق بها، وقال صارخًا:

- اسمعيني! إنّ ميكا أجمل بنت في الوادي ولها بشرة ناعمة، وأنتِ قبيحة مثل الخنفساء ووجهك مليء بالنمش. ألا ترين الفرق بينك وبينها؟

ثمّ استأنف البوم المسير نحو منزله. وكفّت ماريوكا أوكا عن تتبّعه، وجلست على الجانب الأيمن من الطريق تجهش بالبكاء وهي تُخفي وجهها المليء بالنمَش بيديها.

الفصل الرابع عشر

كان بوسع الآخرين أن يقولوا ما يشاؤون عنهم، فهذا أمر لن يستطيع أحد ردعهم عنه. لكنّ ما يقولونه عنهم لم يكن مطابقًا للحقيقة. فلا روكي البعر يحمل الوزر بأكمله، ولا هم كانوا يفعلون شيئًا سوى محاولة تزجية الوقت بأحسن طريقة ممكنة. أمّا ألّا تروق تلك الطريقة للفليفلة الكبرى وصانع الجبن ودونْ مويسيس، المعلّم، فهذا شأن آخر تمامًا. ولكن مَن يستطيع الجزم أنّ هذا لم يكن شذوذًا من الفليفلة الكبرى وصانع الجبن والبيدق، ولا انحرافًا شيطانيًّا في سلوك الصبيان؟

إنّ الكبار يُلقون باللوم على الصغار في الحال، مع أنّ غضبهم يأتي في كثير من الأحيان من طبيعتهم النزقة المرتابة، لا من شقاوات الصغار. وها هو باكو الحدّاد، يفهم الصغار ويستوعبهم لأنّه يتمتّع بصحّة جيّدة ومعدة حديديّة؛ أمّا البيدق فهو على العكس منه، لأنّه يعاني من آلام في معدته وخِلْقَتُه وكبده معتلّان. وكذلك أبو دانيال، صانع الجبن، لأنّ انكبابه على ادّخار المال يمنعه من رؤية الأشياء بمنظور متفائل، إيجابيّ، ومثلما هي في حالتها العاديّة. وكذلك الفليفلة الكبرى لأنّها، في نهاية المطاف، صاحبة القطّ وتحبّه كما لو أنّه الثمرة العجيبة لرحمها اليابس. لكنّهم لا ذنب لهم في أن تكنّ الفليفلة الكبرى تجاه قطّها هذه المشاعر العميقة، الجامحة، ولا في أن يقفز القطّ إلى الواجهة الزجاجيّة كلّما أطلّت الشمس على الوادي بوجهها المحتقن احمرارًا، مغتنمة غفلة الغيوم. وفي ذلك كلّه، لم يكن لأحد أيّ ذنب،

وتلك هي الحقيقة فعلًا. لكنّ دانيال البوم كان يعرف بحدسه أنّ اللوم يُلقى على الصغار حتمًا في كلّ أمر لا ذنب لأحد فيه.

أمّا ما جرى للقطّ فلم يكن بذلك الأمر العظيم فعلًا. ولو أنّ صاحبه كان أنطونيو الكِرش، أو حتّى الأرنبات، لمرّ الأمر بسلام. لكنّ لولا، الفليفلة الكبرى، كانت ذات طبع ميّال لإثارة الفضائح، وحبّها للقطّ ليس إلّا نزعة مَرَضيّة وغير عاديّة، مستحكمة بها. ولننظر في الأمر عن كثب: لو كانت فعلة الصغار كبيرة حقًّا أو فيها شيء من الإثم، هل كان دونْ خوسيه، الخوريّ، سيضحك كلّ هذا الضحك الذي ضحكه من قلبه، عندما سمع بالقصّة؟ بالتأكيد، لا. إضافة إلى ذلك، فإنّ القطّ ويا للعجب، هو من كان يبحث عن المشكلات بخروجه إلى الواجهة الزجاجيّة للتمتّع بضوء الشمس. ومن جهة أخرى، لا شكّ في أنّ عادة القطّ هذه كانت تمثّل، مكسبًا اقتصاديًّا معتبرًا لدانيال البوم وصديقَيْه. فإذا ما رغبوا بشراء بعض البسكويت المحمّص من دكّان الفليفلات، تسألهم الفليفلة الكبرى:

- أتريدون من البسكويت المحفوظ في العلبة، أم من ذاك الذي مسّه القطّ؟

فيردّون عليها دائمًا: من ذاك الذي مسّه القطّ.

فالبسكويت الذي «مسّه القطّ» كان العيّنات المخصّصة للعرض على الواجهة، ومنه تبيع الفليفلة الكبرى كلّ أربع بسكويتات بريال واحد، أمّا البسكويت المحفوظ بالعلبة، فلا تعطي منه إلّا اثنتين مقابل السعر نفسه. وهم لم يكونوا يبالون كثيرًا بأن يكون القطّ قد مسّ البسكويت. وفي بعض الأحيان لا يكتفي القطّ بالمسّ وحسب، لكنّهم لا يبالون بذلك كثيرًا أيضًا. ففي نظرهم، ومهما يكن الحال، أربع بسكويتات أفضل من اثنتين دائمًا.

أمّا العدسة المكبّرة، فإنّ خيرمان الأقرع هو من أتى بها إلى المدرسة ذات صباح ربيعيّ. وكان أبوه، أندريس الإسكافيّ، يحتفظ بالعدسة في دكّانه كي يفحص الأحذية بها، لكنّ «الرجل الذي لا يُرى جانبيًّا» لم يكن يستعملها إلّا نادرًا، لتمتّعه بنظر قويّ. ولو كان للعدسات خاصيّة رفع تنانير النساء قليلًا، لما تردّد في استعمالها، لكنّه وكما كان يردّد: «لا داعي لاستخدام أجهزة تزيد من ثخانة السيقان وتُظهر عيوبها أكثر ممّا هي عليه في الواقع».

في ذلك الصباح، أجرى الصبيان الثلاثة بواسطة العدسة كلّ ما طاب لهم من التجارب. فقد أحرق روكي البعر ودانيال البوم لفافتَيْن من ورق البطاطا، سيّئتَيْ الصنع، بتركيز أشعّة الشمس عليهما من خلال العدسة. ثمّ تفحّصوا بعناية ندوب أجسامهم، فبدت لهم معالمها المتعرّجة المريعة، بعد تكبيرها بالزجاج السميك. وأخيرًا، عاين كلّ منهم عين الآخر ولسانه وأذنيه، حتّى تعبوا من العدسة ومن الصور العجيبة التي يرونها من خلالها.

ولمّا كانوا يعبرون شوارع القرية عائدين من المدرسة إلى منازلهم، حدث أن رأوا قطّ الفليفلات ملتفًّا على نفسه فوق صحن البسكويت في إحدى زوايا واجهة الدكّان. كان راقدًا يخرخر بهناءة وينعم بلذّة الدفء، كاشفًا للشمس بطنه ذا الوبر الأسود الكثيف. وما إن اقتربوا منه، حتى فتح عينه المدوّرة، الخضراء، الرهيبة، مرتابًا؛ لكنّه ما لبث أن عاد وأغمضها، بعدما اطمأنّ إلى أنّ زجاج الواجهة يحميه، فظلّ ساكنًا، مستسلمًا لرقاده.

لا أحد يستطيع أن يحدّد بالضبط المكان الذي تُولد فيه الأفكار الكبيرة في دماغ الإنسان. فحتّى دانيال نفسه لا يستطيع القول صادقًا في أيّ مكان قصيّ من رأسه وُلِدت فكرة وضع العدسة المكبّرة بين

ضوء الشمس وبطن القطّ الأسود؛ فقد وُلِدت فيه ولادة عفويّة، وكأنّها أمر طبيعيّ، أو شيء يتدفّق هكذا، مثل ماء النبع. والواقع أنّ أشّعة الشمس تركّزت على جسم القطّ خلال بضع ثوانٍ، مشكّلة بقعة برّاقة على وبره الأسود، فأخذ الأصدقاء الثلاثة يرقبون بصبرٍ حدوث العمليّة الفيزيائيّة. ورأوا كيف انطلقت الشرارة الأولى من الوبر السطحيّ، من دون أن يعدّل القطّ شيئًا من رقدته الهانئة الناعسة، وكيف ظلّت بقعة النار ثابتة على بطن القطّ الأسود لحظة. وفجأة ارتفع منها خيط رفيع من الدخان، فانتفض القطّ وقفز قفزة مجنونة وهو يموء مستعرًا:

- مياووو... مياووو...

ثمّ أخذ مواؤه الحادّ، المحزن، يتلاشى شيئًا فشيئًا داخل الدكّان.

ولم يتسنّ الوقت للأصدقاء الثلاثة كي يتشاوروا في ما بينهم بما هم فاعلون، ففرّوا على الفور هاربين. لكنّ الفليفلة الكبرى كانت أسرع منهم، وأطلّت من الباب بوجهها المستعر غضبًا، قبل أن يفلحوا بالاختفاء نزولًا مع الدرب. ورفعت يدها عاليًا مهدّدة بقبضتها وهي تبكي سخطًا وعجزًا:

- يا سفلة! يا أنذال! ومن غيركم يفعل هذه الفعلة؟ لقد أشعلتم النار في قطّي، لكنّي سوف أنتقم منكم، ولسوف ترون منّي ما لم تروا!

وبالفعل رأوا منها ما لم يروه من قبل، لأنّ ما فعله بهم دونْ مويسيس، البيدق، كان أشدّ ممّا فعلوه هم بالقطّ، حينما أنزل بهم سلسلة من العقوبات القاسية. وتساءل دانيال البوم: «لماذا، إن كوينا نحن القطّ بالنار قليلًا، نُضرَب عشر عصيّ على كلّ يد من أيدينا، ونُرغَم على الوقوف طوال النهار على أقدامنا، رافعين مجلّد «التاريخ المقدّس» الضخم، بصوره الملوّنة بشتّى الألوان والتي يتجاوز عددها المائة، أمّا من يُخضِعنا لهذا التعذيب التعسّفي، فلا أحد يفرض عليه أيّ عقوبة،

مع أنّه يستحقّها ويجب أن تكون أشدّ وأقسى. ولماذا لا نتدرّج بها شيئًا فشيئًا حتّى نصل، إن لزم الأمر، إلى عقوبة الإعدام؟». لكنّ الواقع ليس كذلك. فمع أنّ دانيال لم يكن بعيدًا في حجّته عن الصواب، فقد كان العقاب ينتهي عنده هو وأصدقائه دائمًا. فذلك هو حال النظام التربويّ القائم، ولا بدّ من الرضوخ له بإذعان. وهكذا هي عدالة الكبار القائمة على المزاج وغياب المنطق وانعدام المساواة.

وبينما كانت الدقائق تمرّ بطيئة على دانيال البوم، وركبتاه تؤلمانه، وذراعاه ترتجفان ألمًا، وهو يرفع بهما مجلّد «التاريخ المقدّس»، خطر له أنّ أفضل ما يستطيع فعله في هذه الحياة هو أن يعجّل في ترك مرحلة الطفولة كي يصبح رجلًا. فحينها يمكن له أن يحرق القطّ باطمئنان، مستعينًا بالعدسة المكبّرة، من دون أن يهتزّ لذلك ضمير القرية، ومن دون أن يُضطرّ دونْ مويسيس، المعلّم، إلى المبالغة في استعمال صلاحيّاته التي لا رادع لها.

وماذا عن حادثة النفق؟ ففي حادثة العدسة المكبّرة، كان هناك ضحيّة بريئة هي القطّ؛ أمّا في حادثة النفق فلم يكن هناك لحسن الحظ ضحايا، ولو قُدِّرَ لأحد أن يسقط فيها ضحيّة، لما كان إلّا هم الثلاثة. مع ذلك انهالت العصيّ على راحاتهم، وجثوا ساعات على ركبهم، وأذرعهم مرفوعة تحمل مجلّد «التاريخ المقدّس» فوق رؤوسهم. كان ذلك العقاب عملًا غير إنسانيّ وتعسّفًا واضحًا في استعمال السلطة، فلو جرف القطار السريع الأصدقاء الثلاثة في طريقه ذلك المساء، أما كان دونْ مويسيس، البيدق، سيرتاح؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلِمَ العقاب إذًا؟ هل لأنّ القطار لم يجرفهم؟ لقد كانوا في ورطة حينها، لأنّ خيارهم كان صعبًا: فإمّا الموت دهسًا بين عجلات القطار، وإمّا قضاء ثلاثة أيام جاثِين على ركبهم ومجلّد «التاريخ المقدّس» وصوَره الملوّنة بشتّى الألوان والتي يتجاوز عددها المائة، مرفوعة فوق رؤوسهم.

وكذلك أيضًا لم يكن روكي البعر قادرًا على تحديد المكان الذي وُلدَت منه في رأسه فكرته الغريبة في انتظار القطار السريع داخل النفق، وهم عراة من سراويلهم الداخليّة. ففي مرّات سابقة كانوا قد لاقوا داخل النفق كلًّا من قطار نقل الركّاب والبضائع وقطار الإقليم، من دون أن يُصابوا بأذى. لكنّ هذين القطارين يسيران ببطء، ومرورهما في عتمة النفق يكاد لا يُحدث في نفوسهم أيّ أثر يُذكر. فكان لا بدّ من ابتكار شيء جديد أكثر إثارة، فاقترح روكي البعر على صديقَيْه القيام بتجربة جديدة: أن ينتظروا ثلاثتهم القطار السريع داخل النفق، وأن يتغوّطوا معًا عند مروره.

وقبل أن يوافق دانيال البوم على الاقتراح، أشار إلى عَقَبة لا تخلو الإشارة إليها من الفطنة:

– ومَن لا تأتيه الرغبة في التغوّط؟

ردّ عليه البعر ردًّا حازمًا:

– سوف تأتيه حالَما يسمع صوت القاطرة وهي تقترب.

إلّا أنّ ما غفلوا عنه كان مكان إيداع سراويلهم، ولو أنّهم تنبّهوا إليه، لَمَا افتضح أمرهم وما انكشفوا. وذلك مثلما لو أنّ الشمس غابت، يوم أحضر الأقرع العدسة المكبّرة إلى المدرسة، لما حدث ما حدث. لكنْ، ثمّة أرواح شيطانيّة تهيم دائمًا في الفضاء، وتتلذّذ بتعقيد أفعال الصغار البريئة، وتُصَعِّب عليهم أكثر الأوضاع سهولة وبساطة.

من سيفكّر في تلك اللحظة بمصير سرواله، وهو يغامر بمصيره نفسه؟ وهل ينشغل مصارع الثيران بالسترة التي يمسكها بيديه، إذا ما رأى القرنَيْن على مسافة شبرين من حقوه؟ فحتّى وإن مزّق الثور سترته، فلن يسمع التوبيخ من أمّه، ولن يتربّص به أيّ معلم حانق، ليعاقبه بعشرات العصيّ على راحتيه، أو بإجباره على الجُثُو على ركبتَيْه، ورفع

مجلّد «التاريخ المقدّس» فوق رأسه، بذراعه. ثمّ إنّ مصارع الثيران يكسب بما يفعل مالًا كثيرًا، أمّا هم فإنّهم يغامرون بحياتهم غير طامعين بأيّ مكافأة أو بأيّ تصفيق، ولا بأيّ شيء آخر، حتّى وإن كان تافهًا مثل مدخنة القطار أو إحدى عجلاته. ولم يكونوا يبتغون ممّا يفعلون سوى محاولة إثبات جدارتهم أمام أنفسهم؛ فهل تستحقّ تلك المحاولة هذا العقاب القاسي كلّه؟

دخل القطار السريع في النفق وهو يَصفر ويُزمجر ويُطلق الشرر، ويرجّ الجبال والصخور رجًّا. وكان الصبيان الثلاثة قد قرفصوا على مسافة نصف متر من السكّة، ووجوههم شاحبة ومؤخرّاتهم عارية. أحسّ دانيال البوم أن الأرض تميد تحت قدميه، فرسم إشارة الصليب في سرّه. ومرّت القاطرة بجانبه مزمجرة، فلسع دخانها الساخن مؤخّرته. وارتجّت الجدران لهدير المعدن، حتّى فاض النفق بأصدائه الصاخبة، المدويّة. ورغم القعقعة الهائلة وصرير عجلات القطار وهو يتباطأ، فقد تمكّن دانيال البوم من سماع روكي البعر وهو يصيح لينبّههما:

- تشبّثا برُكَبكما!

فتشبّث دانيال بركبتَيْه بكلّ ما أُوتِيَ من عزم، لأنّ الزعيم أمره بذلك، ولأنّ قوّة العربات النابذة كادت أن تكون عصيّة على المقاومة. تشبّث بركبتيه وأغمض عينيه وجهد في طرد ما في بطنه، فأحسّ بسعادة لمّا لاحظ أنّه أنجز بدقّة، ما طلب إليه البعر.

ودوّى في النفق ضحك الأصدقاء الثلاثة، المخنوق، بعدما ابتعد القطار وولّى. ثمّ انتصب الأقرع واقفًا، وأخذ يسعل وقد امتلأ صدره بالدخان، فتبعه البوم بالسعال أيضًا، إلى أن أتى الدور أخيرًا على البعر. فالبعر لم يكن في يوم من الأيّام هو البادئ بالسعال، حتّى وإن أحسّ بالحاجة إلى ذلك. فَحَول القدرة على التحمّل، كانت بينهم منافسة دائمة، غير معلنة.

وكانوا لا يزالون يضحكون، لما نبّههم روكي البعر قائلًا:

- لا أرى السراويل هنا!

فكفّوا عن الضحك في الحال.

قال دانيال البوم مؤكّدًا، وهو يتحسّس طريقه في الظلام: - لا بدّ وأنّها حولنا، في مكان ما.

وقال الأقرع:

- حَذارِ أن تدوسا الـ...

ونسي روكي البعر السراويل لحظة، وسألهما:

- أفعلتُماها؟

وامتزج في ظلمة النفق الحالكة جوابا دانيال وخيرمان، المفعمَيْن بالفرح:

- نعم!

- وأنا أيضًا! أقرّ روكي البعر، وضحك مستغربًا تمكّنه هو وصديقاه من التغوّط في آن معًا.

وحتّى ذلك الحين، كانت السراويل لمّا تظهر لهم بعد. فأخذوا يتلمّسون طريقهم في العتمة إلى أن خرجوا من النفق؛ وكانت أعجازهم ملطّخة بهباب الفحم، ووجوههم ذاهلة ذهولًا مضحكًا، خوفًا من ضياع السراويل. مع ذلك، لم يجرؤ أيّ منهم على الضحك؛ فاستشعارهم بالخوف من معلّم غاضب وآباء قساة ينتظرونهم، لم يترك لهم مجالًا للفرح. وفجأة، لمحوا خرقة ممزّقة، مسودّة اللون، كانت أمامهم على مسافة أربعة أمتار، وسط الدرب المحاذي للسكّة. تناولها روكي البعر، وأخذ يتفحّصها مع صديقَيْه بانتباه. ولم يتجرّأ أيّ منهم على الكلام إلّا دانيال البوم، إذ قال أخيرًا، وهو يتمتم بصوت خافت:

- هذه قطعة من سروالي.

ثمّ أخذت بقيّة ملابسهم تظهر أمامهم شيئًا فشيئًا، ممزّقة إلى مزق صغيرة، متناثرة على طول الدرب؛ ذلك أنّ العصف الناتج عن مرور القطار كان قد دفع بالملابس إلى عجلاته، فمزّقتها إربًا إربًا، وكأنّها وحش ضار.

ولولا هذا العارض المفاجئ، لما علم أحد بمغامرة الصبيان الثلاثة، لكنّ تلك الأرواح المشؤومة، الهائمة دائمًا في الفضاء، أبت إلّا أن تُفسد عليهم الأمر مرّة أخرى. وبالطبع فإنّ العقاب الذي فرضه عليهم دونْ مويسيس لم يكن مُبرَّرًا، مهما يحاول أن يجد لنفسه في فعلتهم سببًا لذلك. فالبيدق دائمًا يسرف في العقاب، ولا يتردّد في فرضه أبدًا. وفوق ذلك، يبدو أنّ عقابه للتلاميذ يمنحه متعة لا حدود لها، فشِدقه الأيمن يمتدّ في مثل هذه الحالات حتّى يكاد أن يعضّ سالفته السوداء، الشبيهة بسوالف قطّاع الطرق.

لكنْ، ألَمْ يثيروا استنكار أهل القرية إذ عادوا إليها بلا سراويل؟ بلى. إنما ماذا كان بوسعهم أن يفعلوا في مثل تلك الحالة؟ هل كان عليهم أن يخجلوا أكثر، وألّا يعودوا إلى القرية لمجرّد أنّهم أضاعوا سراويلهم؟ كان يشقّ على دانيال البوم، وروكي البعر، وخيرمان الأقرع، أن يروا أنفسهم أمام خيارات أحلاها مرّ. كما كان يشقّ عليهم أكثر أن يروا الغضب الذي تُسبّبه أشياؤهم لدونْ مويسيس، وهي أشياء لا تعنيه أساسًا، لا من قريب ولا من بعيد.

الفصل الخامس عشر

كان دونْ مويسيس، المعلّم، يقول مرارًا وتكرارًا إنّه يحتاج إلى امرأة أكثر من حاجته إلى الطعام. لكنّه كان يردّد ذلك منذ عشر سنوات، حين جاء إلى القرية أوّل مرّة، ولم يعثر بعد على ضالّته المنشودة. كانت الفليفلات والأرنبات ودونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، يقرّون بحاجة البيدق إلى امرأة، لا سيّما أنّ مكانته المهنيّة تقتضي ذلك. فالمعلّم لا يمكنه أن يذهب إلى المدرسة كيفما اتّفق، فهو ليس حدّادًا ولا صانع جبن على سبيل المثال، ولوظيفته متطلّباتها الكثيرة. وما من شكّ في أنّ أهمّ ما تتطلّبه وظيفته هو الحصول على راتب يكفيه، وهو ما لم يكن متوفّرا له. وهكذا، لا غرابة في ألّا يرتدي دونْ مويسيس، المعلم، يوميًّا غير البدلة البالية، المرقّعة، التي قَدِمَ بها إلى القرية منذ عشر سنوات خلت. ولا غرابة أيضًا في ألّا يرتدي ملابس داخليّة، فهي غالية الثمن غلاوة بؤبؤ العين، وهو لا يستطيع التخلّي عن أيّ من عينيه لحاجته إليهما في أداء عمله.

ولا شكّ في أنّ كاميلا، الأرنبة، أساءت التصرّف مع دونْ مويسيس، المعلّم؛ فلقد شُغِفَ بحبّها فترة من الزمن، لكنّها صدّته، وقالت إنّه دميم الخِلْقَة ومعوجّ الفم. لكنّ ما قالته كان حماقة، فباكو الحدّاد كان محقًّا لمّا أكّد أنّ ذلك ليس عائقًا كبيرًا في طريق زواجهما، لأنّ كاميلا، الأرنبة، إن هي تزوّجته يمكنها أن تُقَوِّمَ له فمه وأن تُصلح وجهه بالإكثار من تقبيله. لكنّ الأرنبة كاميلا رفضت الفكرة، وتشبّثت بموقفها قائلة

إنّ تقبيلها لِفَم المعلّم سوف يجرّها إلى تقبيل أذنه، وهذا ما لا ترغب فيه أبدًا. ولم يُجبْها باكو الحدّاد لا سلبًا ولا إيجابًا، لكنّه قال في سرّه إنّ تقبيل أذن أيّ رجل، لَهُوَ دائمًا أهون بكثير من تقبيل مشافر أيّ أرنبة. وهكذا انتهى الأمر وذهب أدراج الرياح. وظلّت كاميلا، الأرنبة، تعمل في مقسم الهاتف، وظلّ دون مويْسيس، المعلّم، يذهب يوميًّا إلى مدرسته من دون ملابس داخليّة، وبسترة ممزّقة عند طرفي الكمّين، ومثقوبة عند المرفقين.

ويوم عرض روكي البعر مشروعه على دانيال البوم وخيرمان الأقرع، كان يومًا مشمسًا من أيّام العطلة؛ وكان ذلك في ميدان لعبة الكرات الحديديّة حيث يتبارى بجانبهما باسكوال، عامل الطاحونة، وأنطونيو الكِرش.

قال فجأة: - يا بوم، لِمَ لا تتزوّج سارة من البيدق؟

ومرّت لحظة رأى فيها دانيال البوم أبواب السماء تنفتح أمامه. فكيف لم يخطر في باله من قبل هذا الحلّ، وهو حلّ ملائم وبسيط؟

- أجاب: فعلًا! لِمَ لا يتزوّجان؟

أضاف البعر بصوت خافت: - هذا ما أقوله، ولكي يتزوّج رجل وامرأة يكفيهما أن يتّفقا على أمر من الأمور. وسارة والبيدق متّفقان على كراهيتي، وليس بينهما من يطيق أن يراني، أو حتى أن يتصوّرني.

وبدا لدانيال البوم أنّ روكي البعر مخلوق ذكيّ، فلم يعد بوسعه أن يغيّر نبرة الإعجاب بكلامه، لشدّة ما بدا له دقيقًا ومثيرًا.

قال: - فعلًا!

ثمّ تابع البعر كلامه قائلًا:

- تصوّر يا بوم حال منزلنا وأنا أعيش فيه مع أبي: نحن الاثنان وحدنا من دون سارة! وفي المدرسة، دائمًا يراعيني دونْ مويسيس،

المعلّم، لأنّني شقيق زوجته؛ كما يراعيكما أنتما أيضًا، لأنّكما خير صديقَيْن لشقيق زوجته. أظنّ أنّ كلامي واضح، أليس كذلك؟

كان إصرار البوم على التعجّب يدلّ على حماسته الطاغية لكلام البعر.

- فعلًا!، عاد وقال مرّة أخرى.

- فعلًا!، قال الأقرع أيضًا، وقد أُصيب بعدوى التعجّب.

ثمّ هزّ البوم رأسه مشكّكًا:

- لكنّ المهمّ أن يكونا معًا راغبَين بالزواج فعلًا.

قال البوم: - ولِمَ يمانعان؟ فالبيدق يقول، منذ عشر سنوات، إنّه بحاجة إلى امرأة، وأختك سارة لن تنزعج من أن يصارحها رجل ما بحقيقتها، فهي ليست جميلة.

- إنّها قبيحة مثل الشيطان، وأنا أعرف ذلك. لكنّ الأرنبة قبيحة أيضًا.

قال الأقرع: - وهل لدى سارة وساوس معيّنة من شيء ما؟

قال روكي البعر: - ومن أين لها ذلك؟! فإن سقطت ذبابة في الحليب الذي تشربه، ضحكت وقالت لها: «تهيّئي للرحيل»، ثمّ ابتلعتها مع الحليب، وكأنّ شيئًا لم يكن، وعادت بعدها إلى الضحك.

ظلّ الأصدقاء الثلاثة صامتين للحظات، إلى أن قال دانيال البوم:

- لِمَ لا نرتّب لقاء بينهما؟

فسأله البعر: - كيف؟

نهض البوم عن الأرض بقفزة واحدة، ونفض براحته الغبار الذي علق بقفا سرواله، وقال:

- تعال معي، وسوف ترى.

خرج الأصدقاء الثلاثة من ميدان لعبة الكرات الحديديّة إلى الطريق. وكان مظهر دانيال يدلّ على حماسته الشديدة.

– نكتب رسالة إلى البيدق، كما لو أنّها من سارة، أتفهمني؟ إنّ أختك تخرج كلّ مساء إلى باب المنزل كي تتفرّج على المارّة. نقول للبيدق في الرسالة إنّ سارة تنتظره هناك، وحينما يذهب ويراها، يظنّ أنّها تنتظره فعلًا.

تجهَّم وجه روكي البعر وبدت عليه علامات النفور، مثلما تبدو عليه عادة، عندما لا يقتنع بأمر ما. فقال مجادلًا:

– وإذا عرف البيدق خطّنا؟

رد عليه الأقرع بحماسة: – نكتب الرسالة بخطّ مغاير لخطّنا.

ثمّ أضاف البعر قائلًا: – وإذا أحبَّ أن يُطلِع سارة على الرسالة؟

تروّى دانيال لحظة، ثمّ قال:

– نشترط عليه في الرسالة، على لسان سارة طبعًا، أن يُحرقها قبل أن يذهب للقائها، وألّا يحدّثها عنها أبدًا، إن كان راغبًا في ألّا تموت البنت خجلًا، وألّا تمتنع عن النظر إلى وجهه ثانية.

رد عليه البعر بعناد: – وإذا رفض حرقها؟

قال البوم: – سوف يحرقها. فالبيدق مقرف المظهر ويخشى أن يظلّ بلا امرأة. والآن أصبح كهلًا، وهو يعرف أنّ فمه معوجّ، وأنّه قبيح، وأنّ النساء لا يرغبن في تقبيل أذن الرجل إن رغبن في تقبيل فمه، كما سبق لكاميلا الأرنبة أن قالت له بصراحة.

علّق البعر، وكأنّه يتحدّث إلى نفسه:

– لن يعترض البيدق بسبب ما جرى له من قبل مع كاميلا، فما زال في نفسه بعض الخوف منذ أن صدّته. أجل، إنّك محقّ.

وشيئًا فشيئًا أخذت الثقة تنبعث من جديد في أعماق صدر البعر العريض. وبدأ يرى نفسه متحرّرًا من سارة ومن تهديد عصا البيدق الدائم فوق رأسه، في المدرسة، متمتّعًا باستقلاليّة لم يَعهَدها من قبل.

- متى نكتب الرسالة إذًا؟.
- الآن.

كانوا قبالة معمل الجبن، فدخلوا إليه. وتناول البوم ورقة وقلمًا وكتب بحروف مطبعيّة كبيرة: «دونْ مويسيس، إن كنت تحتاج امرأة، فأنا أحتاج رجلًا. أنتظرك في السابعة مساء على باب منزلي. لا تذكر لي هذه الرسالة أبدًا، بل احْرقْها، وإلّا متُّ خجلًا، وامتنعتُ عن النظر إلى وجهك ثانية. تظاهر بأنّك التقيتني صدفة. سارة».

وعند موعد الغداء، دسّ خيرمان الأقرع الرسالة من تحت باب منزل المعلّم، وفي السابعة إلّا ربع من مساء ذلك اليوم نفسه، دخل برفقة دانيال البوم إلى منزل روكي البعر كي يراقبوا جميعًا مسار الأحداث من كوّة مستودع التبن.

كانت الخطّة معدّة بإحكام، لكنّها كادت أن تفشل فشلًا ذريعًا. فلمّا وصل صديقا البعر إلى المنزل، كانت سارة، جريًا على عادتها، تحبس شقيقها في مستودع التبن وتعاقبه. كانت الساعة السابعة إلّا ربع تمامًا، وكان دانيال البوم يزعم أنّ البيدق لن يتأخّر ولا دقيقة واحدة، نظرًا لحاجته الماسّة لامرأة، منذ عشر سنوات.

كان صوت سارة ينساب عبر بيت الدرج فيسمعه دانيال البوم بوضوح. ورغم أنّه كان قد سمع من قبل تراتيلها تلك مليون مرّة، فلم يستطع هذه المرّة أن يتجنّب الإحساس بالرعشة:

- يومَ أحدّق فيكَ بعينيَّ الجليديّتين الجاحظتين رعبًا من الموت الوشيك وأنظر إليكَ نظرات الواهن المحتضر...

ولا بدّ أنّ البعر كان يعرف أنّ الساعة تقترب من السابعة، لأنّه كان يجيب سارة بتعجّل، من دون أن يمنحها الوقت الكافي لإنهاء جملتها:

- انظر إليّ بعين الرحمة يا يسوع الرحيم.

وكفّت سارة عن الترتيل، عندما سمعت وقع خطوات على الدرج، فالتفتت نحوه ورأت البوم والأقرع يصعدانه.

قال البوم بلهفة: - مرحبًا يا سارة، أرجوكِ، اِصفحي عن البعر. فإنّه لن يكرّر فعلته.

- وما أدراك أنت، أيها الفضوليّ، بما فعل؟

- لا بدّ وأنّه فِعل سيّئ، فأنتِ لا تعاقبينه إلّا لسبب وجيه. أنتِ عادلة.

فابتسمت سارة راضية وقالت له: انتظر لحظة.

ثمّ استأنفت الترتيل متعجّلة، وهي تجتهد في الوصول بأسرع ما يمكن إلى نهاية العقاب.

- يومَ تنطفئُ حواسّي وتغيبُ الدنيا وما فيها عن ناظريّ وأئنُّ بين آلام الاحتضار وعُجالة الموت...

- انظر إليّ بعين الرحمة يا يسوع الرحيم.

- سارة، هل انتهيتِ؟

أغلقت سارة كتاب الصلوات.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- نعم.

- هيّا، افتحي الباب إذًا!

- هل اتّعظتَ؟

- نعم يا سارة. لقد أَخَفْتِني اليوم كثيرًا.

نهضت سارة وفتحت باب مستودع التبن وقد بدت عليها علامات الرضا. ثمّ بدأت تهبط الدرج ببطء، وعند الدرجة الأولى، التفتت إليهم.

قالت وهي ترتعش لهاجس مبهم انتابها فجأة: - إيّاكم وارتكاب الحماقات.

وفورًا اندفع الأصدقاء الثلاثة نحو كوّة مستودع التبن من دون أن يتفوّهوا بأيّ كلمة. وأزاح البعر بيده على الفور شبكة العنكبوت التي تغطّي الكوّة وأطلّ برأسه منها إلى الشارع. ثم سأل البوم متلهّفًا:

- هل خرجت؟

- إنّها تُخرِج الكرسيّ ولوازم الخياطة. وهي الآن تجلس -فجأة صار صوته أكثر لجاجة- وها هو البيدق قادم عند ناصية الشارع!

أخذ قلب البوم يرقص في صدره بجنون فاق الجنون الذي اعتراه يومَ سمع صفير القطار السريع يدخل النفق، وهو ينتظره في الداخل بلا سروال، كما فاق أيضًا الجنون الذي أصابه يومَ سألت أمُّه أباه، بلهجة هازئة غريبة، إنْ كان الدوق الكبير مجرّد ضيف مدلّل في منزلهم. فما اعتراه اليوم أكثر إثارة وخطورة من كلّ ما سبق. أطلّ البوم برأسه من بين رأسَيّ البعر والأقرع، فرأى دونْ مويسيس يتوقّف قبالة سارة، وقد انحنى بقامته قليلًا ووضع يديه خلف ظهره، وراح يغمز لها بعينه ويبتسم ابتسامة وصلت بشِدقه الأيسر حتّى أذنه. أمّا سارة فقد أخذت تنظر إليه بدهشة، ثمّ قالت له أخيرًا وهي تتلعثم، بعدما أحسّت بالارتباك من كثرة غمزاته وابتساماته الجانبيّة:

- مساء الخير يا دونْ مويسيس. ماذا عندك من أخبار طيّبة؟

حينذاك جلس على المقعد الحجريّ بجانبها، وعاد يبتسم لها ابتساماته الجانبيّة المعوجّة، تعبيرًا عن سروره برؤيتها.

كانت سارة تراقبه مذهولةً.

- ها أنا ذا هنا، أيّتها الصغيرة! لم أتأخّر عن الموعد. أليس كذلك؟ أمّا ما تبقّى من الأمر، فلن أذكر عنه كلمة واحدة. لا تقلقي!

كان دونْ مويسيس متحدّثًا بارعًا، يجيد الكلام. وكان يُعتبَر إلى جانب دونْ خوسيه، الخوريّ، ودونْ رامون، العمدة، من خيرة المتحدّثين في القرية، مع أنّ أهلها لم يتّفقوا يومًا على الأفضل بين هؤلاء الثلاثة.

أثار حيرةَ سارة صوتُ البيدق العذب القريب من مسمعيها، وكذلك لغتُه الغامضة التي كان يستعملها.

– هل... هل بك شيء اليوم يا دونْ مويسيس؟

عاد يغمز لها بعينه، مشيرًا إلى التفاهم والانسجام الذي يفترضه بينهما، ولم يجِبْها بشيء.

هناك في الأعلى، في كوّة مستودع التبن، همس البعر في أذن البوم قائلًا:

– إنّه خنزير ثرثار. فهو يكلّمها عمّا لا يجوز له أن يكلّمها به.

همس البوم: – انظر!

مال البيدق في هذه اللحظة على سارة وأمسك يدها بجرأة وقال:

– إن أكثر ما يعجبني في المرأة يا سارة هو الصدق؛ فشكرًا لكِ. وأنا وأنتِ بغنًى عن اللفّ والدوران.

احمرّ وجه البنت من كلامه حتى بدا أكثر حمرة من شعرها. وفجأة بدت الفطساء وهي تقترب منهما، حاملة على ذراعها جرّة الماء، فسحبت سارة يدها من يد البيدق لمّا رأتها.

قالت بهمس، متمنّعة وهي الراغبة: – اتّقِ الله يا دون مويسيس! فقد يرانا الناس.

هناك في الأعلى، في كوّة مستودع التبن، أخذ الصبيان الثلاثة يبتسمون وحدهم كالبلهاء، من دون أن يوجّه أيّ منهم نظَرَهُ نحو الآخر.

ولمّا توارت الفطساء عن الأنظار بعد المنعطف، عاد البيدق إلى مهمّته.

– هل تسمحين لي بأن أساعدك في رتق هذه القطعة التي بين يديك؟

وأمسك البيدق بيديها الاثنتين. فتنازعا لحظة، ثمّ أخفت سارة القطعة خلف ظهرها بحركة عفويّة، خاطفة، وقد أحسّت بالضيق من تورّد وجهها خجلًا.

صاحت غاضبة: – ابعد يديك يا دونْ مويسيس!

ضحك البعر ضحكة خافتة، وهو هناك في الأعلى، في مستودع التبن، وقال:

– ها، ها، ها. إنّه أحد سراويلها الداخليّة.

ضحك البوم والأقرع أيضًا. إلّا أنّ اضطراب سارة والغضب الذي أبدته، لم يُفلِحا في إخفاء تلذّذها العميق بما يجري. فأخذ البيدق يُمطِرها بأقواله الجميلة عن عينيها وفمها وشعرها، من دون أن يسمح لها بالتقاط أنفاسها، حتّى صار يُلْحَظُ على مسافة فرسخ بأكمله أنّ قلب سارة البكر، المحروم من طعم الهوى، يذوب كالجليد تحت الشمس. ولمّا انتهى المعلّم من ترتيل كلام الغزل الذي في جعبته، ظلّ يحدّق إلى سارة عن قرب وبثبات.

قال: – لِنَرَ إنْ صرتِ تعرفين شكل عينيك، أيّتها الصغيرة؟.

ضحكت سارة مذهولة وقالت:

– ما أعجب ما تقول يا دونْ مويسيس.

لكنّ البيدق ألحّ في طلبه. وكان يبدو جليًّا أنّ سارة تتجنّب قول أيّ شيء كيلا تخيّب أمله فيها بعباراتها السوقيّة المعهودة عنها، وهو الذي يُعَدّ من خيرة المتحدّثين في القرية. ولا ريب في أنّ سارة كانت راغبة في أن تتذكّر شيئًا جميلًا قرأته ذات مرّة في أحد الكتب، ويكون رفيع المستوى وشاعريًّا، لكنّ أوّل ما تبادر إلى ذهنها، كان أكثر ما ردّدته في حياتها، فقالت:

– حسنًا... عيناي... عيناي جليديّتان، جاحظتان، يا دونْ مويسيس.

ثمّ عادت وضحكت قليلا، ضحكة مرتعشة.

لم تَعِ سارة معنى ما قالته، فهي محدودة الذكاء. كانت تعتقد أنّ تلك الصفات، لمجرّد ورودها في كتاب الصلوات، تلائم الملائكة أكثر ممّا تلائم البشر، لذا بدت في غاية الارتياح. وفسّرت علامات الاستغراب

التي ارتسمت على وجه المعلّم تفسيرًا إيجابيًّا، معتبرة أنها دليل على إدراكه المباغت أنّها ليست فظّة وقاسية القلب مثلما كان يتصوّر، بلا ريب. أمّا البعر، وهو هناك في الأعلى، فقد أبدى بعض القلق:

- لا بدّ أنّ سارة تفوّهت بحماقة من حماقاتها. أليس كذلك؟

فأوضح له البوم قائلًا:

- العيون الجليديّة، الجاحظة، هي عيون الأموات.

وأحسّ روكي البعر برغبة عارمة في رمي أخته بقطعة من الطوب على رأسها. مع ذلك، فقد ابتسم البيدق ابتسامة وصلت بشِدقِه الأيمن حتّى أذنه، بعد أن استفاق من دهشته العابرة. ولا بدّ أنّه كان بحاجة ماسّة لأيّ امرأة، حتّى يتغاضى عمّا سمعه منها ويسكت. ثمّ عاد يناغيها مناغاةً أشدّ حرارة، حتّى إنّها بعد ربع ساعة من الزمن لم تعد تدرك ما يدور حولها، واحمرّت وجنتاها، وأخذت تحدّق بعينيها إلى الفراغ كأنّها تمشي في نومها. وأراد البيدق أن يتحقّق من مشاعر المرأة التي يحتاجها، فقال لها:

- إنّي أحبّك يا سارة. هل تعلمين ذلك؟ وسوف أحبّك إلى أبد الآبدين. وسوف آتي كلّ يوم لرؤيتك في مثل هذه الساعة. وأنتِ، ماذا تقولين؟ وأمسك بيدها مرّة أخرى، وقد بدا عليه الهيام وتابع:- أتبادلينني الحبّ نفسه إلى الأبد؟

نظرت إليه سارة مذهولة، وأخذت الكلمات تنساب من فمها بسلاسة غريبة، وكأنّها ليست هي من يتحدّث، بل صوتٌ آخر طالع من أعماق نفسها.

- سوف أحبّك يا دون مويسيس، إلى أن تنطفئ حواسّي وتغيب الدنيا وما فيها عن ناظريّ، وأئنّ بين آلام الاحتضار وعُجالة الموت.

- هكذا!، قال المعلّم والحماسة تأخذه، فشدّ بيديه على يديها،

وغمز لها بعينه مرّتين، واعوجّ شدقه حتّى أذنه أربع مرات، ثمّ نهض وانصرف. وقبل أن يصل إلى ناصية الشارع، التفت نحو سارة عدّة مرّات، وكان في كلّ مرّة يبتسم لها مرتعشًا.

هكذا أصبح البيدق وسارة خطيبَين، إلّا أنّهما لم يتكرّما على دانيال البوم بشيء من الرعاية، رغم الدور الكبير الذي قام به في التقريب بينهما. كان قد مرّ على خطوبتهما عام ونصف العام، ولم يخطر في بالهما تحديد موعد الزواج إلّا الآن، حينما بات عليه أن يذهب إلى المدرسة في المدينة كي يبدأ طريق التقدّم، فاختارا الثاني من نوفمبر، يوم «ذكرى الأموات»! لم يرُق ذلك الموعد أيضًا لأندريس «الرجل الذي لا يُرى جانبيًّا»، وقال من دون مواربة:

- إنّ الرجال الذين يبتغون زوجة يتزوّجون في الربيع، أمّا الذين يبتغون خادمة فيتزوّجون في الشتاء. وهذه قاعدة لا تخطئ أبدًا.

في عيد الميلاد التالي كانت سارة قد أصبحت طيّبة المزاج. فمنذ خطوبتها للبيدق رقّ طبعها ولان، حتّى إنّها منذ ذلك الحين، لم تحبس البعر في مستودع التبن لتتلو عليه «صلاة المحتضر» إلّا مرّتين. وهو مكسب لا يُستهان به. ثمّ إنّ البعر صار ينال علامات أفضل في المدرسة، ولم يعد يُضطَرّ، ولا مرّة واحدة، لأن يرفع فوق رأسه مجلّد «التاريخ المقدّس»، بصوره الملونة بشتّى الألوان، والتي يتجاوز عددها المائة.

أما دانيال البوم فلم يخرج من الوضع الجديد بأيّ مكسب يُذكر.

وكان أحيانًا يندم على تدخّله في تلك المسألة، ذلك أنّ رفعه لمجلّد «التاريخ المقدّس» فوق رأسه، وهو يرى البعر يرفعه مثله، كان أهون عليه من أن يرفعه وحيدًا، بلا صحبة.

في نهار ليلة الميلاد سألت سارة البعر، بمزاج رائق، وهي تقلّب الدجاجة التي تُشوى في الفرن:

– أخبرني يا روكي، أأَنت من كتب رسالة إلى المعلّم تقول له فيها إنّني أحبّه؟

أجاب البعر: لا، يا سارة.

– فعلًا؟

– أقسم لك على ذلك، يا سارة.

أحرقت النار إحدى أصابعها، فوضعتها فورًا في فمها، ولمّا أخرجتها، قالت للبعر:

– كنت أظنّ ذلك. ولو أنّك أنتَ من قمت بهذا العمل، لكان العمل الحسن، الوحيد، الذي قمت به في حياتك. هيّا، اغرب عن وجهي، أيّها الأرعن!

الفصل السادس عشر

كان دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، لا يوفّر وهو على المنبر أيّ وسيلة من وسائل الإقناع إلّا ويلجأ إليها، فيضمّ قبضته ويرفع صوته ويوبّخ الحاضرين ويتصبّب عرقًا من جبهته وعنقه، ويشدّ ما تبقّى لهُ من شعره الأبيض، ويتجوّل بين المقاعد رافعًا إصبع الاتهام في وجه هذا وذاك، بل إنّه في صباح أحد الأيّام مزّق ثوبه الكهنوتيّ من أعلاه إلى أسفله غضبًا، في مشهد مهيب سيبقى في ذاكرة الوادي إلى الأبد، إذ كان من أعنف المشاهد وأكثرها تأثيرًا في النفوس. مع ذلك فإنّ الناس، لا سيّما الرجال منهم، لم يعيروه اهتمامًا كبيرًا. وإذا لم يستحسنوا قُدّاسه، نفروا من عظته، عابسين، مقطّبي الجبين. فتعاليم الربّ لا تأمر المؤمنين بالإصغاء إلى عظة مطوّلة ومملّة في كلّ يوم أحد أو في كلّ مناسبة دينيّة. مع ذلك، فإنّ دونْ خوسيه، الخوريّ، كان يبالغ في تطبيق تلك التعاليم، حتّى قِيل عنه إنّه يسعى لأن يكون كاثوليكيًّا أكثر من البابا؛ وهذا لا يليق بأحد حتّى يليق بالكهنة، لا سيّما إذا كانوا من طينة دونْ خوسيه، مفرطين في رأفتهم، متفهّمين دائمًا ضعف الإنسان.

كان رجال الوادي على شيء من الشدّة والقسوة والجحود، لكنّهم أيضًا يتحلّون بروح رياضيّة صادقة، تُضفي عليهم مسحة إنسانيّة جليّة. فكان منتقدو دونْ خوسيه في خَطابَته يقولون إنّ الرجل الذي لا يكفّ عن تكرار عبارة «في الواقع» أثناء كلامه، مرّات ومرّات، لا يمكن اعتباره خطيبًا مفوّهًا. ولكنْ ما المانع في ذلك حقًّا؟ فالمرء يمكنه بالطبع أن

يكون خطيبًا مفوّهًا من دون أن يكفّ عن تكرار عبارة «في الواقع» أثناء حديثه، ولا تناقض أبدًا بين الأمرين في نظر البوم. مع ذلك، فإنّ بعض الناس لم يروا الأمر هكذا؛ وإن هم ذهبوا لحضور عظة دونْ خوسيه، فليس إلّا كي يتراهنوا على عدد المرّات التي يتلفّظ فيها بعبارته الشهيرة وهو على المنبر، ومعرفة إن كان العدد زوجيًا أم فرديًا. كانت الفليفلة الكبرى تؤكّد أنّ دونْ خوسيه يردّد عبارته عمدًا، وأنّه يعرف أنّ الرجال اعتادوا المراهنة على العدد الزوجي أو الفردي أثناء العظة، لكنّه يفضّل أن يظلّ الوضع كما هو، فبهذه الطريقة يصغون إليه على الأقلّ، وبين المرّة والمرّة الأخرى التي يقول فيها «في الواقع» قد يعلق في أذهانهم شيء ما من موضوع العظة. أمّا بخلاف ذلك، فإنّه يخاطر بتركهم كي يشردوا وهو يتكلّم، ويفكّروا بالعشب والمطر والذرة الصفراء والبقر، وهذا إن حدث فهو شرٌّ لا سبيل للخلاص منه.

كان لدى أهل الوادي نزعة فرديّة متأصّلة في نفوسهم. وما جانب الصوابُ دونْ رامون، العمدة، حينما أكّد أنّ أيّ فرد في القرية يفضّل الموت على أن يحرّك إصبعًا من أصابعه في سبيل الصالح العام. كان الناس يعيشون منعزلين عن بعضهم، وكلٌّ منهم لا يفكّر إلّا في نفسه. وإذا ما أردنا قول الحقّ، فإنّ نزعة أهل الوادي الفرديّة، الطاغية، لم تكن تنحسر إلّا مساء أيّام الآحاد، عند الغروب؛ فحينها يلتقي الشبّان والصبايا أزواجًا أزواجًا، ويلجأون إلى المروج أو الأحراش، ويجلس الكبار في الحانات كي يدخّنوا السجائر ويتناولوا الشراب. وذلك هو شرّهم العظيم، فهم لا يتخلّون عن نزعتهم الفرديّة إلّا لإرضاء غرائزهم الأكثر انحطاطًا.

في صباح أحد الأيّام، شنّ دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، وهو على المنبر، هجومًا عنيفًا على الشبّان والصبايا الذين يلجأون إلى المروج

أو الأحراش عند المغيب، وعلى النساء اللواتي يلتصقن بالرجال أثناء الرقص، وعلى الرجال الذين يسكرون في حانة تشانو ويقامرون فيها حتّى على ملابسهم الداخليّة، وأخيرًا على أولئك الذين يجزّون العشب اليابس ويقلبون حقول البطاطا ويسمّدون حقول الذرة الصفراء، في العطل والأعياد. وكان ذلك اليوم هو اليوم الذي مزّق فيه دونْ خوسيه ثوبه الكهنوتيّ من أعلاه إلى أسفله، وهو في سَوْرَةٍ من الغضب. وفي المحصّلة لم يسلَم من لسانه أحد، لأنّ عدد الذين يمضون أيّام العطلة من دون أن يلجأوا إلى المروج أو الأحراش، أو من دون أن يلتصقوا ببعضهم أثناء الرقص، أو من دون أن يسكروا أو يلعبوا القمار في حانة تشانو، أو من دون أن يجزّوا العشب اليابس أو أن يُسمّدوا حقول الذرة الصفراء أو أن يقلبوا حقول البطاطا، كان يُعَدّ على أصابع اليد الواحدة. ولقد أكّد السيّد الخوريّ «أنّه في يوم الحساب لن يقف على ميمنة الربّ إلّا عددٌ ضئيلٌ من أهل القرية، إن لم تُصلَح العادات السائدة فيها إصلاحًا جذريًّا».

بعد انتهاء القدّاس فورًا، تقدّمت مجموعة من النساء برئاسة الفليفلة الكبرى نحو الخوريّ وهو في المَوْهِف وبادرت الفليفلة الكبرى بالقول:

– أخبرنا يا أبانا، هل نقدر نحن على تغيير هذه العادات الفاسدة؟

تنحنح الكاهن العجوز وقد بدت عليه الدهشة، إذ لم يتوقّع أن يكون ردّ الفعل بهذه السرعة. ثمّ استطلع تلك الوجوه النيّرة بنور الربّ، وجهًا وجهًا، فعاد وتنحنح من جديد.

كان يتريّث في أمره. ثم قال أخيرًا:

– نعم يا بناتي، إنّكنّ قادرات على ذلك، إنْ رغبتنّ.

عند باب الكنيسة، كان أنطونيو الكِرش، يسدّد لأندريه الإسكافي

بيسيتَتَيْن لأنّ دونْ خوسيه كرّر عبارة «في الواقع» اثنتين وأربعين مرّة في عظته، وأنطونيو كان قد راهن على العدد الفردي.

أمّا في المَوهِف، فقد أضاف دونْ خوسيه قائلًا:

– يُمكننا أن ننشئ مركزًا يتسلّى فيه الشباب من دون أن يثيروا غضب الربّ. وذلك ليس بالعسير علينا، إن توفّرت الإرادة الطيّبة لدى الجميع. بوسعنا أن نخصّص لهم صالة كبيرة فيها جميع أنواع التسلية، وفي أيّام العطل والآحاد نعرض لهم أفلامًا سينمائيّة في الساعة السادسة مساءً، وبالطبع لن تكون إلّا أفلامًا ذات مضمون أخلاقيّ، كاثوليكيّ خالص.

تحمّست الفليفلة الكبرى لِما قاله دونْ خوسيه، فقالت:

– والمكان يمكن أن يكون حظيرة بانتشو، فهو يريد بيعها لأنّه لم يعد لديه ماشية. وقد نتمكّن نحن من استئجارها، يا دونْ خوسيه.

تدخّلت كاتالينا الأرنبة وقالت:

– لن يتخلّى لنا الملحد عن حظيرته يا أبانا. إنّه رجل عديم الذمّة، أفّاق، ويفضّل الموت على أن يترك لنا الحظيرة لغاية سامية مثل غايتنا.

كان دانيال البوم، بعد حضوره القدّاس، يستمع إلى محادثة دونْ خوسيه مع النساء، وهو فاغر الفم. كان يفكّر بالانصراف، لكنّ فكرة إنشاء السينما في القرية استرعت انتباهه، فظلّ في مكانه.

حاول دونْ خوسيه أن يهدّئ كاتالينا الأرنبة فقال:

– لا تطلقي الأحكام على الناس بتهوّر يا ابنتي. فبانتشو في أعماقه ليس سيّئًا.

وهبّت الفليفلة الكبرى في وجهه، كما لو أنّ شيئًا ما وخَزها:

– أبتِ، وهل يمكن لامرئٍ أن يكون طيّبًا وهو لا يؤمن بالله؟

فتدخّلت كاميلا، الأرنبة الأخرى، بعد أن أخذت نفسًا عميقًا وامتلأ صدرها الضخم بالهواء، وقالت بنبرة قاطعة:

– إنّ بانتشو على استعداد لأن يبيع نفسه للشيطان مقابل بيسيتا واحدة. وأنا على ثقةٍ مطلقة ممّا أقول.

ثمّ تدخّلت ريتا البلهاء، زوجة الإسكافي، فقالت هائجة:

– ليس الشيطان بحاجة لأن يدفع له حتّى ريالين اثنين، فنفس الشيطان عينها هبة من هذا الأفّاق. وهذا شيء لا يخفى على أحد.

وأخيرًا، فرض دونْ خوسيه سلطته على الجميع وحسم الأمر، فعيّن لجنة برئاسة الفليفلة الكبرى، غايتها متابعة المعاملات الإداريّة اللازمة مع بانتشو الملحد، والذهاب إلى المدينة لشراء آلة العرض السينمائيّ. بدا القرار للجميع رائعًا، ولمّا أنهى دونْ خوسيه حديثه المطوّل، أعلن أنّ تبرّعات الشهرين القادمين ستُخصّص لشراء ثوب جديد للكاهن. امتدح الجميع الفكرة، وبادرت الفليفلة الكبرى على الفور إلى التبرّع من جيبها بدورو واحد، معتقدة بوجوب ذلك عليها.

وبعد ثلاثة أشهر أصبحت حظيرة بانتشو الملحد، وقد طُليت بالكلس ونُظّفت وعُقّمت، صالة سينما القرية، ودُشّنت بعرض لاقى إقبالًا منقطع النظير. وخلت الجبال والأحراش من الشبّان والصبايا إلّا في ما ندر من بعض المتمرّدين. لكنّ مشكلة كبيرة واجهت المنظّمين بعد مرور أسبوعين، إذ لم يعد يتوفّر لهم المزيد من الأفلام «الكاثوليكيّة الخالصة». فخُفّفت القيود قليلًا، واضطرّوا لعرض ما تيسّر لهم من الأفلام، حتّى وإن كانت مبتذلة. وكان دونْ خوسيه يواسي نفسه متعلّقًا بمبدأ أهون الشرّين، مثلما يتعلّق الغريق بالقشّة.

كان يقول: – يُستحسن دائمًا أن يظلّوا مجتمعين هنا، على أن يتفرّقوا في المروج أزواجًا أزواجًا، ويرتكبوا ما لا يجوز.

ومرّ شهر آخر ازدادت فيه الأفلام المُرسلة من المدينة ابتذالًا. ثمّ إنّ الشبّان والصبايا الذين كانوا من قبل يقصدون المروج والأحراش عند المغيب، صاروا يستغلّون عتمة الصالة ويتمادون كثيرًا في غزلهم.

ذات مساء أُنيرَت الصالة فجأة أثناء العرض، فضُبِط باسكوال، عامل الطاحونة، وقد أجلس خطيبته على ركبتيه. ثمّ ساءت الأحوال كثيرًا، حتّى إنّ دونْ خوسيه استدعى في نهاية شهر أكتوبر اللجنة للاجتماع في منزله.

– لا بدّ لنا من اتّخاذ إجراءات عاجلة. فلا الأفلام عادت، في الواقع، تتحلّى بمضمونها الأخلاقيّ، ولا المتفرّجون يلتزمون في الصالة بالحشمة المطلوبة. لقد وقعنا في فخّ ما كنّا نكافحه.

فقالت الفليفلة الكبرى بلهجة الواثق من نفسه: – دعنا ننير الصالة كلّها ونراقب الأفلام قبل عرضها بصرامة.

وبعد مداولات مطوّلة، استقرّ الرأي على اقتراح الفليفلة الكبرى. وشُكّلت لجنة لرقابة الأفلام مكوّنة من دونْ خوسيه، الخوريّ، والفليفلة الكبرى، وترينو، قَنْدَلَفْتُ الكنيسة. وصار الثلاثة يجتمعون كلّ يوم سبت في الصالة ويستعرضون الفيلم الذي سيُعرض في اليوم التالي.

وذات مساء، وهم يراقبون أحد الأفلام، استرعى انتباههم مشهد، بدا لهم مريبًا، فأوقفوا آلة العرض.

قالت الفليفلة الكبرى: – أرى أنّ هذه السافلة، تكشف عن ساقيها أكثر ممّا ينبغي، يا دونْ خوسيه.

قال دونْ خوسيه: وهذا ما أراه أنا أيضًا.

ولمّا التفت نحو ترينو، القندلفت، رآه يحدّق إلى صورة المرأة، فاغر الفم، مفتوح العينين، فحذّره قائلًا: – ترينو، إمّا أن تكفّ عن التحديق هكذا، أو أستبعدك من لجنة الرقابة.

كان ترينو رجلًا مسكينًا، لا حول له ولا قوّة، نظراته باهتة، خالية من المعنى، وفوق ذلك كان أمردَ؛ فاجتمع هذا كلّه فيه ليضفي على

وجهه تعابير البلادة والغباء. وإذا ما مشى، اتّضحت بلادته أكثر، ففي كلّ خطوة يخطوها يبدو وكأنّه يجاهد بذراعيه لإزاحة الهواء الذي تحتاجه رئتاه. كان ترينو كارثة حقيقيّة، لولا أنّ القدر يمنح كلّ امرئ، مهما تدنو مكانته، نصيبًا ما. وكان نصيب ترينو، القندلفت، أنّه بارع في العزف على الأرغن.

ونتيجة للتوبيخ الذي تلقّاه ترينو من الكاهن، خفض عينيه وابتسم ببلاهة وهو حزين. لقد كان الخوري محقًّا، ولكن يا إلهي! إنّ ساقيّ تلك المرأة في الصورة رائعة، ولا يُرى الكثير مثلهما في الواقع.

كان دونْ خوسيه، الخوريّ، يرى أنّ الصعوبات تتزايد أمامه يومًا بعد يوم، وأنّه من العسير الوقوف في وجه أهل الوادي كلّهم بشهواتهم الغريزيّة. فحتّى ترينو، رغم أنّه عضوٌ في لجنة مراقبة الأفلام وقندلفتٌ أيضًا، فقد ارتكب إثم الرغبة في تلك النساء المهيبات اللواتي يكشفن عن سيقانهنّ في الأفلام بكلّ وقاحة، وسوّلت له نفسه التفكير بهنّ. إنّها مهمّة شاقّة، ولن يقوى دونْ خوسيه على القيام بها، فهو مُتعَب، وقد غدا عجوزًا.

استقبل أهل القرية بغضب المصابيح التي وُزّعت في أرجاء الصالة، وأُشعِلت أثناء العرض. ففي اليوم الأوّل عبّروا عن سخطهم منها بالصفير، وفي اليوم الثاني كسّروها رميًا بحبّات البطاطا. فاجتمعت اللجنة من جديد وقرّرت أن تكون المصابيح حمراء اللون كي لا تشوّش الرؤية. لكنّ الناس حينها عاتبوا الفليفلة الكبرى على حذف بعض المشاهد من الأفلام، وكان باسكوالون، عامل الطاحونة، أوّل من بدأ بالعصيان.

قال: - انظري يا دونيا لولا، إن حذفتم مشاهد السيقان والقبل بعد الآن، فلن أعود أبدًا إلى السينما.

وأيّده بعض الشبّان الآخرين وقالوا:

- إمّا أن تعرضوا الأفلام كاملة من دون حذف أيّ مشهد، أو نعود إلى الأحراش.

فاجتمعت اللجنة مرّة أخرى، وكان دونْ خوسيه في غاية الانفعال:

- انتهى أمر السينما وانتهى معها كلّ شيء. أقترح على اللجنة أن تعرض آلة العرض السينمائيّ للبيع على بلديّات المناطق المجاورة.

- لكنّا بذلك نبيع فرصة أخرى لارتكاب الإثم، يا دونْ خوسيه.

وأطرق الكاهن برأسه حزينًا. فالفليفلة محقّة فيما قالت، بل إنّها أكثر من محقّة هذه المرّة. وبيع آلة العرض لن يكون إلا اتّجارًا بالإثم.

فقال متجهّمًا: - نحرقها إذًا.

وفي اليوم التالي، أُحرِقَتْ آلة العرض في فناء منزل الكاهن، بحضور أعضاء اللجنة جميعًا. وبجانب رماد الآلة، أعلنت الفليفلة الكبرى، وهي في ذروة حماستها الدينية، عن تمسّكها بالأخلاق وعزمها الراسخ على ألّا ترتاح من الكفاح في سبيلها حتّى تنتصر وتعمّ الوادي كلّه.

قالت للخوريّ وهي تودّعه: - دونْ خوسيه، كن على يقين من أنّني سأظلّ أكافح فساد الأخلاق في هذا الوادي. وأنا أعرف بأيّ طريقة سأكافحه.

وفي يوم الأحد التالي، أمسكت الفليفلة الكبرى عند المغيب بمصباحها اليدويّ، وخرجت وحيدة تجوب الحقول والتلال. وخلف أشجار توت العليق، في أقصى الأماكن المخفيّة، المظلمة، عثرت على زوج من العشّاق يتغازلان، فسلّطت ضوء المصباح على وجهيهما الذاهلين.

- باسكوالون وإيلينا، أنتما ترتكبان إثمًا عظيمًا. واكتفت بهذا القول، ثمّ انسحبت.

وهكذا، جابت الأرجاء كلّها بلا كلل، وهي تردّد تحذيرها الرهيب بلا ملل:

– فلان وفلانة، أنتما ترتكبان إثمًا عظيمًا.

وكانت تقول في نفسها: «ما دامت ضمائر شبّان القرية وصباياها نائمة، فأنا أتحدّث بالنيابة عنها». وهكذا حمّلت نفسها أعباء مهمّة شاقّة، لكنّها لا تخلو في الوقت عينه من المتعة.

وصبر شبّان القرية على تدخّل الفليفلة الكبرى في شؤونهم الشخصيّة ثلاثة آحاد متتالية، لكنّهم في يوم الأحد الرابع تصدّوا لها، إذ أحاطوا بها جميعًا في أحد الحقول وحاصروها، فارتأى فريق منهم ضربها، وارتأى فريق ثانٍ أن تُجرّد من ملابسها فتُربَط إلى إحدى الشجرات وتُترك في العراء فريسة للبرد، طوال الليل. وأخيرًا فرض فريق ثالث رأيه بأن ارتأى أن يُلقى بها على رأسها إلى نهر التشورّو. تركت الفليفلة الكبرى المصباح يسقط على الأرض وهي كسيرة القلب، يائسة، واستعدّت للانضمام إلى قافلة شهداء المسيحيّة الطويلة، رغم تباكيها بين الفينة والفينة، والتماسها شيئًا من الرحمة بين الشهقة والشهقة.

ساقوها إلى الجسر وهم يطلقون في وجهها الشتائم والصراخ. وكان ماء نهر التشورّو ينصبّ عنيفًا في بركة الإنكليزيّ، وفي عتمة الوادي يسود جوّ كئيب، منذر بالشؤم. كان جَمْعُ الشبّان هائجًا حماسةً، فكلّ شيء يسير إلى غايته، حتّى إنّ الفليفلة الكبرى نفسها صلّت في سرّها صلاة التوبة.

وإن لم تَبت الفليفلة الكبرى، أخيرًا، ليلتها في قاع النهر، فذلك بفضل كينو الأبتر، مع أنّه والمرحومة ماريوكا أكلا الطبيخ قبل موعده، بحسب ما كانت تقول هي. ولكنْ، على ما يبدو، فإنّ كينو الأبتر كان لا يزال لديه قبس من شعلة النخوة والمروءة، فحال بين الشبّان والفليفلة

الكبرى بحرص شديد، ودافع عنها كما يدافع الرجال، حتّى إنّه استشاط في وجههم غضبًا، ولوّح مهدّدًا بذراعه المبتورة، كما لو أنّها سارية عَلَم ناكس؛ فتراجعوا وقد تبدّد هياجهم، واعتبروا أنّ الخوف الذي أنزلوهُ في نفس الفليفلة الكبرى كان كافيًا، وولّوا مدبرين.

وألْفَتِ الفليفلة الكبرى نفسها وحيدة، وجهًا لوجه أمام كينو، ولم تعد تدري ما ينبغي فعله، فقد كان الوضع محرجًا لها قليلًا. ضحكت مرغمةً ضحكةً قصيرةً، ثمّ أطرقت برأسها تحدّق إلى طرفي قدميها. بعد ذلك، عاودت الضحك ثمّ قالت «حسنًا»، وأخيرًا انحنت على كينو، ومن دون أن تعي جيّدًا ما هي فاعلة، قبّلت بحرارة ذراعه المبتورة. ثمّ انطلقت تعدو خائفة، وشرعت تتقدّم على الطريق العام، مثل المجنونة.

وفي اليوم التالي سارعت الفليفلة الكبرى، قبل القدّاس، إلى دونْ خوسيه وجلست على كرسيّ الاعتراف.

قالت: - السلام عليكِ يا مريم. أبتي!.

ردّ الخوري: - يا من حبلتِ بلا دنس. نعم يا بنيّتي!.

أضافت الفليفلة الكبرى: - أبتي، أعترف... أعترف أمامك أنّني قبّلت أمسِ رجلًا في عتمة الليل.

رسم دونْ خوسيه علامة الصليب على صدره، ثمّ رفع ناظريه إلى السقف، فوق كرسيّ الاعتراف، مسلّمًا أمره لله.

- سُبحانَك يا الله!، قال متمتمًا، وهو يحسّ بأسًى شديد لحال تلك القرية.

الفصل السابع عشر

إنّ دانيال البوم لَيغفر للفليفلة الكبرى كلّ عيوبها، ما خلا واقعة فرقة الإنشاد؛ ففيها تبدّت طريقتها الفظّة في لفت أنظار أهل القرية كلّها إليه، باقتناعها بعدم وضوح جنسه.

وهو لن يغفر لها ذلك حتّى وإن عاش ألف عام. فلقد كانت تلك الواقعة إهانة كبيرة له، بل إنّها في نظره أكبر إهانة يمكن أن تلحق بأيّ رجل. أمّا الخزي الذي أصابه من جَرّائها، فكان يقتضي منه إجراءات مضادّة، تثبت رجولته التي لا تقبل النقاش.

ذات يوم، حضر دانيال البوم إلى الكنيسة حيث كان في انتظاره تلاميذ المدرسة وتلميذاتها جميعًا، وكذلك ترينو، القندلفت، وهو يستنطقُ الأرغنَ نغمات الحزن والأسى، لحظة وصولهم. وهناك كانت الفليفلة المُقرِفة حاضرة أيضًا، وفي يدها عصًا، مُنَصِّبةً نفسها، تلقائيًّا، قائدة للفرقة.

ولمّا دخل التلاميذ، صفّتهم جميعًا في صفوف حسب الطول، ثمّ رفعت العصا فوق رأسها وقالت:

- هيّا بنا، أريد أن نتمرّن معًا على أداء نشيد «الراعية السماويّة» كي نقدّمه في عيد السيّدة العذراء. هيّا بنا، كرّرت مرّة أخرى.

وأشارت إلى ترينو بالعصا ثمّ أنزلتها، فأخذ الأولاد ينشدون وكلّ منهم ينشد وحده، على هواه:

أيّتهاا الراعية السماويّة

أريدووو أن أتبعكِ...

ولمّا بدأت أصوات الأولاد الاثنين والأربعين تتقارب وتتآلف، ارتسمت علامات الأسى على وجه الفليفلة الكبرى بشكل مثير للضحك، وقالت:

- كفى! كفى! ليس كذلك. ليس «را» بل «رااا». هكذا: «أيّتها الرااااعية السمااااويّة، أريد أن أتبعكِ، في الودياااان والجبااال، مقتفيًا خطاكِ». هيّا بنا، قالت مرّة أخرى.

ودقّت بالعصا على غطاء الأرغن دقّة لفتت من جديد أنظار الجميع. فاهتزّت جدران المعبد من حدّة صوت الأطفال في الإنشاد. وبعد قليل، بدا الامتعاض على وجهها جليًّا، فأشارت بالعصا إلى البعر:

- روكي! بوسعك أن تنصرف، فلا حاجة بي لك. ولكن منذ متى تغيّر صوتُك؟

خفض روكي البعر عينيه وقال:

- وما أدراني أنا! إنّ أبي يقول إنّني أجأر بصوتي مثل الرجال منذ ولادتي.

ومع أنّ روكي البعر قال ذلك وهو مطأطئ الرأس، فقد قاله بفخر لقناعته بأنّ الرجل الحقّ تتحدّد رجولته منذ ولادته. وقابل الصبيان المتفوّقون في المدرسة ردّه بضحكات متكبّرة، أمّا البنات فقد نظرن إليه بإعجاب وإكبار.

وبعد تمرينٍ آخر، استغنت دونيا لولا عن صبيَّيْن آخرين لأنّهما ينشزان بصوتيهما، ثمّ استبعدت خيرمان الأقرع بعد ساعة أخرى، لأنّ صوته يمرّ في مرحلة انتقاليّة، وهي «لا تريد في الفرقة إلّا الأصوات الناعمة». تساءل دانيال البوم عمّا يفعله حقًّا في هذه الفرقة، وتمنّى من أعماق نفسه أن يُستبعد منها نهائيًّا، فهو يكره أن يكون صوته ناعمًا مثل

البنات. لكنّ تمارين اليوم الأوّل مرّت من دون أن ترى الفليفلة الكبرى ضرورة للاستغناء عنه.

وفي اليوم التالي عادوا جميعًا إلى التمرين، ولم تستبعده الفليفلة من الفرقة. استاء دانيال البوم من هذا الوضع كثيرًا، وصار يرى أنّ بقاءه فيها حتّى ذلك الحين يشكّل وصمة عار له، إذ إنّه يمثّل تشكيكًا في رجولته، وهو الذي يقدّر الرجولة تقديرًا أكبر من أن يأبه لاختياره بين هؤلاء الصغار. لكنّ دانيال استُبْقِيَ في الفرقة، رغم أمانيه ورغم استبعاد جميع الصبيان ما عدا ستّة منهم. وتلك كانت الطامّة الكبرى في نظره. وفي اليوم الرابع أعلنت الفليفلة الكبرى بكلّ سرورٍ ورضًا:

- لقد انتهت الآن عمليّة الاختيار، ولم يبقَ في الفرقة إلّا أنتم أصحاب الأصوات الناعمة -كانوا خمس عشرة بنتًا وستّة صبيان- وأرجو -توجّهت إلى الصبيان الستّة- ألّا يحدث وأن يغيّر أيّ منكم صوته منذ الآن وحتّى عيد السيّدة العذراء.

ابتسم الصغار جميعًا فخورين بما سمعوه عن «أصواتهم الناعمة» إلّا دانيال البوم، فقد أحسّ بالحزن في أعماقه، وبعجزه عن تحقيق ما يريد. ودقّت الفليفلة الكبرى بالعصا على غطاء الأرغن تستحثّ ترينو، القندلفت، فانطلقت الحناجر الإحدى وعشرين الناعمة تردّد في فضاء المعبد الابتهالات للعذراء:

أيّتها الرااعية السمااويّة
أريد أن أتبعكِ
في الودياااان والجباال
مُقتفيًا خطااكِ.

كان دانيال البوم يتوقّع ما حدث له وللصبيان الخمسة، ذوي «الأصوات الناعمة»، عند خروجهم من الكنيسة في مساء ذلك اليوم.

فالصبيان الذين استُبعِدوا من الفرقة انتظروهم بزعامة البعر عند المدخل، ولمّا رأوهم يخرجون أحاطوا بهم، وبدأوا يصيحون بسخط، وهم يردّدون:

- بناتٌ، مُخنّثون! بناتٌ، مُخنّثون! بناتٌ، مُخنّثون!

ولم يجدِهم نفعًا تدخّل الفليفلة الكبرى، ولا الجهود المتواضعة التي بذلها ترينو، القندلفت، فهو عجوز وثقيل الحركة. وكذلك لم تجدِ نفعًا نظرات التوسّل التي أخذ دانيال البوم يرسلها إلى صديقه روكي البعر. ففي تلك اللحظة الحرجة لم يكن البعر ليتذكّر حتّى أبسط أسس الصداقة الحقيقيّة، ذلك أنّ صدور صبيان الشلّة المعتدية كانت تغلي غيظًا لا يُكبَح لاستبعادهم من الفرقة التي ستقدّم الأناشيد في عيد السيّدة العذراء. لكنّ ذلك كلّه لم يهمّ دانيال في تلك اللحظة، فهمّه محصور في التفكير برجولته المهدورة، وكيف يمكنه إنقاذها من هذه الورطة.

ولمّا أوى إلى فراشه في تلك الليلة، خطرت له فكرة: لمَ لا يُضخِّم صوته أثناء أداء نشيد «الراعية السماويّة»؟ فبهذه الحيلة تستبعده الفليفلة الكبرى من الفرقة مثلما استبعدت من قبل روكي البعر وخيرمان الأقرع. وإن دقّقنا في الأمر قليلًا، لرأينا أنّ إبعاد الأقرع هو ما سبّب له أقصى الألم. فروكي ورغم كلّ شيء، متفوّق عليه دائمًا. أمّا الأمر مع الأقرع فمختلف تمامًا، إذ كيف بوسعه أن يحافظ مستقبَلًا على مكانته ومرتبته المتفوّقة أساسًا على صبيّ صوتُه أقوى من صوتِه هو؟ إذًا، لا مفرّ له إن أراد تحقيق ذلك من أن يضخّم صوته، فيُستَبعد من الفرقة قبل عيد السيّدة العذراء.

مع بداية التمرين في اليوم التالي تنحنح دانيال البوم باحثًا في حنجرته عن مخرج الصوت الذي سيفتعله. ودقّت الفليفلة الكبرى على غطاء الأرغن برأس العصا، فانطلق النشيد:

أيّتها الرااعية السمااويّة
أريد أن أتبعكِ...

تجمّدت الفليفلة الكبرى في مكانها، وارتعش أنفها الطويل كما لو أنّ رائحة كريهة تزعجها، ثمّ قطّبت جبينها كما لو أنّها تسمع خللًا في الصوت ولا تتمكّن من تحديد مصدره. لكنّها في المحاولة الثانية، أشارت بالعصا إلى البوم وقالت بانزعاج:

- عجبًا لكَ ولما تفعله يا دانيال! كفّ عن تضخيم صوتك وإلّا صفعتك على وجهك.

لقد افتُضِح أمره واحمرّ وجهه خجلًا لمجرّد تفكيره أنّ الآخرين قد يعتقدون بسعيه لأن يبدو رجلًا بالخداع. فهو كي يكون رجلًا لا يحتاج إلى النفاق، وسوف يثبت لهم ذلك في المرّات القادمة.

عند خروج الأولاد من التمرين، أحاطت بهم شلّة «الأصوات الخشنة» بزعامة روكي البعر، وأخذوا يردّدون عليهم لازمتهم اللعينة:

- بناتٌ، مُخنّثون! بناتٌ، مُخنّثون! بناتٌ، مُخنّثون!

أحسّ دانيال البوم برغبة عميقة بالبكاء، لكنّه أمسك نفسه ولم يبكِ لأنّه يعرف أنّ رجولته المهزوزة الآن قد تنهار كلّيًا إن بكى أمام أفراد شلّة «الأصوات الخشنة»، المسعورين.

وهكذا، أتى عيد السيّدة العذراء. ولمّا استيقظ دانيال البوم في صباح ذلك اليوم، فكّر في صوته الحادّ ورأى أنّ ذلك ليس أمرًا يدعو إلى القلق، فهو في العاشرة من العمر وما زال أمامه متّسع من الوقت حتّى يتغيّر صوته ويخشوشن، ولا داعي بالتالي للإحساس بالحزن أو الشعور بالمذلّة. كانت الشمس تدخل من نافذة غرفته، وقمّة جبل راندو تبدو أعلى وأبهى من المعتاد. وإلى مسمعيه كان يتناهى دويّ الألعاب الناريّة المتواصل، وصخب موسيقى الفرقة النحاسيّة وهي

تنزل الدرب. ومن بعيد كان يسمع أيضًا بين الفينة والأخرى، دقّات ناقوس الكنيسة يدقّها دون أنطونيو، الماركيز، داعيًا الناس إلى القدّاس الكبير. وعند رأس السرير وُضِعَت بدلته الجديدة وقد كُوِيت للتّو، إضافة إلى قميص أبيض غُسِل بعناية فائقة، وكان لا يزال يفوح برائحة الصابون والنّيلة. كلّا، ليست الحياة بائسة، وبوسعه الآن أن يؤكّد ذلك وهو مُسنِدٌ مرفقيه إلى إطار النافذة. كلّا، إنّها ليست بائسة، مع أنّه سوف ينشد بعد نصف ساعة نشيد «الراعية السماويّة» مع فرقة «الأصوات الناعمة». كلّا، إنّها ليست كذلك، مهما قالت شلّة «الأصوات الخشنة» عنه وعن زملائه الخمسة إنّهم بناتٌ ومُخنّثون.

بدا الوادي بحلّة صفراء مذهّبة، غطّت الزرع والنبات، وعمّت أرجاءه الفسيحة، الشاسعة. وكان الجوّ يفوح برائحة الحقول النديّة، مع أنّ سكون الهواء المطلق يُنذر بيوم حارّ. وتحت النافذة، على أقرب شجرة من أشجار التفّاح في البستان، أخذ شحرور يغرّد وهو يقفز من غصن إلى آخر. وفي تلك اللحظة، شرعت الفرقة النحاسيّة تمرّ على الطريق العام، متّجهة نحو نهر التشورّو ومنزل كينو الأبتر، تتبعها شلّة من الصبيان وهم يصيحون ويتشقلبون في الهواء. اختبأ دانيال البوم مبتعدًا عن النافذة لأنّ معظم الصبيان الذين يرافقون الفرقة النحاسيّة هم من شلّة «الأصوات الخشنة».

في الحال ارتدى ملابسه وذهب إلى القدّاس. وهناك في الكنيسة، كانت الشموع تتلألأ في المذبح، وبدت النساء بأبهى حللهنّ. صعد دانيال إلى منصّة الفرقة وأخذ يحدّق في عينيّ السيّدة العذراء بثبات. كان دونْ خوسيه يقول إنّ السيّدة تنظر أحيانًا إلى الأولاد الطيّبين، وقد يكون ما بدا لدانيال البوم منها في ذلك الصباح وهمًا سببه تراقص لهب الشموع في المذبح، لكنّه رآها فعلًا تلتفت نحوه وتنظر إليه

بعينيها وقد ارتسمت الابتسامة على شفتَيْها. أحسّ بالقشعريرة تسري في بدنه، فقال لها على الفور، ومن دون أن يحرّك شفتيه، إنّه يهديها نشيد «الراعية السماويّة» اليوم كي تحميه من استهزاء ذوي «الأصوات الخشنة»، ونَعْتِهِم له بالألقاب.

بعد أن انتهى دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، من تلاوة آيات من الإنجيل، صعد إلى المنبر وبدأ عظته. سُمِعت نحنحة مطوّلة من جهة مقاعد الرجال، فبدأ دانيال البوم عفويًّا يعدّ المرّات التي يقول فيها دونْ خوسيه عبارة «في الواقع»، مع أنّه لم يكن ممّن يراهنون على عددها، سواء أكان عددًا فرديًّا أم زوجيًّا. لكنّ دونْ خوسيه قال أشياء جميلة جدًّا في ذلك الصباح، حتّى إنّ دانيال البوم أُخِذَ بكلامه ونسيَ العدّ.

قال دونْ خوسيه:

– أبنائي، في الواقع، إنّ لكلّ منّا طريقه المرسوم في هذه الحياة. وعلينا دائمًا أن نتّبع طريقنا وألّا نحيد عنه وبعضكم يعتقد أنّ ذلك أمر سهل، لكنّه في الواقع ليس كذلك. أحيانًا يكون الطريق الذي يرشدنا إليه الربّ وعرًا وصعبًا. وهذا لا يعني، في الواقع، أنّ هذا الطريق ليس طريقنا، بل على العكس، فالربّ قال لكلّ منّا: «احمل صليبك واتبعني».

وأضاف: – لكنّي أستطيع أن أؤكّد لكم أمرًا لا يرقى إليه شكٌّ، وهو أنّ طريق الربّ، في الواقع، لا يتمثّل في اختباء الشبّان والصبايا في الحقول تحت جنح الظلام؛ ولا في ذهاب بعضكم إلى الحانة أيّام السبت والأحد، ولا في قلب حقول البطاطا أو تقليم الذرة الصفراء في الأعياد. فالله نفسه، في الواقع، خلق العالم في ستّة أيّام ثمّ استراح في اليوم السابع. وهو العظيم، القادر الذي لا يعرف التعب في الواقع، مع ذلك فقد خفّف عن نفسه واستراح. وقد فعل ذلك كي يعلّمنا، نحن بني البشر، أنّ الإنسان عليه أن يستريح يوم الأحد.

ولا ريب في أنّ دونْ خوسيه تحدّث في ذلك اليوم بإلهام من السيّدة العذراء، إذ إنّه تحدّث بلطف ومن دون صراخ. وتابع حديثه عن الطريق الذي رسمه الخالق لكلّ فرد على هذه الأرض، ثمّ تطرّق إلى ذِكر الشقاء الذي يجلبه الانحراف عن هذا الطريق، سواء أكان لِهَوًى في النفس أو لشهوة منها. قال أشياء معقّدة وصعبة، تعثّر على دانيال فهمها؛ منها مثلًا أنّ المتسوّل الفقير الذي لا يضمن قوت يومه، قد يكون أسعد من الغنيّ الذي يعيش في قصر فخم، مزيّن بالعاج والمرمر ويعجّ بالخدم والحشم.

وقال أيضًا: - إنّ بعض الناس، نتيجة لأهوائهم، يخسرون نصيبهم الذي قسمه الله لهم من السعادة في طريق أيسر من الطريق الذي اختاروه هم بأنفسهم. وختم عظته قائلًا: - السعادة في الواقع ليست في ما هو أعلى وأكبر وأشهى وأرفع، إنّما هي في أن نكيّف خطواتنا مع الطريق الذي اختاره لنا الربّ في هذه الدنيا، وإن كان طريقًا متواضعًا.

أنهى دونْ خوسيه كلامه، فتبعه دانيال البوم بناظريه حتّى المذبح وهو يتأمّل جسده الصغير، النحيل. كان يريد أن يُشبِع عينيه منه ومن حضوره الجسديّ، لتيقّنه أنّه ذات يوم غير بعيد، سوف يحتلّ محرابًا من محاريب الكنيسة. لكنّه حينذاك لن يكون هو ذاته بلحمه ودمه، بل سيكون صورة محفورة على الخشب، أو تمثالًا من الجبس سيّئ الطلاء.

وفجأةً، بدأ ترينو، القندلفت، يداعب مفاتيح الأرغن بأصابعه، فكاد ضجيجه المباغت أن يثير الذهول في نفس دانيال البوم. وكانت الفليفلة الكبرى تقف أمام فرقة «الأصوات الناعمة» وفي يدها العصا. تنحنح أعضاء الفرقة لحظة، فدقّت الفليفلة الكبرى على الأرغن بعصاها، وانطلق ترينو يعزف مقدّمة «الراعية السماويّة». بعد ذلك، دوّت الحناجر الصافية بغنائها الموزون، تقوده بدقّة عصا الفليفلة الكبرى:

أيّتها الرااعية السمااويّة
أريد أن أتبعكِ
في الودياااان والجبااال
مُقتفيًا خطااكِ.
رعيّتك البااائسة
تتوسّل إليكِ ألمًا
استمعي يا عذرااء
إلى ندااائهم الحاارّ
أيّتها الرااعية السمااويّة
أريد أن أتبعكِ
في الودياااان والجبااال
مُقتفيًا خطااكِ.

وعندما انتهى القدّاس، هنّأت الفليفلة الكبرى الأولاد جميعًا، وقدّمت إلى كلّ منهم مصّاصة من الحلوى. تناول دانيال البوم هديّته ودسّها في جيبه بخفّة، وكأنّها شيء مُعيب.

وحينما صار دانيال عند باب الكنيسة، صاح اثنان من الحسّاد في وجهه وهو يمرّ: «بنتٌ، مخنّثٌ!»، لكنّه لم يعِرهما انتباهًا بالمُطلق، ذلك أنّه من دون البعر يحمي ظهره، كان يشعر بالضعف وكأنّه أعزل. وعند الباب أيضًا تجمهر الناس وهم يتحدّثون عن عظة دونْ خوسيه، فلمح دانيال ميكا بينهم وهي تقف مبتعدة قليلًا إلى الجهة اليسرى. ابتسمت له وقالت:

- لقد أحسنتم الإنشاد! ثمّ قبّلته على جبينه.

تأجّجت مشاعر دانيال البوم بلهفة طالعة من أعماق سنواته العشر، لكنّ ذلك كان بلا طائل. فصحيح أنّها قبّلته، لكنّها ما لبثت أن عادت

وابتسمت لشخص آخر أخذ يقترب منها، وكان شابًّا نحيفًا يرتدي ثيابًا سوداء. أمسك كلّ منهما بيديّ الآخر وتبادلا النظرات، فلم يرُقْ ذلك لدانيال.

- كيف بدا لكَ القدّاس؟

- رائع! رائع جدًّا!

ابتعد دانيال البوم عنهما وهو حزين لإحساس غريب داهمه ولم يدرك كنهه، فلاحظ أنّ كلًّا من الحاضرين يلكز جاره بكوعه ويقول له بصوت خافت وهو يلتفت يمينًا وشمالًا: «انظر، إنّه خطيب ميكا»، «انظر، إنّه خطيب ميكا»، «يا إلهي! لقد أتى خطيب ميكا»، «إنّ خطيب ميكا وسيم»، «إنّه شابّ حسن المظهر». وهكذا، اتّجهت أنظار الجميع بثبات إلى هذا الشابّ النحيف الذي يرتدي ثيابًا سوداء ويمسك بيديه يديّ ميكا.

وحينها أدرك دانيال البوم أنّ هناك أسبابًا كافية تدعوه إلى الحزن في ذلك اليوم، وإن سطعت الشمس في السماء الصافية، وغرّدت الطيور في الأحراش، وشقّت أجراس البقر صدر السماء برنينها الكئيب، ونظرت إليه العذراء مبتسمة. أجل، إنّ هناك أسبابًا تدعوه إلى الحزن واليأس واشتهاء الموت، فلقد أحسّ بأنّ شيئًا ما في أعماقه يُقتلع منه اقتلاعًا ويهدّد كيانه.

عند المساء نزل دانيال البوم إلى المهرجان يرافقه روكي البعر وخيرمان الأقرع. وكان لا يزال حزينًا ومنقبض الصدر، فأحسّ بالحاجة إلى الترويح عن نفسه. وفي المرج، حيث تجري فعاليّات المهرجان، كان الجوّ مفعمًا برائحة المعجّنات المقليّة، ويضجّ بحيويّة الناس المتجمهرة وببهجتهم الغامرة، العامرة. وفي وسط المكان انتصب عمود الكوكانيا، وكان أطول من السنوات السابقة بعشرة أمتار. توقّف

الصبيان الثلاثة أمامه وتفرّجوا على ولدَيْن حاولا تسلّقه من دون أن ينجحا، إذ لم يتجاوز أيّ منهما الأمتار القليلة الأولى. وفجأة، أشار رجل سكران بطرف إصبعه إلى رأس العمود وقال:

– هناك في الأعلى قطعة معدنيّة من فئة الخمسة دورُوَات. مَن يصل إليها ويُنزلها، فليَدْعُني إلى كأس من الشراب.

ثمّ ضحك مقهقهًا قهقهة سرت عدواها بين الآخرين. ونظر دانيال البوم إلى البعر والأقرع وقال: – سأصعد هذا العمود.

فردّ عليه البعر مستهزئًا: – لست رجلًا.

أمّا خيرمان الأقرع فقد بدا بغرابة أكثر حذرًا:

– إيّاك أن تفعل ذلك، فقد تسقط وتموت.

لكنّ غضب البوم، وحماسته الغريبة لمنافسة الشابّ الذي يرتدي ثيابًا سوداء، وتحدّي صبيان شلّة «الأصوات الخشنة»، دفعه بعزم للصعود، فقفز إلى العمود وتسلّق الأمتار الأولى منه من دون جهد يُذكر. كان رأسه يشتعل نارًا ملتهبة، تحتدم بمزيج غريب من الغضب والكبرياء الجريح والزهو الذي استيقظ في نفسه فجأة. قال في نفسه: «هيّا، لن يستطيع أحد فعل ما تفعل. هيّا، لن يستطيع أحد فعل ما تفعل». وما انفكّ يصعد ثمّ يصعد، رغم الألم الذي بدأ يصيب ساقيه. «سوف أصعد، ولن أبالي بالسقوط. سوف أصعد، ولن أبالي بالسقوط»، أخذ يكرّر في نفسه، ولمّا وصل إلى منتصف المسافة، نظر نحو الأسفل فرأى أنّ أنظار الناس كلّهم مثبّتة نحوه وهم يراقبون حركاته، فأحسّ بالدوار وتمسّك بالعمود بقوّة. مع ذلك، تابع الصعود ولم تفتر عزيمته. أخذت عضلاته تخونه قليلًا من الجهد الذي يبذله، لكنّه لم يأبه وتابع الصعود. ثمّ صار يبدو صغيرًا بحجم الصرصار لمن يرونه من الأسفل، وأخذ العمود يتمايل مثل شجرة تعصف بها الريح. لكنّه لم يشعر بالخوف،

بل اجتاحته الرغبة في أن يقترب أكثر من السماء، وأن يصير ندًّا لقمّة جبل راندو. وفجأة دبّ الضعف في ذراعيه وساقيه وسمع صرخة آتية من الأسفل:

– دانيال، يا بنيّ!

التفت نحو مصدرها فرأى أمّه تناشده، وإلى جانبها ميكا وقد بدا عليها القلق والاضطراب. ورأى أيضًا البعر وقد تضاءل حجمه، وخيرمان الأقرع وقد استردّ منه تفوّقه عليه، وشلّة «الأصوات الناعمة»، وشلّة «الأصوات الخشنة»، والفليفلة الكبرى، ودونْ خوسيه، الخوريّ، وباكو الحدّاد، ودونْ أنطونيو، الماركيز، وكذلك رأى القرية بسطوحها الأردوازيّة وهي تفتح صدرها للشمس الساطعة. أحسّ بنفسه كالسكران، مندفعًا برغبة عارمة إلى التسلّط والتسيّد، فتابع التسلّق وهو يصمّ أذنيه للتوبيخ الذي يسمعه من بعيد. في لحظتها صار العمود أدقّ وأرقّ، فأخذ يتمايل به، تحت تأثير ثقله، كما يتمايل السكران. فتشبّث دانيال بالعمود بكلتا ذراعيه بجنون، بعد أن أحسّ بأنّه قد يرمي به إلى الجبال، مثلما يرمي بالمقذوف المنجنيق. ثمّ استأنف الصعود حتّى كاد أن يلامس بيديه قطعة الخمسة دورُوَات التي قدّمها «ظلّا الأميركيّ». لكنّ فخذيه أخذتا تؤلمانه، إذ انسلخ الجلد عنهما، وكادت ذراعاه أن تعجزا عن حمله. «انظر، لقد أتى خطيب ميكا. انظر، لقد أتى خطيب ميكا»، ردّد في نفسه وهو يحسّ بالغيظ في دخيلته، ثمّ صعد بضعة سنتيمترات، ولم يعد يفصله عن القمّة إلّا القليل القليل. أمّا في الأسفل فقد خيّم الصمت والترقّب على الأجواء. «بنتٌ، مخنّثٌ؛ بنتٌ، مخنّثٌ»، تمتم في سرّه ثمّ صعد ما تبقّى عليه من المسافة، فألفى نفسه في القمّة حيث ازداد اهتزاز العمود، ولم يجرؤ على أن يفلت إحدى يديه عنه كي يأخذ المغلّف الذي يحتوي على الجائزة، فقرّب فمه منه

وعضّ عليه بجنون، بأسنانه. وفي الأسفل، ساد الصمت ولم يُسمع أيّ تصفيق أو أيّ هتاف، إذ توقّع أهالي القرية جميعًا سقوطه ووقوع الكارثة. ثمّ بدأ دانيال ينزل، حتى إذا شعر بالإنهاك وهو في منتصف الطريق، خفّف من ضغط أطرافه على العمود المطليّ بالشمع، وترك جسمه ينزلق عليه بسرعة؛ فأحسّ بالنار تكوي ساقيه، وبالدم يتدفّق من لحم فخذَيْه المسلوختَيْن.

فجأة وجد نفسه على الأرض محاطًا بالناس وهم يهتفون له بصخب، ويربّتون على ظهره ووجنتيه تربيتًا يكاد أن يكون مؤلمًا، وأمّه تقبّله والدموع في عينيها. وذلك كلّه في مشهد اختلطت فيه المشاعر. ورأى الشابّ الذي يرتدي ثيابًا سوداء ممسكًا بذراع ميكا ويقول له باسمًا: «أحسنت يا فتى!». ورأى أفراد شلّة «الأصوات الخشنة» وهم يبتعدون مطأطئي الرؤوس. ورأى أباه وقد جنّ جنونه، وأخذ يعنّفه بسيل من الكلمات السخيفة التي لم يستوعبها. وأخيرًا رأى أوكا أوكا تركض نحوه ثمّ ترتمي على قدميه المثخنتَيْن بالرضوض، محيطة بهما بذراعيها، وهي تجهش بالبكاء والدموع لا تنفكّ تنهمر من عينيها بغزارة...

بعد ذلك، لمّا عاد دانيال البوم إلى المنزل، بدّل رأيه في يومه ذاك، وأقرّ في نفسه بأنّه لم يكن محقًّا بشعوره بالحزن فيه. فرغم كلّ ما جرى، فإنّ اليوم كان مشرقًا، والوادي كعادته بهيًّا، ثمّ إنّ خطيب ميكا قال له باسمًا: «أحسنت يا فتى!».

الفصل الثامن عشر

وكما نساء أخريات كثيرات، فإنّ الفليفلة الكبرى تكبّرت على الحبّ، إلى أن حظيت برجل يحبّها وتحبّه. وأحيانًا، كان يُضحِكها أنْ يكون حبّها الأوّل والوحيد في حياتها وليد غيرتها على الأخلاق تحديدًا. فلولا حماستها لأن تجوب التلال في مساءات الأحد، لما ثار عليها شبّان القرية. ولولا أنّهم ثاروا عليها، لما توفّرت الفرصة لكينو، الأبتر، كي يدافع عنها. ولولا هذه الفرصة، لما خفق قطّ بالحبّ قلبها القاسي، المنيع، الحبيس بين أضلع صدرها. كان حبّها الأوّل والوحيد في حياتها سلسلة من المصادفات المتتالية، لو فكّرتْ فيها مليًّا لما سُرَّت قطّ. فما أوسع رحمة الربّ!

ولم يدرِ أحد في القرية بالعلاقة الغراميّة التي تجمع بين الفليفلة الكبرى وكينو الأبتر إلّا بعد مضيّ وقت طويل. وعلاوة على ذلك، فلقد سارا بعلاقتهما ببطء قاتل، إذ كانت خطوة حاسمة ونهائيّة في حياة كلّ منهما. كان كينو الأبتر قد فكّر في الفليفلة الكبرى قبل حادثة الشبّان عند الجسر، ورأى أنّها لم تعد صغيرة ولا هو أيضًا. ثمّ إنّها ناحلة، بادية العظام، وهذا ما يحبّذه؛ ولديها دكّان مزدهر وموهبة مميّزة في التجارة، وهذا ما كان يحتاجه بالتحديد؛ لا سيّما أنّه غرق مؤخّرًا في الديون والقروض وخسر أملاكه كلّها، ولم يتبقَّ له منها حتّى ما يعادل ثمن العشب الذي ينمو في بستانه.

أجل، لقد كانت الفليفلة الكبرى فوق يُسرها المادّيّ وموهبتها في

التجارة نحيفة وتتميّز بفخذين ناحلين -هذا ما يبدو ظاهريًّا بالطبع، إذ لم يتسنّ له ولا لغيره أن يراهما أو أن يعاينهما- وبذا فإنّها باختصار تمثّل حلًّا مناسبًا له وملائمًا تمامًا.

وحينما حماها كينو الأبتر من الشبّان عند الجسر، فإنّه لم يُقْدِم على ذلك لغايات شخصيّة، بل لأنّه رجل نبيل، شهم، يكره العنف، لا سيّما مع النساء. أمّا أن تتشابك الأمور في ما بعد، وتنظر الفليفلة الكبرى إليه نظرات غريبة، ثمّ تطبع قبلة حارّة على ذراعه المبتورة، فيحسّ هو برعشة تسري فيها وتتأجّج مشاعره؛ فتلك حلقات من السلسلة نفسها، وحوادث كان لا بدّ من وقوعها لبلوغ النهاية المحتومة. إنّها أقدار الربّ.

أمّا القبلة التي طبعتها الفليفلة الكبرى على لحم ذراعه المبتورة، فقد بيّنت له أيضًا أنّه ما زال يحتفظ في جسمه بزخم الرجولة وبأسِها، وبأنّه ما زال يُحسب بين الرجال، ولم يَشِخْ بعد. فأخذ يفكّر في السبل الممكنة التي توصله إلى غايته عمليًّا. وهكذا خطر في ذهنه أن يدسّ لها زهرة تحت باب الدكّان، صباح كلّ يوم، قبل أن تستيقظ القرية.

كان كينو الأبتر يدرك دقّة الوضع ويعرف أنّ عليه أن يتصرّف بلباقة وكياسة، لأنّ أهل القرية يبغضون الفليفلة الكبرى لتشدّدها الدينيّ، ويبغضون أختها أيضًا لأنها ذات طبع شكّاك. فكان لا بدّ له إذًا من اللجوء في تصرّفاته إلى الحيطة والتكتّم والحذر.

في كلّ يوم كان يضع لها زهرة جديدة، وإذا لم تكن كبيرة، اكتفى بدسّ إحدى بتلاتها. ولم يكن غافلًا عن أنّ الزهرة التي تُدسّ ببراءة تذهب أدراج الرياح، أمّا الزهرة التي تُدسّ بنيّة مقصودة، فلها من قوة الإقناع ما يفوق سحر الذهب الخالص. وكان يعرف أيضًا أنّ المواظبة على طَرق الحديد والمثابرة على دقّه، لا بدّ لها أن تفلّه في نهاية المطاف.

وبعد مرور شهر واحد تمامًا، أخذ سيل الحنان هذا كلّه يصبّ عند دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، إذ صار اعتراف الفليفلة الكبرى بما يجري لزامًا عليها، فقالت له:

– دونْ خوسيه، أَمِنَ الإثم أن تشتهي المرأة الذوبان بين ذراعي الرجل؟

– إنّ ذلك يتوقّف على نيّة المرأة، قال الكاهن.

– لا نيّة لها سوى الذوبان بين ذراعيه وحسب، يا دونْ خوسيه.

– ولكنْ، في سنّك أنتِ يا ابنتي؟

– ماذا تقصد يا أبتِ؟ لا أحد يعلم متى تحين الساعة، فالحبّ كالموت، يأتي على حين غرّة. وإذا كان اشتهاء الذوبان بين ذراعي رجل ما خطيئة، فإنّي أنبّهك يا دونْ خوسيه إلى أنّني أعيش غارقة في الإثم. وما ألمّ بي ليس له دواء، ولم يعد بوسعي فعل أيّ شيء آخر، مهما تقل لي إنّ ذلك أعظم إثم في الدنيا. إنّ لهذه الشهوة قوّة تفوق قدرتي على مقاومتها.

ثمّ أخذت تبكي.

وأخذ دونْ خوسيه يهزّ رأسه تلقائيًّا، يمينًا ويسارًا، كرقّاص الساعة.

– تتحدّثين عن كينو، أليس كذلك؟

فاصطبغ وجه الفليفلة الكبرى بحمرة شديدة من الخجل.

– بلى، عنه بذاته، يا دونْ خوسيه.

– إنّه رجل طيّب القلب يا بنيّتي، لكنّه غير نافع لأيّ شيء، قال الخوريّ.

– ليس ذلك بالأمر المهمّ يا دون خوسيه؛ فكلّ مشكلة ولها حلّ.

– وما رأي أختك؟

– لا تعرف شيئًا عن الأمر بعد. ثمّ إنّها لا تجرؤ على أن تكلّمني في أمر كهذا، ولا فائدة لي من نصائحها.

وأخيرًا علمت إيرينه، الفليفلة الصغرى، بالأمر.

- أكاد لا أصدّق. هل جُنِنْتِ يا لولا؟

- ولِمَ تقولين ذلك؟

- لا تعرفين؟

- لا. ولكنّك تعلمين أنّنا بحاجة إلى رجل في المنزل.

- وعندما جرى ما جرى بيني وبين ديماس، لم نكن بحاجة إلى رجل في المنزل. أليس كذلك؟

- إنّ الأمر مختلف يا أختي.

- لا أرى أيّ فرق سوى أنّ من جُنّ الآن هو أنتِ.

- لكنّ كينو رجل خلوق.

- وديماس أيضًا كان يبدو كذلك حينها.

- كان ديماس طامعًا بمالك، ولم تدُم علاقته بك إلّا بمقدار ما دام مبلغ الخمسة آلاف دورو. وأنتِ بنفسكِ اعترفتِ بذلك.

- أَوَتظنّين أنّ كينو يريدكِ لسواد عينيكِ؟

فهبّت الفليفلة الكبرى في وجهها، وقد أحسّت بالإهانة.

- وما الأسباب التي تدفعك إلى الشكّ بذلك؟

أقرّت الأخت الصغرى قائلة:

- ظاهريًّا لا أرى أيّ سبب، في الحقيقة.

- وعدا عن ذلك، فأنا لن أضطرّ للذهاب مع الرجل الذي أحبّ خفيةً مثلما فعلتِ أنتِ. وسوف يكون حبّي له موافقًا لتعاليم الربّ.

لمعت عينا الفليفلة الصغرى:

- لا تذكّريني بذلك. أستحلفك بذكرى أبوَيْنا الطيبة.

ما كان أحد في القرية يعرف بعد شيئًا عن خطوبة كينو الأبتر والفليفلة الكبرى أو يستشعر بها، فبدا لزامًا عليهما أن يجوبا شوارعها

معًا مساءَ يوم من أيّام الآحاد، وكلٌّ منهما يُمسك بيد الآخر، كي يعلم الناس أخيرًا بالأمر. وخلافًا لما توقّع كينو الأبتر، فإنّ أزهار الجيرانيوم لم تذوِ على الشرفات لمّا شاع الخبر، ولم ترتعش الأبقار في الحظائر، ولم تنشقّ الأرض، ولم تتصدّع الجبال. وكادت ردود الفعل أن تقتصر على بعض الابتسامات الساخرة والتعليقات اللاذعة، لا أكثر ولا أقلّ.

بعد أسبوعين ذهبت الفليفلة الكبرى كي ترى دونْ خوسيه من جديد.

– أبتِ، أَمِنَ الإثم أن تشتهي المرأة أن يقبّلها الرجل على فمها وأن يضمّها بين ذراعيه بكلّ قوّته حتّى تذوب بينهما؟

– نعم، إنّه إثم.

– تبًّا لي، فأنا أرتكب الإثم في كل دقيقة من حياتي إذًا، ولا سبيل لي إلى الخلاص من ذلك يا دونْ خوسيه.

عندها قال الخوري باقتضاب: – أنتِ وكينو عليكما أن تتزوّجا.

ولما علمت إيرينه، الفليفلة الصغرى، بقرار دونْ خوسيه جُنّ جنونها ووصل صراخها إلى السماء:

– إنّكِ تكبرين كينو بعشر سنوات يا لولا، فقد بلغتِ الخمسين من العمر. تعقّلي وفكّري بالأمر جيّدًا. حبًّا بالله، عودي إلى رشدك قبل فوات الأوان!

كانت الفليفلة الكبرى قد اكتشفت للتوّ أنّ ثمّة جَمالًا في الشمس وهي تتوارى خلف الجبال، وكذلك في صرير العربات المحمّلة بالتبن، وفي تحليق الحِداء وهي تُحَوِّمُ متهادية في سماء شهر آب الصافية؛ بل إنّها اكتشفت جمال الحياة لمجرّد أن يحياها الإنسان، وبذا لم يعد بوسعها أن تتنازل عنها الآن.

– أنا عازمة على فعل ما أريد يا أختي. أمّا أنتِ، فالباب مفتوح أمامك متى شئتِ الرحيل.

انفجرت الفليفلة الصغرى بالبكاء، ثمّ انهارت أعصابها، وأوت أخيرًا إلى الفراش محمومة؛ وظلّت على هذه الحال أسبوعًا كاملًا، إلى أن زالت الحمّى عنها يوم الأحد. فدخلت الفليفلة الكبرى إلى غرفة إيرينه وهي تسير على رؤوس أصابع قدميها، ثمّ رفعت ستائر النافذة وهي مبتهجة.

– هيّا يا أختي، هيّا انهضي فاليوم سيقرأ دونْ خوسيه أثناء القدّاس الإعلان الأوليّ لزواجي. وسوف يكون هذا اليوم لي ولك يومًا مشهودًا لا يُنسى.

نهضت الفليفلة الصغرى من سريرها من دون أن تتفوّه بحرف وارتدت ملابسها ورتّبت هندامها، ثمّ ذهبت مع أختها إلى الكنيسة لسماع الإعلان الأوليّ للزواج. ولمّا عادتا إلى المنزل قالت لولا لأختها الصغرى:

– شدّي الهمّة يا إيرينه، فسوف تكونين إشبينتي في يوم الزفاف.

وبالفعل صارت الفليفلة الصغرى إشبينتها يوم الزفاف، من دون أن تشتكي أو أن تتذمّر. وبعد أشهر قليلة من الزواج، تنبّهت الفليفلة الكبرى إلى حال إيرينه، وقد راعها إذعانها واستكانتها، فاستدعتْ دونْ ريكاردو، الطبيب.

– هذه البنت تعرّضت لصدمة نفسيّة شديدة، ولذا فإنّها لا تُحكِّم عقلها. لكنّ الصدمة لا تبدو خطيرة على أيّ حال، والاضطراب الذي تعاني منه لا يدلّ أبدًا على أنّها قد تتصرّف بعنف، قال الطبيب. ثمّ وصف لها بعض الحِقَنِ وانصرف.

وأخذت الفليفلة الكبرى تجهش بالبكاء وهي حزينة.

إلّا أنّ ذلك كلّه لم يفاجئ دانيال البوم، إذ بدأ يعي أنّ الحياة مليئة بالحوادث التي تبدو غير معقولة قبل وقوعها، وإذا ما وقعت في ما بعد،

فإنّ المرء يدرك أن لا غرابة فيها ولا مفاجأة، وإنّما هي طبيعيّة تمامًا مثل شروق الشمس كلّ صباح، أو مثل المطر أو الليل أو الريح.

تابع دانيال سير العلاقة بين الفليفلة وكينو الأبتر عن طريق أوكا أوكا، وكان أمرًا غريبًا أن يشعر بالزوال التامّ لنفوره القديم من هذه البنت، حالما علم بتلك العلاقة، ليحلّ محلّه شعور مبهم بالشفقة عليها.

وذات صباح صادفها عند ضفّة النهر وهي تبحث عن شيء ما بين الشجيرات في الأجمة.

– ساعدني يا بوم. لقد اختبأتْ هنا سُمّنة تكاد لا تقوى على الطيران.

بذل البوم قصارى جهده للإمساك بالطير، وتمكّن من ذلك أخيرًا. لكنّ الطير اندفع إلى النهر مذعورًا، بعدما أفلح في التملّص من بين يدي البوم، وسقط في الماء وغرق في الحال. فجلست ماريوكا أوكا على حافّة النهر، وأرخت برجليها إلى الماء، فتبعها البوم وجلس إلى جانبها، وكانا حزينين لموت الطير المباغت. لكنّ حزنهما ما لبث أن تبدّد.

– أَصحيح أنّ أباكِ سيتزوّج الفليفلة؟

– هذا ما يُقال.

– ومن يقول ذلك؟

– هما يقولان ذلك.

– وأنتِ، ماذا تقولين؟

– لا شيء.

– وأبوكِ، ماذا يقول؟

– أبي يقول إنّه سيتزوّجها كي يصير لي أمّ.

– لا يمكنني أن أتصوّر مَنْ هم مثل الفليفلة الكبرى أمًّا لي، ولا في أيّ حال من الأحوال.

- أبي يقول إنّها ستعتني بي، فتغسل لي وجهي وتسرّح شعري وضفائري.

عاد البوم وسألها بإلحاح:

- وأنتِ، ماذا تقولين؟

- لا شيء.

أحسّ دانيال بمحنة الصغيرة وكتمانها لها، وتبيّن له بأسها الشديد في التستّر عليها وتحمّلها بأنفة وكبرياء.

وفجأة سألته:

- وهل ذهابك إلى المدينة بات مؤكّدًا؟

- بعد ثلاثة أشهر من الآن. لقد أتممتُ عامي الحادي عشر، وأبي يريد لي أن أسير على طريق التقدّم.

- وأنتَ، ماذا تقول؟

- لا شيء.

في نهاية الحديث، لاحظ دانيال البوم أنّهما قد تبادلا الأدوار، وصار هو الآن من لا يقول أيّ شيء. وأدرك أنّ بينه وبين أوكا أوكا نمت فجأة أواصر أُلفة غريبة، وأنّه لم يكن منزعجًا أثناء الحديث معها، وتنبّه إلى وجه الشبه بينهما، فكلاهما مضطرّ للامتثال لما يريده أبوه من دون أن يكون له رأي ما. كما لاحظ أيضًا أنّه كان مرتاحًا وهما جالسان هكذا معًا، يتحدّثان عمّا طاب لهما، وأنّ ميكا لم تخطر في باله أبدًا. كما تنبّه أيضًا إلى أنّ فكرة السفر إلى المدينة بغية التقدّم عادت لتبدو له منفّرة، لا تُطاق. وتذكّر أنّه حينما يرغب مستقبلًا بالعودة من المدينة بعد سيره على طريق التقدّم، فإنّ ميكا تكون قد فقدت بشرتها الناعمة وصار لديها أكثر من عشرة أولاد.

صار البوم الآن يلتقي أوكا أوكا بانتظام، ولم يعد يُعرض عنها عابسًا، مثلما كان يفعل من قبل.

- أوكا أوكا، متى موعد الزفاف؟
- في شهر تمّوز.
- وأنتِ ماذا تقولين؟
- لا شيء.
- وهي ماذا تقول؟
- تقول، إنّها ستأخذني إلى المدينة، حينما تصبح أمًّا لي، كي يُزال النمش عن وجهي.
- وأنتِ ترغبين بذلك؟

أحسّت أوكا أوكا بالحرج وخفضت عينيها: - نعم بالتأكيد.

في يوم الزفاف، اختفت أوكا أوكا فجأة ولم يعد يُرى لها أثر. وعند حلول المساء، نسي كينو الأبتر الفليفلة الكبرى، كما نسي كلّ شيء، وقال إنّه يجب البحث عن البنت مهما يكلّف الأمر. وأخذ دانيال البوم يراقب من حوله إعدادات البحث عنها مفتونًا بما يراه، إذ حمل الرجال العصيّ والفوانيس والمصابيح اليدويّة، وانتعلوا الجزمات الضخمة، ذات النعال المصفّحة بالمسامير، والتي تُحدث صريرًا مدوّيًا أثناء المشي على الطريق.

ولمّا رأى دانيال البوم أنّ الوقت يمرّ ولا أحد من الرجال يبدو عائدًا من الجبال، بدأ القلق يساوره؛ وكانت أمّه إلى جانبه تبكي ولا تكفّ تردّد: «يا للبنت المسكينة»، وقد بدا عليها أنّها لا تحبّذ أن يكون للبنت أمّ أخرى غير أمّها. وحينما مرّت رافائيلا، الخنزيرة -زوجة كوكو مأمور المحطّة- على معمل الجبن وقالت إنّه من المُحتمل أن يكون الذئب قد افترس البنت، تملّكت دانيال البوم رغبة عارمة في الصراخ من أعماقه. وفي تلك اللحظة أيضًا فكّر في نفسه بأنّ أوكا أوكا ستفقد جمالها، إن أُزيل النمش عن وجهها، وهو لا يريد أن يُزال النمش عن

وجهها ولا أن يفترسها الذئب. وعند الثانية فجرًا عاد الرجال يحملون العصيّ والفوانيس والمصابيح اليدويّة، وهم يحيطون بماريوكا أوكا وقد بدت شاحبة الوجه، منفوشة الشعر. وهَرَعَ الجميع إلى منزل كينو الأبتر كي يروا البنت ويقبّلوها ويحتضنوها ويحتفلوا بعودتها سالمة. لكنّ الفليفلة الكبرى سبقت الجميع واستقبلتها بصفعة على كلّ خدّ من خدَّيها. غضب كينو الأبتر لذلك، لكنّه تمالك نفسه متألّمًا، وامتنع عن السباب، ثمّ نبّه الفليفلة قائلًا إنّه لا يحبّ أن يضرب أحد ابنته. إلّا أنّ دونيا لولا ردّت عليه غاضبة وقالت إنّها «صارت أمًّا لها منذ هذا الصباح، وعليها يقع واجب تأديبها»، فجلس كينو الأبتر على أحد مقاعد الحانة، وأسند جبهته على ذراعه المتّكئة على الطاولة، كما لو أنّه يبكي، وكما لو أنّ مصيبة كبرى حلّت به للتوّ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل التاسع عشر

رفع خيرمان الأقرع إصبعه وأمال رأسه قليلًا كي يَسهُل عليه السمع، ثمّ قال:

– هذا الطائر الذي يغرّد في السياج زرياب.

فقال له البوم: – لا، إنه حسون.

وأوضح له خيرمان الأقرع أنّ للزرياب مواهب في التغريد تميّزه عن غيره، حتّى إنّه يستطيع تقليد تغريد الطيور وأصواتها كلّها. وهو لا يقلّدها إلّا كي يستدرجها إليه ويفترسها، ولذا فإنّه يُعتبر من الطيور المكروهة، المخادعة، الخبيثة.

أصرّ البوم على رأيه، وقال: – لا، إنه حسّون.

كان دانيال البوم يجد متعة في المناكفة ذلك الصباح، ويحسّ بالقوّة إذ يفعل ذلك، وإن لم تقمْ مناكفته على أساس متين. بل إنّه كان يجد في ذلك الفعل مسرّة غريبة وغير عاديّة.

وفجأة تدخّل روكي البعر وقال: – انظرا؛ إنها حمقاء الماء.

وأشار إلى مكان يقع على يمين البركة، بعد ثلاثة أمتار من مصبّ نهر التشورّو. كان أهل القرية يسمّون أفعى الماء الحمقاء، وكان الصبيان الثلاثة يجهلون سبب هذه التسمية، ولم يكن من عادتهم الاستقصاء عن أصول المفردات الشائعة في الوادي، بل كانوا يقبلونها مثلما هي بكلّ بساطة، ولذا فإنّهم عرفوا أنّ الأفعى التي تزحف باتجاه الضفّة متخبّطة بذَيلها هي حمقاء الماء. وكانت الحمقاء تمسك في

فمها سمكة صغيرة، فنهض الصبيان الثلاثة ورموها ببعض الحجارة.

وصاح خيرمان الأقرع محذّرًا:

- لا تدَعاها تصعد نحو الأعلى، فحمقاء الماء تلتفّ على نفسها أثناء صعودها المنحدرات، وتنسلّ بسرعة تفوق سرعة الأرنب، وقد تهاجم من تصادفه أيضًا.

نظر روكي البعر ودانيال البوم إلى الأفعى وهما خائفان. أمّا خيرمان الأقرع فقد حمل في يده حجرًا وأخذ يقفز من صخرة إلى أخرى كي يقترب منها أكثر. إلّا أنّه سقط فجأة سقوطًا عنيفًا بين الصخور -ربّما بسبب زلّة من قدمه أو بسبب الطين الذي يغطّي الصخور أو لضعف في ساقه العرجاء- وارتطم رأسه بإحداها، ثمّ انزلق جسده حتّى البركة مثل كتلة هامدة لا حياة فيها. فألقى البعر والبوم بنفسيهما إلى الماء من دون تردّد وسبحا خلفه. وبعد جهد جهيد تمكنّا من انتشال جسد صديقَيْهما وجرّه إلى ضفّة النهر. كان الأقرع مصابًا بجرح كبير في عنقه وفاقدًا للوعي، أمّا روكي ودانيال فقد استولى عليهما الذهول. حمل البعر جسد الأقرع الهامد على كتفه وصعد به إلى الطريق العام، ولمّا وصل به إلى منزل كينو، وضعت له الفليفلة كمّادات مبلّلة بالكحول على رأسه. وبعد قليل مرّ من هناك استيبان الخبّاز، فحمله إلى القرية بعربته.

ولمّا رأت ريتا البلهاء ابنها يدخل المنزل وهو على هذه الحال، أجهشت بالبكاء وبدأت بالعويل. وكانت تلك اللحظات صعبة إذ ساد فيها الارتباك والاضطراب، وبعد خمس دقائق احتشد أهل القرية كافّة على باب منزل الإسكافيّ، وكاد دونْ ريكاردو، الطبيب، ألّا يتمكّن من الدخول لشدّة تلهّف الناس وقلقهم على مصير الصبيّ. ولمّا خرج الطبيب بعد قليل، كانت العيون شاخصة إليه، والجميع ينتظرون ما سيقول.

– إنّه مصاب بكسر في قاعدة الجمجمة، ووضعه خطير جدًّا. اطلبوا سيّارة الإسعاف من المدينة فورًا.

وفجأة صار الوادي في عينيّ دانيال البوم رماديًّا، كالحًا، وضوء النهار شاحبًا، ممتقعًا. ودوّت في السماء قوّة أشدّ من قوّة باكو الحدّاد. فقال بانتشو الملحد إنّها قوّة الأقدار، أمّا الفليفلة الكبرى فقالت إنّها إرادة الربّ. ولمّا رأى دانيال البوم أنّهما لا يتّفقان، انسلّ من بين الجميع ودخل إلى غرفة صديقه المُصاب، فرآه ممدّدًا وقد اصطبغ وجهه بالبياض، وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة، وادعة.

وطوال ثماني ساعات كان جسد الأقرع ساحة للعراك بين الحياة والموت. ولمّا وصلت سيّارة الإسعاف من المدينة أتى فيها أيضًا توماس، شقيق الأقرع، فهو يعيش هناك ويعمل موظّفًا في إحدى شركات النقل. دخل توماس المنزل كالمجنون، وفي الممرّ التقى بريتا البلهاء، وكانت خارجة من غرفة الصبيّ المصاب، مذعورة. فتعانقا عناق الأمّ والابن، وكاد عناقهما أن يكون صاعقًا، وصراخ ريتا البلهاء كالشرر.

– توماس، لقد وصلتَ متأخّرًا، فأخوك مات للتوّ.

طَفَرَتِ الدموع من عينيّ توماس وهو يجدّف على الخالق بصوت خفيض كما لو أنّه يحتجّ عليه لعجزه عن فعل أيّ شيء. وعند باب المنزل، بدأت النسوة ينتحبن ويجهشن بالبكاء صارخات، فخرج من الغرفة أيضًا أندريس، «الرجل الذي لا يُرى جانبيًّا»، وهو محنيّ الظهر، كما لو أنّه يودّ ملاحقة ساقيّ أصغر قزمة في الدنيا. أمّا دانيال البوم فقد أحسّ برغبة في البكاء، لكنّه لم يتجرّأ على ذلك، لأنّ روكي البعر كان يترصّده بشدّة وصرامة، ومن دون أن يرفّ له جفن. واستغرب دانيال البوم إذ لاحظ أنّ الجميع صاروا يحبّون خيرمان الأقرع الآن، فمَن يسمع البكاء والعويل الذي تطلقه نساء القرية، يحسب أنّ الصبيّ

الميْت كان ابنًا لكلّ واحدة منهنّ. مع ذلك، فإنّ دانيال البوم وجد بعض العزاء في تلك البادرة المعبّرة عن روح التضامن في القرية.

وبينما انشغل الناس بتكفين الأقرع، ذهب البعر والبوم إلى دكّان الحدّاد.

– لقد مات الأقرع يا أبي، قال البعر. واضطرّ باكو الحدّاد إلى الجلوس، رغم متانة جسمه وقوّته، فقد أعياه سماع الخبر. ثمّ قال كما لو أنّه يجاهد قوّة ما توهن من عزيمته:

– الرجال يُخلَقون، أمّا الجبال فقد خُلِقت وانتهى الأمر.

فقال البعر: – ماذا تعني بكلامك يا أبي؟

– أن تشربا!، قال باكو الحدّاد وهو يكاد ينفجر غضبًا، ثمّ ناوله قربة النبيذ.

في ذلك المساء، اكتست الجبال بحلّة سوداء جنائزيّة، وكذلك حقول القرية وشوارعها ومنازلها، والطيور وتغريدها. فطلب منهما باكو الحدّاد أن يوصيا على إكليل من الزهور من المدينة لمأتم صديقهما الفقيد وتكريمًا له. وفعلًا، ذهبا إلى منزل الأرنبات وطلبا الإكليل هاتفيًّا. وهناك كانت كاميلّا تبكي أيضًا، ورفضت أن تأخذ منهما ثمن المكالمة رغم أنّ مدّتها كانت طويلة. ثمّ عادا إلى منزل خيرمان الأقرع، فلمّا دخلا طوّقت ريتا البلهاء عنق البوم بذراعيها وهي ترجوه بحرارة أن يسمح لها بعناقه، فهي بذلك تحسّ بأنّها لا تزال تعانق ابنها، لأنّه أقرب صديق إليه. فازداد حزن البوم أكثر وهو يفكّر بأنّه سيذهب بعد أربعة أسابيع إلى المدينة كي يبدأ مسيرته على طريق التقدّم، وأنّ ريتا التي لم تكن بالبلاهة التي تُشاع عنها، ستبقى من دونه ومن دون الأقرع، وحيدة كي تلملم جراحها وتداوي مشاعرها المكلومة بنفسها. وكذلك ربّت الإسكافيّ على كتفيّ كلّ من البوم والبعر، وعبّر عن شكره لهما لأنّهما

انتشلا الأقرع من النهر، وقال إنّهما قاما بما في وسعهما، لكنّ الموت أبى إلّا وأن يأخذ ابنه، ولا رادّ للموت إن ترصّد بالإنسان.

ما انفكّت النسوة يبكينَ قرب الجثمان ويولولنَ، ومن حين إلى آخر كانت تندفع إحداهنّ على الجسد الصغير، الهامد، البارد، فتقبّله وتضمّه بتفجّع، فيما دموعها تزداد غزارة وعويلها يعلو.

لفّ إخوة خيرمان رأسه بمنشفة كيلا يُرى قرَعه، فازداد حزن البوم، لأنّ صديقه بدا بذلك مثل طفل مُسْلِم، لا يتّبع الكنيسة. وأملَ البوم أن تُحدث المنشفة لدى دونْ خوسيه، الخوريّ، الانطباع نفسه، فيأمر بنزعها. لكنّ دونْ خوسيه أتى وعانق الإسكافيّ معزّيًا إيّاه، ثمّ بارك الأقرع بمَسْحَةِ الزيت المقدّس، من دون أن يتوقّف عند المنشفة.

إنّ الكبار نادرًا ما ينتبهون إلى آلام الصغار الدفينة، المريرة، فحتّى أبيه، صانع الجبن، عوضًا عن أن يواسيه لمّا رآه أوّل مرّة بعد الحادث، اكتفى بأن قال له:

– عليك أن تفكّر بما جرى يا دانيال، كي ترى إلى أين تؤدّي أعمال الشيطنة. فما حدث لابن الإسكافيّ كان يمكن أن يحدث لك أيضًا. وأرجو أن يكون ذلك عبرة لك، تعتبر منها.

لم يشأ دانيال أن يردّ على أبيه، لأنّه أحسّ بأن الأمر سوف ينتهي به إلى البكاء، إن هو تكلّم. فأبوه لا يريد أن يعرف أنّهم لم يكونوا يقومون بأيّ عمل شيطانيّ، لمّا وقع الحادث، وأنّهم كانوا بكلّ بساطة يحاولون قتل حمقاء الماء وحسب. وأبوه لا يريد أن يرى أيضًا أنّه مثلما أصابه بحبّة الخردق في خدّه، صباح اليوم الذي اصطاد فيه الحدأة بمعونة الدوق الكبير، كان يمكن أن يصيبه بها في صدغه ويرديه قتيلًا. إنّ الكبار ينسبون المصائب كلّها إلى طيش الصغار، ناسين أنّها من أقدار الربّ، وأنّهم هم أيضًا يرتكبون بعض الأفعال الطائشة أحيانًا.

أمضى دانيال البوم ليلته ساهرًا بالقرب من جثمان صديقه الميْت، وهو يحسّ بأنّ شيئًا عظيمًا يسهر في داخله ويؤرقه، وبأن لا شيء سيبقى مستقبلًا مثلما كان. فمن قبل، كان يعتقد أن روكي البعر وخيرمان الأقرع سيشعران بالوحدة إن هو غادر إلى المدينة كي يسير على طريق التقدّم، أمّا الآن فإنّه يرى أنّ من يشعر بالوحدة، بل بالوحدة القاتلة، هو ولا أحد سواه. لقد ذبل في أعماق كيانه شيء ما، وربّما كان هذا الشيء إيمانه بديمومة الطفولة، وأدرك أنّ الجميع، كبارًا وصغارًا، ينتهون إلى الموت. لم يتوقّف قطّ من قبل عند هذا الأمر ليفكّر فيه، أمّا الآن وهو يفكّر فيه، فإنّه يكاد أن يختنق من شعوره بالألم والقلق. إنّ الحياة بهذه الطريقة فيها شيء من الإغراء، لكنّها أيضًا محزنة وكئيبة بشكل مخيف. إنّها الموت يومًا بعد يوم، وشيئًا فشيئًا، وبشكل محتوم. ومع الوقت فإنّ الجميع سوف يرحلون: هو ودونْ خوسيه، وأبوه صانع الجبن، وأمّه، والفليفلات، وكينو، والأرنبات الخمس، وأنطونيو الكِرش، وميكا، وماريوكا أوكا، ودونْ أنطونيو الماركيز، وحتّى باكو الحدّاد. إنّهم جميعًا فانون، زائلون، وبعد مائة عام لن يبقى أثر لهم على أيّ من حجارة القرية، مثلما لم يبقَ أثر الآن لمن سبقوهم وعاشوا هنا قبل مائة عام. وسوف يحدث التبدّل ببطء ولن يشعر به أحد. وسوف يأتي وقت يختفي فيه الجميع عن هذه الأرض، ولن يبقى أحد على الإطلاق ممّن يعيشون على سطحها الآن، ولن يلحظ أحد التغيير، فالموت صاعق، غامض، رهيب.

عند الفجر، ترك دانيال البوم صديقه الميْت، وقصد منزله لتناول طعام الفطور. لم يكن جائعًا، لكنّه استحسن فكرة ملء معدته بالطعام لمواجهة المواقف المؤثّرة المقبلة، ورأى فيها إجراءً احترازيًّا. في تلك الساعة، كان يخيّم على القرية سكون قاتل، كما لو أنّ كلّ شيء فيها يحسّ ببرودة

الموت الرهيبة تلفّه وتكبّله. وبدت الأشجار متيبّسة وصياح الديكة محزنًا، كما لو أنّها تصيح مخنوقة ولا تجرؤ على تعكير جوّ الحِداد والخشوع الذي يُثقل على صدر الوادي. أمّا الجبال فقد انكفأت على نفسها بكلّ جبروتها، تحت السماء الرماديّة المكفهرّة، وحتّى الأبقار التي ترعى في المروج استسلمت للخدر والفتور أكثر من المعتاد.

وما إن انتهى دانيال البوم من تناول فطوره حتّى عاد إلى القرية. وأثناء مروره أمام سياج منزل الصيدلانيّ، لمح زرزورًا ينقر حبّة كرز برّيّ على حافّة الطريق العام، فاستيقظت في نفسه فجأة ذكرى صديقه الذي فقده إلى الأبد، وتناول النُقّافة من جيبه ودسّ حصاة في جلدتها، ثمّ شدّ المطّاط بقوّة وهو يسدّد بدقّة نحو الطير. ولمّا أصابت الحصاة صدر الزرزور، سُمِعَ صوت تكسّر عظامه حادًّا. هَرَعَ دانيال نحو الطير الصريع، فالتقطه ويداه ترتجفان، ثمّ استأنف المسير باتجاه منزل صديقه الميْت والزرزور في جيبه.

لمّا وصل دانيال، كان خيرمان الأقرع قد سُجّي في التابوت، وكان تابوتًا أبيض اللون، مطليًّا بالورنيش، أوصى عليه الإسكافيّ أحد مكاتب دفن الموتى في المدينة. وكذلك وصل إكليل الزهور الذي طلبه دانيال وروكي، وقد كُتِبَ عليه ما أملاه البعر: «يا أقرع، صديقاك البوم والبعر لن ينسياك أبدًا». وعاودت ريتا البلهاء احتضان دانيال بقوة وهي تقول له بصوت خافت كم إنّه ولد طيّب جدًّا. لكنّ توماس، شقيق الأقرع، الموظّف في إحدى شركات النقل، غضب لمّا رأى الكتابة على الشريط، فقصّ منه عبارة «يا أقرع» وترك الباقي: «صديقاك البوم والبعر لن ينسياك أبدًا».

وبينما كان توماس منشغلًا بقصّ الشريط، والآخرون يراقبونه، دسّ دانيالُ الزرزورَ بخفّة في التابوت، إلى جانب جثمان صديقه. كان يعتقد

أن خيرمان بعشقه للطيور لا بدّ وأن يشكره على هذه البادرة الجميلة، وهو في العالم الآخر. لكنّ توماس ما إن عاد كي يضع الإكليل عند قدمي الجثمان حتّى لاحظ وجود الطير الميْت إلى جانب أخيه، من دون أن يستوعب السبب. قرّب عينيه منه كثيرًا ليتأكّد أنّ ما يراه زرزورًا بالفعل، لكنّه لم يجرؤ على لمسه بعد أن تحقّق من صحّة ما يرى، وأحسّ على الفور بقشعريرة هائلة تسري في أوصاله.

- ما هذا... مَن... أيّ شيطان أتى بهذا الطير إلى هنا؟

لم يجرؤ دانيال البوم على الاعتراف بمسؤوليّته عن هذه الحادثة الجديدة، بعد أن رأى غضب توماس ممّا كُتب على الإكليل. وعلى الفور أُصيب الحاضرون جميعًا، وهم يقتربون من الطير ويتأمّلونه، بعدوى الذهول الذي أصاب توماس. مع ذلك، لم يتجاسر أحد منهم على لمسه، متسائلين:

- كيف وصل الزرزور إلى داخل التابوت؟

حاولت ريتا البلهاء أن تجد تفسيرًا معقولًا على وجوه من كانوا حولها، لكنّها لم ترَ فيها إلّا الذهول نفسه.

- يا بوم، أتعرف أنت مَن...؟

- لا أعرف أيّ شيء. وما رأيت الزرزور إلّا حينما أشار إليه توماس.

وفي تلك اللحظة، دخل أندريس، «الرجل الذي لا يُرى جانبيًّا»، وما إن رأى الزرزور حتّى رقّت دموعه وأخذ يبكي بصمت ثم قال:

- كان يحبّ الطيور كثيرًا، وها هي قد أتت كي تموت معه.

وأُصيب الجميع بعدوى البكاء، وفي الحال امّحى الذهول الذي أصابهم بدايةً، وحلّ محلّه اعتقاد بتدخّل السماء في الأمر. وكان أندريس، «الرجل الذي لا يُرى جانبيًّا»، أوّل من ألمح إلى ذلك بصوت مرتعش:

- إنّها... إنّها مُعجزة.

ولم يكن الحاضرون يتطلّعون إلى شيء سوى أن يُفصح أحد ما بصوت عالٍ عمّا يدور في خلدهم، حتّى يفرغوا ما في صدورهم، ذلك أنّهم ما إن سمعوا ما قاله الإسكافيّ، حتّى شهقوا جميعًا شهقة واحد، امتزج فيها التأوّه بالنحيب:

- مُعجزة!

وخرجت بعض النساء فزعات، يركضن بحثًا عن دونْ خوسيه؛ فيما ذهبت أخريات لإخبار أزواجهنّ وأقربائهنّ بما جرى، كي يأتوا ويشهدوا على المعجزة. وعمّ الاضطراب في المكان، وساد فيه هرج ومرج لا حدود لهما.

كان دانيال البوم لا ينفكّ يبتلع ريقه وهو في ركن جانبيّ من المنزل، فتلك الأرواح الشرّيرة الهائمة في الفضاء، لا تزال تفسد على الأقرع، حتّى بعد موته، أشدّ الأفعال براءة وأنقاها. وارتأى أنّه من الخير له أن يصمت، نظرًا لما وصلت إليه الأوضاع، وإلّا فإن توماس قد يقتله، بعد أن بلغ به الغضب مبلغه.

ودخل دونْ خوسيه على عجل.

قال الإسكافي: - انظر يا دون خوسيه، انظر.

ودنا دونْ خوسيه من حافّة التابوت بارتياب، فرأى الزرزور إلى جانب يد الأقرع الهامدة.

- هل هذه مُعجزة أم لا؟، قالت ريتا بانفعال، لمّا رأت الذهول على وجه الكاهن.

وسرَت في الجوّ همسات وهمهمات طويلة، فهزّ دونْ خوسيه رأسه يمينًا وشمالًا وهو يستطلع الوجوه المحيطة به.

- نعم، إنّه لأمر غريب. ولكن أَلَم يضَع أحدٌ هذا الطير هنا عمدًا؟

صاحوا جميعًا: - لا، لا، لا أحد...

أخفض دانيال البوم عينيه. وعادت ريتا تصرخ وهي تقهقه بجنون وتنظر إلى دونْ خوسيه بتحدٍّ:

- ما قولك يا دونْ خوسيه؟ هل هذه مُعجزة أم لا؟

حاول دونْ خوسيه تهدئة نفوس الحاضرين، إذ كان انفعالهم في ازدياد.

- لا أستطيع أن أبدي رأيًا في أمر كهذا. في الواقع يا أبنائي، من الممكن أن يكون أحدٌ ما قد دسّ الزرزور في التابوت مازحًا أو بحسن نيّة، وهو لا يجرؤ الآن على الاعتراف بما فعل خوفًا من غضبكم. ثمّ عاد والتفت إلى البوم وأخذ ينظر إليه مليًّا بعينَيْه الصغيرتَيْن الثاقبتَيْن بنظراتهما كرأس الإبرة، فاستدار البوم على عقبَيْه وولّى هاربًا إلى الشارع. واستأنف الخوري كلامه:

- وعلى أيّ حال، سوف أبلّغ الأسقف بما جرى هنا. لكنّي أكرّر على مسامعكم ضرورة ألّا توهموا أنفسكم بهذا الأمر كثيرًا. ففي الواقع، هناك حوادث كثيرة تبدو مُعجزة للعين، لكنّها في حقيقتها ليست كذلك، وليس فيها من المُعجزة إلّا المظهر. ثمّ قطع حديثه فجأة وقال:

- سأعود في الساعة الخامسة من أجل الدفن.

عند باب المنزل، صادف دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، دانيال البوم ورآه يسترق النظر إليه خَجِلًا. تلفّت دونْ خوسيه حوله، ثمّ ابتسم للصبي لمّا رأى أنّ المكان خالٍ من الناس، فربّت على قفا عنقه بحنوّ الأب، وقال له هامسًا:

- لقد أحسنت صنيعًا يا بنيّ؛ لقد أحسنت صنيعًا!

ثمّ مدّ له يده ليقبّلها ومضى في طريقه وهو يسير بخطى وئيدة، متّكئًا على عكّازه.

الفصل العشرون

إنّ للنواقيس لغتها المعبّرة، المتبدّلة، التي لا تعرف الثبات، فهي قادرة على أن تغيّر نبرة دقّاتها بين العميقة والغليظة والخفيفة والحادّة والحزينة. وما تقوله مرّة بطريقة ما، لا تكرّره أبدًا مرّتين.

لقد تعوّد دانيال البوم على تبدّل مشاعره بتبدّل دقّات النواقيس، فهو يعرف مثلًا أنّها في عيد العذراء تتلوّن بصخب الألعاب الناريّة والبهجة العارمة والفرح الغامر، فيطرب لها قلبه حينئذ، ويرقص سرورًا وحبورًا. أمّا أثناء الحرب، وعند انتهاء الغارة، فإنّ النواقيس كانت تجلجل بفرح أيضًا، لكنّه فرح مشوب بشيء من الحيطة والترقّب والحذر، إذ كان من الواجب حينها اتّخاذ تلك التدابير. وفي مرّات أخرى كانت الجلجلة تبدو صمّاء، حزينة، كئيبة، جوفاء، مثل اليوم الذي دُفن فيه خيرمان الأقرع، على سبيل المثال. ففي ذلك اليوم، تسربل الوادي حتّى أقاصيه بتلك الجلجلة الصمّاء، الحزينة، الكئيبة، الجوفاء، ونَفَذَتْ برودة ذبذباتها إلى الأعماق من كلّ شيء فيه، فسرَت في باطن الأرض، وفي جذور الزرع، وفي نقيّ عظام الرجال، وفي أفئدة الأطفال. وفي ذلك اليوم أيضًا انفطر قلب دانيال البوم وتصدّع حتّى ذاب مثل الرصاص المصهور تحت وقع ضرب النواقيس المهيب.

كان المطر يهطل ناعمًا، ودونْ خوسيه يتقدّم الجنازة وعليه الرداء الأبيض والوشاح الخاصَّيْن برجال الكهنوت، وخلفه يمشي أولاد الإسكافيّ الأربعة الكبار وهم يحملون النعش على أكتافهم، وفي داخله

خيرمان الأقرع والزرزور. ووراءهم كان يمشي أيضًا الإسكافيّ وإلى جانبه بقيّة الأقرباء، يتبعهم أهل القرية كلّهم تقريبًا، رجالًا ونساءً وأطفالًا، وقد ارتسم الحزن على وجوههم، وهم يحسّون بأعماقهم ترتجّ لضرب النواقيس التي تدقّ ببطء وانتظام. في ذلك اليوم أحسّ دانيال البوم بالنواقيس إحساسًا مختلفًا، إذ رأى نفسه مثل حشرة من الحشرات التي اعتاد خوريّ قرية لاكويّيرا على جمعها في صندوق وهو يثبّت كلًّا منها بإبرة. وبدا له أنّه كتلك الحشرات يحسّ بأنّ كلّ دقّة من دقّات الناقوس مثل إبرة حادّة الرأس، تخزه وتخترق منطقة حسّاسة في جسمه. وأخذ يفكّر في خيرمان الأقرع وفي نفسه أيضًا وفي المسارات الجديدة التي تفرضها الظروف على حياته. كان يُؤلمه أن تصبح تفاصيل حياته مجرّد ذكريات من الماضي بهذه السهولة، وأن يحسّ بأن لا شيء، لا شيء أبدًا، من الماضي سوف يعود، وكان ذلك الإحساس يكبّله ويثير في نفسه الحزن. كان يشعر أيضًا بالحنق لاستحالة العودة بالزمن إلى الوراء، وليقينه بأن لا أحد سوف يعود ليحدّثه عن الزرياب والحجل ورفراف النهر ودجاج الماء، بالدقّة والعمق اللذين كان يحدّثه بهما الأقرع عن تلك الطيور. وعليه إذًا أن يألف غياب صوت خيرمان الأقرع من حياته؛ وأن يتقبّل مثل أيّ حدث عاديّ ويوميّ أنّ عظامه سوف تتحوّل إلى رماد إلى جانب عظام أحد الزرازير؛ وأنّ الدود سينخر كلا الجسدَيْن من دون تمييز أو إبطاء.

لكنّه ما لبث أن أحسّ بعد ذلك بشيء من الارتياح وهو يتلمّس في جيبه قطعة النقود المعدنيّة، المثقوبة في وسطها، إذ خطر له أن يذهب بعد انتهاء الدفن، إلى دكّان أنطونيو الكِرش كي يشتري بعض السكاكر. بيد أنّه عدل عن تلك الفكرة في الحال، وفضّل الانتظار حتّى اليوم التالي، لاعتقاده أنّه من غير اللائق تناول السكاكر فورًا بعد دفن صديق غالٍ على قلبه وعزيز.

كان الناس قد تقدّموا بالموكب وهم ينزلون الدرب من ناحيته الشماليّة، متجّهين صوب مقبرة القرية الصغيرة. وما إن وصلوا أسفل الكنيسة، حتّى صار وقع دقّات النواقيس عنيفًا ومؤلمًا؛ ثمّ تجاوزوا المنعطف ودخلوا المقبرة الصغيرة بعد أن فُتِحَ بابها المعدنيّ وهو يصدر صريرًا بطيئًا، حادًّا. كاد المكان لضيقه ألّا يتّسع للجميع، فأخذ قلب دانيال البوم يخفق مسرعًا لمّا رأى القبر الصغير مفتوحًا عند قدميه. وعند التخم الشرقيّ للمقبرة، انتصبت بمحاذاة السياج شجرتا سرو فارعتان، بدتا مثل شبحَيْن عابسين. ما عدا ذلك، كانت مقبرة القرية متواضعة ولا تثير في النفس المهابة، إذ كانت خالية من المرمر والتماثيل والأضرحة والمدافن الكبيرة والقبور المكسوّة بالحجر. والأموات فيها ليسوا غير بشر من تراب وإلى التراب يعودون، فتتحلّل أجسادهم فيه وتتّحد معه، في دورة تكاد أن تكون أبديّة. وحول الصلبان الكثيرة نما السرخس وطال، وكذلك القرّاص والبهشيّة والنعناع ومختلف أنواع الأعشاب البرّيّة، فكان ذلك بمثابة العزاء لمن يرقدون في القبور، مضمّخين ليلًا ونهارًا بروائح أعشاب البرّ النفّاذة، الزكيّة.

كانت السماء متجهّمة، مكفهرّة، والمطر لا ينفكّ يهطل ناعمًا، فبدا حشد الناس وهم تحت المظلّات مثل صورة سوداء معبّرة عن الحداد، بكلّ ما فيه من مشاعر الحزن والوجوم. وأحسّ دانيال البوم بالبرد لمّا بدأ دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، صلاته الجنائزية على النعش المركون إلى جانب القبر الذي حُفر حديثًا. وخيّم على الجوّ صمت طويل أطبق على الصدور التي حُبِسَت فيها مئات الحسرات، وعلى العيون التي غارت فيها آلاف الدموع؛ وحينها أحسّ دانيال البوم فجأة بسخونة يد حانية فوق سخونة يده، فالتفت برأسه ورأى أوكا أوكا واقفة إلى جانبه، وقد اكتسى وجهها فوق ملامحه الطفوليّة بمظهر واجمٍ وهيئةٍ حزينةٍ

تفيض بالعجز والتسليم. فتمنّى البوم لمّا أحسّ على يده بسخونة اليد الحانية، لو كان بوسعه البقاء وحيدًا إلى جانب النعش مع أوكا أوكا كي يبكي ويذرف على ضفائرها الذهبيّة دموعًا غزيرة. ولمّا عاد والتفت إلى النعش ورآه عند قدميه، أحسّ بالندم لمجادلته الأقرع ذات يوم حول صوت الحِجلان عندما تطير، وحول مواهب الزرياب في تقليد تغريد الطيور، وحول طعم الندوب التي تخلّفها الجروح. والآن، الأقرع لا يستطيع الدفاع عن نفسه، لكنّ دانيال البوم يرى أنّه كان محقًّا في كلّ ما ذهب إليه، ويؤيّده من أعماق نفسه بلا تحفّظ. في ذلك المساء، كان صوت دونْ خوسيه وهو يتلو صلاة الجنازة يرتعش بنبرات حزينة تحت المطر:

- *كيرياليسون كريستياليسون. كيرياليسون. أبانا الذي في السماء...*

وبعد ذلك، بدأ الكاهن يتمتم كلامه بصوت غير مفهوم. وأحسّ دانيال البوم برغبة عميقة في البكاء، وهو يتأمّل حال الإسكافيّ وما آل إليه من خضوع لمصيبته واستسلام لها. ولم يعد لديه أيّ شكّ، وهو يراه على هذه الحال، بأنّه لن يعود أبدًا للنظر إلى سيقان النساء. فلقد أصبح فجأة عجوزًا منهكًا، مرتعش الأوصال، غير مبالٍ بالجنس. ولمّا أنهى دونْ خوسيه الصلاة الثالثة، مدّ ترينو، القندلفت، بساطًا صغيرًا من الخيش على الأرض، إلى جانب النعش، فرمى أندريس عليه فورًا بيسيتا واحدة.

وتعالى صوت دونْ خوسيه من جديد:

- *كيرياليسون. كريستياليسون. كيرياليسون. أبانا الذي في السماء...*

في الحال، رمى البيدق أيضًا ببعض القطع النقديّة على البساط، فعاد دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، وصلّى على الميت مرّة أخرى. ثمّ اقترب باكو الحدّاد ورمى عشرين سنتًا. وبعد قليل رمى كينو

الأبتر قطعة نقديّة صغيرة أخرى. ثمّ تقدّم بالتتابع كلّ من كوكو مأمور المحطّة، وباسكوالون عامل الطاحونة، ودونْ رامون العمدة، وأنطونيو الكِرش، ولوكاس الأبتر، والأرنبات الخمس، والمشرفة على منزل دونْ أنطونيو الماركيز، وتشانو، والجميع بلا استثناء، وكلّ رجل أو امرأة في القرية. فأخذ بساط الخيش يمتلئ بالقطع النقديّة الصغيرة، القليلة القيمة، وكان دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، يردّ عليهم بالصلاة كلّما قدّم أحدهم هبته، كما لو أنّه يقدّم لهم الشكر:

- *كيرياليسون كريستياليسون. كيرياليسون. أبانا الذي في السماء...*

أمّا دانيال فقد دسّ يده في جيب سرواله وتشبّث بقوّة بقطعة النقود المعدنيّة، المثقوبة في وسطها. وأخذ يفكّر، بلا وعي منه، في سكاكر الليمون التي سيأكلها في الغد، لكنّه تذكّر في الحال طعم السكاكر التي سيشتريها وطعم رقدة الأقرع الأخيرة، وقرّر أنّه لا يجوز له أبدًا أن يستمتع بسكاكر الليمون، ما دامت جثّة صديقه تتفسّخ في حفرة تحت الأرض. فبدأ يسحب يده من جيبه ويستعدّ لرمي قطعته المعدنيّة على بساط الخيش، لكنّ صوتًا ما في داخله أوقفه قائلًا: «كم من الوقت تحتاج حتّى تحصل على قطعة أخرى مثل هذه يا بوم؟». فترك القطعة تعود إلى جيبه، مدفوعًا غريزيًّا بشيء من الحرص اللئيم. وفجأة، تذكّر حديثه مع الأقرع عن الصوت الذي تصدره الحِجلان عند طيرانها، فتفاقم ألمه من جديد. ولمّا انحنى ترينو على بساط الخيش وأمسك به من أطرافه الأربعة كي يلمّه، أفلت دانيال البوم يده من يد أوكا أوكا وتقدّم نحو النعش وقال:

- انتظر!.

شَخَصَ الجميع إليه بأبصارهم، فأحسّ بوقعها على جسمه مثلما أحسّ بحبّات المطر. لكنّه لم يبالِ لذلك، وشعر باعتزاز كبير وهو

يُخرِج من جيبه قطعة النقود المعدنيّة، البرّاقة، المثقوبة، ويرميها على بساط الخيش؛ وكاد اعتزازه أن يضاهي في عظمته ما شعر به من اعتزاز، مساء اليوم الذي تسلّق فيه عمود الكوكانيا. لاحق القطعة المعدنيّة بعينيه وهي تسير مسارها، فرآها تتدحرج بعض المسافة ثمّ تنضمّ إلى باقي القطع، محدثة رنينًا مطربًا عند ارتطامها بها. ومع الصوت المتعب لدونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، رأى ابتسامة الأقرع التي توقّعها منه، قادمة من قاع نعشه الأبيض، المطليّ بالورنيش.

- *كيرياليسون كريستياليسون. كيرياليسون*. أبانا الذي في السماء...

ولمّا انتهى دونْ خوسيه من الصلاة، أُنزِلَ النعش إلى الحفرة وأُهِيلَ عليه الكثير من التراب. بعد ذلك، طَفِقَ المشيّعون يغادرون المقبرة على مهل. وأخذ الليل يهبط والمطر يشتدّ، وصار وقع أحذية الناس العائدين إلى القرية يتصاعد، وهم يجرّون أقدامهم على الدرب جرًّا.

ولمّا رأى دانيال البوم أنّه صار وحيدًا، اقترب من القبر ورسم إشارة الصليب على صدره ثمّ قال:

- يا أقرع، لقد كنتَ محقًّا. فصوت الحِجلان عند طيرانها هو «بررر...» وليس «فررر...».

كان البوم آخذًا بالابتعاد عن القبر لمّا خطرت له فكرة جديدة دفعته للرجوع. فعاد ورسم إشارة الصليب على صدره مرّة أخرى ثمّ قال:

- والمعذرة عن الزرزور.

كانت أوكا أوكا تنتظره عند باب المقبرة، فأمسكت بيده من دون أن تنبس ببنت شفة. وأحسّ دانيال البوم من جديد بأنّ رغبة عارمة في البكاء، لا حدود لها، تجتاحه. لكنّه تمالك نفسه ولم يبكِ، لأنّ روكي البعر كان يمشي أمامه بعشر خطوات، ويلتفت إلى الوراء من حين إلى آخر كي يتحقّق إن كان صديقه يبكي أم لا.

الفصل الحادي والعشرون

أخذ ضوء النهار يطلع حول دانيال البوم شحيحًا، فامّحت النجوم التي كانت تُرى من النافذة متلألئة في السماء، وبدأت قمّة جبل راندو تستردّ خضرتها، شامخةً في السماء الضاربة إلى البياض. وفي الوقت نفسه، جعلت الشحارير والبلابل وطيور الزرياب والخُضيريّ تُردِّد في الأحراش أنغامها الصباحيّة الشجيّة. وعلى مدّ النظر، شرع كلّ شيء يستعيد مظهره ليبين حجمه على مهل، وتنجلي ألوانه وأطيافه. وهكذا، كان الوادي يستقبل نهاره الجديد متلذّذًا بشذا الحقول وعبق البراري، فيما الروائح الزكيّة تزداد حدّة وشدّة، وهي تتصاعد في الأجواء الساكنة، الهادئة.

حينها تنبّه دانيال البوم إلى أنّه لم تُغمض له عين طوال الليل، وأنّ حكاية الوادي الصغيرة، الآسرة، كانت أثناء ذلك تمرّ في مخيّلته بحذافيرها، وبفيض عجيب من التفاصيل. فالتفت نحو النافذة، وألقى من خلالها نظرة على جبل راندو المهيب، ذي القمّة المدبّبة. وأحسّ بأنّ نبض الوادي يتغلغل في نفسه بكلّ عنفوانه، كما أحسّ بأنّه هو أيضًا يمنح نبضه للوادي، في رغبة عارمة منه بالتماهي معه والذوبان فيه بحرارة، ذوبانًا تامًّا. لقد كان كلّ منهما يندفع نحو الآخر بتوق شديد كي يبادله الحماية، وكان دانيال البوم يدرك أنّ أيّ شيئين تمكّن كلّ منهما من التكيّف مع الآخر، بهذه الطريقة، شكلًا ومضمونًا، لا يجوز لهما أبدًا أن يفترقا.

إلا أنّ يقينه بدنوّ الفراق كان يثير في نفسه القلق، مزيلًا بذلك النعاس عن جفنيه. فبعد ساعتين، أو ربّما أقلّ، سيودّع الوادي ويستقلّ القطار ويرحل إلى المدينة البعيدة كي يبدأ طريق التقدّم. كان يحزّ في نفسه أن يُضطرّ إلى الرحيل في تلك اللحظة التي تزيّن فيها الوادي بسوداويّة الخريف العذبة، وفي ذلك الوقت الذي ترقّى فيه كوكو، مأمور المحطة، في عمله ومُنح قبّعة جميلة، حمراء اللون. فنادرًا ما تتوافق التغيّرات الكبيرة في حياة المرء مع الحالة المعنويّة التي يعيشها.

كان هذا الوداع مؤلمًا جدًّا لدانيال البوم، مثلما كان يتوقّع تمامًا، مع أنّه لا ذنب له في أن يكون مرهف الأحاسيس، ولا في أن يكون ارتباط الوادي به عميقًا وآسرًا. لم يكن التقدّم يثير اهتمامه، بل لم يكن يعني له شيئًا على الإطلاق. وما يعنيه حقًّا هو القطارات التي تعبر الوادي مبتعدة أمام ناظريه؛ والضِيّاع البيضاء؛ والمروج وحقول الذرّة الصفراء المتجاورة؛ وبركة الإنكليزيّ وهدير نهر التشورّو الجارف المجنون؛ وميدان لعبة الكرات الحديديّة؛ ودقّات نواقيس الكنيسة؛ وقطّ الفليفلة الكبرى؛ ورائحة الحموضة المنبعثة من قوالب الجبن المتّسخة، ومشهد روث البقر يحطّ على الأرض فيجفّ ويتّخذ شكله العجيب؛ والركن الكئيب الموحش الذي يغفو فيه صديقه الأقرع غفوته الأبديّة؛ ونقيق الضفادع الدائم، الرتيب، وهي تحت الحجارة في الليالي الباردة؛ والنمش على وجه أوكا أوكا وحركات أمّه المتثاقلة وهي تقوم بأعمال المنزل؛ واستسلام الأسماك الصغيرة لتيّار الماء بثقة وطواعية؛ وأشياء أخرى كثيرة، لا تُعدّ ولا تُحصى، من الوادي. مع ذلك، فإنّ عليه أن يهجر كلّ هذا من أجل التقدّم، ذلك أنّه ما زال قاصرًا ولا حقّ له في اتّخاذ القرار الذي يراه ملائمًا لنفسه. إنّ المرء لا ينال حقّ اتّخاذ القرار إلّا بعد فوات الأوان، أي حينما لا يستطيع أن يكفّ عن العمل وبذل

الجهد ولو يومًا واحدًا فقط، إن كان لا يريد أن يبيت ليلته جائعًا. فما الفائدة من القدرة على اتّخاذ القرار في حينها، وما نفعها إذًا؟ إنّ الحياة لأشرس عدوّ يعرفه الإنسان؛ وإن سقط أحدهم فريسة بين براثنها، فكلّ قدرته على اتّخاذ القرار لا تعود تساوي شيئًا. أمّا هو فما زال في وضع يتيح له أن يتّخذ القرار الملائم له، لكنّ أباه هو من يؤدّي هذا الدور نيابة عنه، لأنّ عمره لا يتجاوز الإحدى عشرة سنة. فلماذا يا ربّ، لماذا كلّ هذا الظلم في تدبير شؤون الدنيا؟

كان صانع الجبن، رغم الحالة المعنويّة السيّئة لابنه، فخورًا باتّخاذه القرار الذي رآه ملائمًا له، وتمكّنه من وضعه موضع التنفيذ، فهو أمر لم يستطِع الكثيرون في القرية القيام به. وعشيّة يوم رحيل دانيال، طاف الأب بصحبة ابنه شوارع القرية كي يودّع أهلها.

وكان الأب، كلما توقفا أمام أحد، يقول: - إنّ الصبيّ ذاهب غدًا إلى المدينة، فقد بلغ الحادية عشرة من العمر وحان الوقت كي يبدأ بالتحضير للشهادة.

ثمّ يظلّ صانع الجبن واقفًا في مكانه وهو ينظر إلى ابنه، وكأنّه يقول له: «ماذا يقول الطالب؟». لكنّ الطالب لا يردّ ويطرق برأسه حزينًا، فليس لديه ما يقوله، وحسبه أن يُذعن وأن يُطيع.

لكنّ الجميع في القرية أبدوا تأثّرهم ومودّتهم العميقة تجاه دانيال، حتّى إنّ بعضهم بالغ في التعبير عنها، كما لو أنّهم كانوا فرحين فعلًا بمعرفتهم أنّ دانيال البوم بعد ساعات قليلة سيغيب عن أنظارهم وقتًا طويلًا. وربّت الجميع تقريبًا على قفا رقبته تودّدًا، وعبّروا له صراحة عن آمالهم وأمنياتهم الطيّبة:

- لنرَ إن كنت ستعود إلينا رجلًا.

- حسنًا أيّها الصبيّ! سوف تصبح وزيرًا. وحينها سوف نسمّي

باسمك أحد شوارع القرية أو ساحتها الرئيسيّة. وسوف تأتي أنت شخصيًّا لإزاحة الستارة عن اللوحة التي تحمل اسمك، ثمّ نتناول جميعًا طعام الغداء معًا في دار البلديّة. وفي ذلك اليوم سوف نشرب حتّى الثمالة!

وأظهر له باكو الحدّاد كلّ الحبّ بأن غمز له بعينه تودّدًا، وكان شعره الأصهب يلمع بحدّة تحت ضوء النهار.

أمّا الفليفلة الكبرى فكانت من أكثر الفرحين بخبر رحيل دانيال البوم.

- من المناسب أن تُؤدَّب قليلًا يا بنيّ. وهذه حقيقة أقولها لك بوضوح، فأنت تعرف صراحتي. ولنرَ إن كنت ستتعلّم في المدينة أن ترأف بالحيوان وألّا تمشي عاريًا في شوارع القرية، وأن تُنشد نشيد «الراعية السماويّة» طبقًا للأصول. وتوقّفت عن الكلام ونادت: - كينو! إنّ دانيال ذاهب إلى المدينة وقد أتى كي يودّعنا.

فنزل كينو الأبتر إلى الدكّان. ولمّا رأى دانيال البوم ذراعه المبتورة عن كثب، استفاقت ذكريات الماضي في نفسه، وأحسّ بصدره ينقبض انقباضًا خانقًا ومؤلمًا. وكذلك أحسّ كينو الأبتر بالحزن لأنّه سيفقد ذلك الصديق، فطَفقَ يُطبطب على ذقنه بطرف ذراعه المبتورة، كي يخفي حزنه، ثمّ أخذ يبتسم:

- حسنًا، يا فتى... ومن مثلك...! لا شيء... مثلما قلت لك. ولم يلحظ كينو الأبتر، نتيجة ارتباكه، أنّه لم يقل شيئًا فعلًا، فأضاف: - أتمنّى لك التوفيق.

بعد ذلك، أبدى بانتشو الملحد سخطه من صانع الجبن، لأنّه يرسل ابنه إلى مدرسة يُديرها الرهبان. لكنّ صانع الجبن لم يمنحه الفرصة كي يسترسل في كلامه:

– أتيت بالصبيّ كي يودّعك ويودّع عائلتك، لا كي أناقش معك إن كان عليه أن يدرس في مدرسة كاثوليكيّة أم علمانيّة.

ضحك بانتشو وأطلق كلمة نابية، ثمّ توجّه إلى دانيال متمنّيًا عليه أن يدرس كي يصبح طبيبًا ويعود إلى القرية ليحلّ محلّ دونْ ريكاردو، فقد أتعبته السنون وصار هرمًا. ثمّ قال لصانع الجبن وهو يربّت على كتفه:

– يا رجل، ما أسرع مرور الأيّام علينا!

فردّ صانع الجبن قائلًا: – هكذا نحن بني البشر.

وكان البيدق أيضًا شديد اللطف معهما إذ قال للأب إنّ مستقبلًا باهرًا ينتظر دانيال إن هو انكبّ على الدرس بجدّ واجتهاد. ثمّ أضاف متمنّيًا عليهما التأمّل في سيرته هو، فقد بدأ من الصفر أيضًا ولم يكن ذا أهمّيّة، لكنّه بالكدّ والجهد أتمّ تعليمه ووصل إلى غايته ظافرًا. وأثناء حديثه، بلغ من الزهو بنفسه مبلغًا صار معه يلوي حنكه ليًّا متكرّرًا، ولمّا أوشك أن يعضّ سالفته السوداء، ودّعاه وتركاه وحيدًا، يلوي حنكه، ويزهو بنفسه، وهو يهتزّ اهتزازه الأهوج، العجيب.

أمّا دونْ خوسيه، قدّس الله سرّه، فقد زوّد البوم ببعض النصائح المفيدة، وتمنّى له النجاح والتوفيق، وكان الحزن يبدو على محيّاه بوضوح لفراقه. وتذكّر دانيال البوم عظة الخوريّ في عيد السيّدة العذراء، إذ قال حينها إنّ لكلّ امرئ طريقه المرسوم في الحياة، وإنّ الشهوات والأهواء قد تؤدّي للانحراف عن هذا الطريق، وهكذا فإنّ المتسوّل الفقير قد يكون أغنى من المليونير الذي يعيش في قصر فخم، مزيّن بالعاج والمرمر ويعجّ بالخدم والحشم.

ولمّا تذكّر دانيال البوم ذلك، اعتقد بأنّه يحيد عن الطريق المرسوم له بسبب أهواء أبيه، فكظم ارتعاشه الذي هزّ أعماقه. ثمّ لفّه الحزن لمّا خطر في باله أنّ دونْ خوسيه قد لا يكون أمام كرسيّ الاعتراف، حينما يعود

هو مستقبلًا إلى القرية، وقد لا يتمكّن من أن يسمع مزاحه وهو يناديه بـ«الغجريّ» إلّا من أحد محاريب الكنيسة، وقد غدا قدّيسًا يقف على قاعدة خشبية وحول رأسه إكليل من النور. وحينها سيكون جسده الفاني إلى جانب جسد خيرمان الأقرع، يتفسّخ في مقبرة السروَتَيْن الصغيرة، المجاورة للكنيسة. وأخيرًا نظر دانيال البوم إلى دونْ خوسيه بإلحاح، وهو يحسّ بالحسرة لتوجّسه من ألّا يراه ثانية وهو يتكلّم أو يقوم بأيّ فعل، أو يصوّب نحوه عينيه الصغيرتين، الحادّتين، المليئتين بالغَمَص.

ولمّا مرّا بمزرعة الأميركيّ، أوشك دانيال أن يُصاب بالحزن حينما فكّر بميكا، وبأنّها سوف تتزوّج ذات يوم غير بعيد، في المدينة. لكنّه لم يشعر بالغمّ لعدم تمكّنه من رؤية ميكا، بل لاضطراره لأن يغادر الوادي من دون أن تراه بنفسها، وتُبدي شفقتها عليه، وترى أنّه حزين.

أمّا روكي البعر فلم يشأ أن يودّعه في تلك العشيّة، لأنّه سيرافقه إلى محطّة القطار في الصباح. ولن يعانقه عناق الوداع إلّا في اللحظة الأخيرة، لأنّه سيراقبه ليرى إن كان يعرف كيف يظلّ رجلًا حتّى النهاية أم لا، فقد سبق له أن حذّره مرارًا وتكرارًا:

- إيّاك أن تبكي لحظة رحيلك. فالرجل الحقّ لا يبكي حتّى وإن مات أبوه أمام عينيه، وتألم ألمًا عظيمًا.

كان دانيال البوم يستذكر ليلته الأخيرة في الوادي بشوق وحنين، فتقلّب وهو في السرير ولمح قمّة جبل راندو وقد طلعت عليها خيوط الشمس الأولى، فارتعشت أرنبة أنفه وهو يشتمّ رائحة العشب النديّ والروث، وهي تهبّ من النافذة، قويّة، حادّة. وفجأة، انتفض وهو في السرير، إذ سمع لتوّه صوتًا في الخارج، مع أنّ الوادي كان لا يزال مستسلمًا لسكونه. أصغى بانتباه أكبر، فلاحظ أنّ أحدًا ما يناديه من جديد، متعمّدًا أن يخفض صوته:

– يا بوم!

هبّ من سريره مُستنفَرًا، وأطلّ من النافذة على الطريق، فرأى أوكا أوكا واقفة هناك، وفي يدها جرّة فارغة، وعيناها تلمعان لمعانًا عجيبًا.

– يا بوم، أنا ذاهبة إلى قرية لاكويّيرا لإحضار الحليب، ولن أستطيع أن أودّعك في المحطّة.

أحسّ دانيال البوم بنياط قلبه تتقطّع في أعماق صدره وهو يسمع صوت البنت العذب، الرصين. وأخذت أوكا أوكا تؤرجح الجرّة الفارغة في يدها من دون أن تكفّ عن التحديق إليه، وضفائرها تلمع تحت ضوء الشمس الطالعة.

– إلى اللقاء يا أوكا أوكا، قال البوم وصوته يرتعش ارتعاشًا غريبًا.

– سوف تتذكّرني يا بوم؟

أسند البوم مرفقيه على إطار النافذة وأمسك برأسه بين يديه. كان يحسّ بخجل شديد من أن يقول لها ما يجول في خاطره، لكنّه أدرك أنّها فرصته الأخيرة، فقال:

– إيّاكِ يا أوكا أوكا أن تسمحي للفليفلة بإزالة النمش من وجهك، هل تسمعينني؟ لا أريد أن تزيله من وجهك!

ثمّ ارتدّ عن النافذة مندفعًا بكل ما أُوتِيَ من عزم لأنّه أحسّ برغبة في البكاء، وهو يأبى أن تراه أوكا أوكا على هذه الحال. ولمّا شرع يرتدي ملابسه استعدادًا للرحيل، انتابه إحساس عميق بأنّه يسير على طريق غير الطريق الذي اصطفاه له الربّ، فلم يتمالك نفسه. وبكى أخيرًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ميغيل ديليبس

الطريق

«لقد كان الصوت الصارم للشّعب الصامت»، هذا ما قاله رئيس الوزراء الإسباني خوسيه لويس ثاباتيرو عن ميغيل ديليبس. إنه إحدى الشخصيات العظيمة في الأدب الإسباني في القرن العشرين، الذين ولدوا في فترة ما بعد الحرب الأهلية الإسبانية.

يقرّر والد دانيال، الملقّب بـ«البوم»، أن على ابنه أن يذهب إلى المدينة ليكمل دراسته الثانوية ويسير على طريق التقدم. وبانتظار أن يُتم الـ«بوم» الحادية عشرة من عمره، أي خلال ثلاثة أشهر، سنرى العالم السعيد الذي يعيشه، وسيكون مضطرًا للتخلّي عنه: مغامراته مع أصدقائه -روكي البعر وجيرمان الأقرع- عبر الحقول لاكتشاف الطبيعة وأسرار الحياة والموت وعواطفه الأولى، ومغامراته مع الناس البسطاء في القرية... ذلك العالم الذي ينظر إليه بمزيد من الحنان والغصّة كلما شعر بأنه سيفقده قريبًا.

إن التعاطف الذي تقدّمه لنا تلك النظرة الطفولية إلى القرية، والذي يجعلنا نكتشف مجموعة رائعة من المشاهد التي تظهر لنا دائمًا بوضوح وحيوية وقوة من خلال السمات الكاريكاتورية للأشخاص، هو أحد أعظم نجاحات هذه الرواية.

من خلال الاستحضار المبهج للوقت الذي نلاحظ سحره عندما يتسلل من بين أصابعنا، وبسبب هذا المزج بين الوضوح الواقعي والفكاهة اللطيفة والحنين الخفي، يمكن تصنيف رواية «الطريق» ليس فقط كواحدة من أفضل روايات ميغيل ديليبس، وإنما أيضًا، كما أشار النقاد، كـ«واحدة من روائع السرد المعاصر».

مكتبة
t.me/soramnqraa
daraltanweer.com